

السلطان
سيف الدين قطز
ومعركة عين جالوت في عهد المماليك

د. علي محمد محمد الصلابي





209

978-625-6752-28-3

السُّلطان سيف الدّين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك
د. علي محمد محمد الصلابي
رجب صونگول

AsaletAjans

ajans@asaletyayinlari.com.tr

الأولى - ديسمبر 2023 م / جمادى الأول 1445 هـ

دار الأصاله للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة

Asalet Eğitim Danışmanlık

Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret

Sertifika No: 40687

Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.

Yümnü İş Merkezi, No: 16B/16 Vezneciler

Fatih, İSTANBUL-TÜRKİYE

Tel: +90 212 511 85 47

www.asaletyayinlari.com.tr

asalet@asaletyayinlari.com.tr

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti.

Sertifika No: 45522

Göztepe Mh. Bosna Cd. No: 11

Bağcılar/İSTANBUL

رقم الإصدار

التريقيم الدولي

اسم الكتاب

اسم المؤلف

رئيس التحرير

الاخراج الفني

الطبعة

دار النشر



كما أن إصداراتنا متاحة على منصتي



Google Play
Books

amazonkindle

Copyright © 2023

دار الأصاله للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة - إسطنبول - © تركيا 2023
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

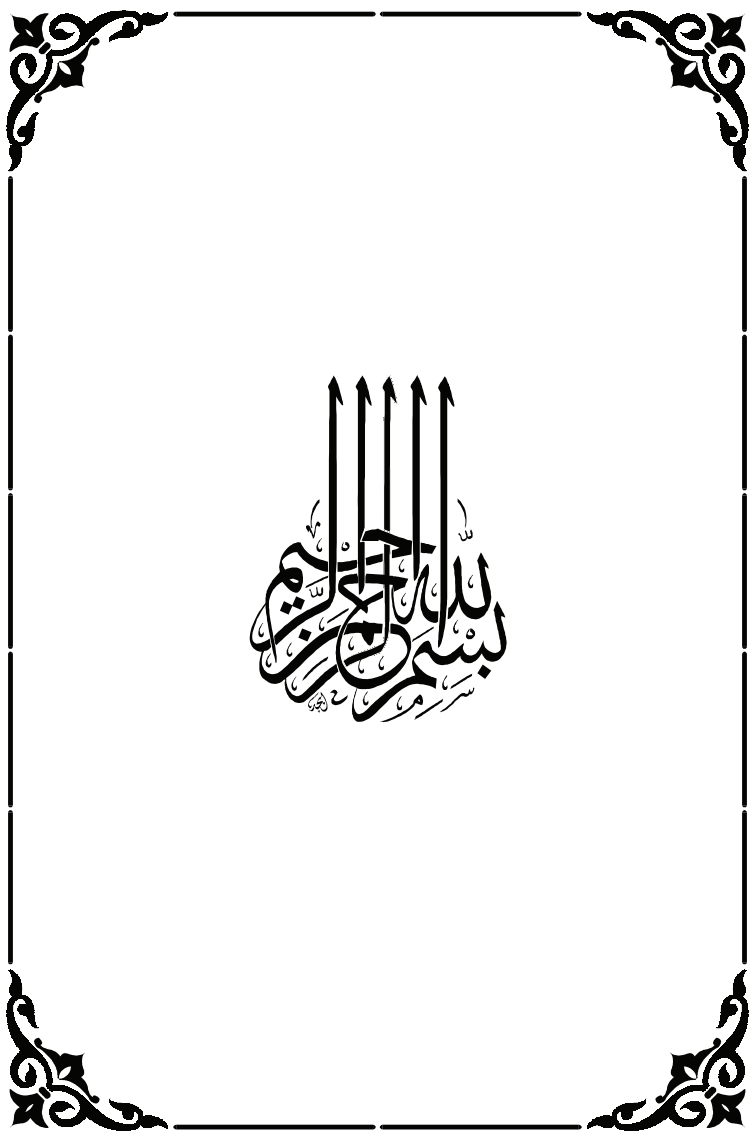
د. عليّ محمّد محمد الصّلابي

السُّلطان

سيف الدّين قطز

ومعركة عين جالوت في عهد المماليك





الإهداء

إلى كلِّ مسلم حريصٍ على إعزاز دين الله
ونصرته أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز
وجل بأسمائه الحسنی وصفاته العلی أن يكون
خالصاً لوجهه الكريم .

قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾
[الكهف : ١١٠] .

علي محمد محمد الصلابي



المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ ، وَنُسْتَعِينُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ
 مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ
 وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
 لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَكُمْ وَبَثَّ
 مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
 رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ

أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٠﴾ [الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، ولك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرضا ، فله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله ، وله الشاء كما يليق بكماله ، وله الحمد كما تستدعيه عظمته ، وكبرياؤه .

أما بعد :

هذا الكتاب جزء من كتاب المغول (التتار) بين الانتشار والانكسار ، وقد رأيت نشره على أفراد لنعم الفائدة وحتى نعطي سيف الدين قطز حقه على أفراد ، وقد سميت : السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت .

وقد تكلمت عن دولة المماليك ، وعن أصولهم ، ونشأتهم ، وعن نظام التدريب ، والتربية ، والتعليم ، والمراحل التي يمرون بها ، وعن نظام التخرج ، وإنهاء الدراسة ، ولغتهم ، ورابطة الأستاذية ، والزمالة بينهم ، وجهودهم في دحر الحملة الصليبية السابعة ، وصور من شجاعتهم ، وعن أسباب هزيمتهم ، ونتائجها والتي كان من أهمها :

١ - ارتفاع شأن ومكانة المماليك .

٢ - وعجز فرنسا عن تحقيق أهدافها .

وعن مقتل تورانشاه ، وزوال الدولة الأيوبية ، وكيفية مقتل تورانشاه ؟ وأسباب سقوط الدولة الأيوبية ، والتي من أهمها :

- ١ - توقف منهج التجديد والإصلاح .
 - ٢ - الظلم .
 - ٣ - الترف والانغماس في الشهوات .
 - ٤ - تعطيل الخيار الشوري .
 - ٥ - النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية .
 - ٦ - موالاة النصارى .
 - ٧ - فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري .
 - ٨ - ضعف الحكومة المركزية .
 - ٩ - ضعف النظام الاستخباراتي .
 - ١٠ - غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي .
 - ١١ - وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه .
- وكان حديثي عن شجرة الدرّ هل هي أيوبية ، أم مملوكية ؟ وكيف تولّت سلطنة مصر ؟ وموقف الخليفة العباسي ، والعلماء ، وعامة الناس من توليها الحكم ، وكيف خلعت نفسها ، ورشحت عزالدين أيبك لتولي السلطنة ، وتزوجته بعد ذلك ؟ وبيّنت حكم الشريعة الإسلامية في تولي المرأة للولاية العامة ، وأشارت

للمخاطر التي تعرض لها عز الدين أيك في حكمه ، كالخطر الأيوبي ، والصليبي ، ومحاولة لويس التاسع استغلال فرصة النزاع بين المسلمين ، وتردّد السفارات بين ملوك مصر ، والشام ، ولويس التاسع ، ومساعي الخليفة العباسي في الصلح بين المماليك ، والأيوبيين ، وموقف المماليك من تمرّد القبائل العربية في مصر ، وتصديّ عز الدين أيك لخطر زملائه المماليك ، ومقتل الفارس أقطاي ، ومقتل السلطان أيك ، وشجرة الدر بعد ذلك .

وتحدثت عن سلطنة عليّ بن المعز ، ثم تولّى سيف الدين قطز ، وترتيبه للأمر الداخلي . ثمّ كان الحديث عن معركة عين جالوت الخالدة ، وانكسار المغول ، وتبعت تحرك المغول بعد سقوط بغداد ، وبيّنت كيف تمّ احتلال المغول لبلاد الشام ، والجزيرة ، ووضّحت مشروع الكامل الأيوبي لمواجهة التتار ، وكيف استشهد عند دفاعه البطولي عن ميّافارقين ، فقد صمدت المدينة الباسلة ، وظهرت فيها مقاومة ضارية بقيادته ، ونظراً لطول الحصار الذي فرضه المغول على المدينة ؛ نفذت الأرزاق من داخلها ، وعمّ القحط ، وانتشر الوباء ، وتهدمت الأسوار من شدة ضرب المنجنيقات ؛ حتى هلك أكثر سكان المدينة ، فقد وقعت المجاعة فيها بسبب الحصار الطويل ، وفي عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م سقط آخر معقل للمقاومة في الجزيرة ، ودخل التتار ميّافارقين ، فوجدوا جميع سكانها موتى ، ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء ، وقبضوا على الكامل الأيوبي فعنّفه

هولاًكو ، وأمر بتقطيعه ، وأخذوا يقطعون لحمه قطعاً صغيرة ، ويدفعون بها إلى فمه ؛ حتى مات ، ثم قطعوا رأسه ، وحملوه على رمح ، وطاقوا به في البلاد وذلك سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م إلى أن وصل دمشق ، فعلقوه على باب الفرديس ؛ حتى أنزله الأهالي ، ودفنوه .

وكان السلطان الناصر الأيوبي سلطان بلاد الشام متردداً بين المقاومة والاستسلام ، وكان متخوفاً من المغول ؛ الذين هددوه بالرسائل ، وذكروه بما حدث لبغداد وخليفته ، وجاء في رسائلهم للسلطان الناصر : ... واستحضرنا خليفته ، وسألناه عن كلمات ، فكذب ، فواقعه الندم ، واستوجب منا العدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة ، وكانت نفسه خسيصة ، فجمع المال ، ولم يعبأ بالرجال ، وكان قد نمي ذكره ، وعظم قدره ، ونحن نعوذ بالله من التمام ، والكمال :

إذا تم أمرٌ دنا نقصه توقّ زوالاً إذا قيل تم
إذا كنت في نعمةٍ فارعها فإنّ المعاصي تُزيل النعم
وكم من فتىّ بات في نعمةٍ فلم يدر بالموت حتّى هجم
إذا وقفت على كتابي هذا ؛ فسارع برجالك ، وأموالك ،
وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض ، ملك الملوك على وجه
الأرض ؛ تأمن شرّه ، وتتلّ خيره ، كما قال تعالى في كتابه
العزیز : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [٣٩] وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ﴿٤١﴾ ثُمَّ
يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴿٤٢﴾ [النجم : ٣٩ - ٤١] . ولا تعوِّق رسلنا

عندك ، كما عوّقت رسلنا من قبل ﴿فَأَمْسَاكُ﴾ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ ﴿١﴾ . وقد بلغنا أن تجار الشام ، وغيرهم انهزموا إلى كروان سراي^(١) ، فإن كانوا في الجبال ؛ نسفناها ، وإن كانوا في الأرض ؛ خسفناها .

هذه طرق من الحرب النفسية التي كان المغول يشنونها ضد أعدائهم . واستمرّ المغول في هجومهم على ديار المسلمين ، وسقطت حلب ، وسلّمت دمشق ، وسيطر المغول على بلاد الشام ، وكانوا شديدي الوطأة على المسلمين ، فبادروا إلى تدمير الاستحكامات ، والأسوار ، والقلاع في البلاد التي خضعت لهم ، مثل : حلب ، ودمشق ، وحمص ، وحماة ، وبلبك ، وبنياص ، وغيرها ، وحقّقوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل ، ولقد مال المغول منذ اللحظة الأولى لغزوهم للشرق الأدنى إلى العنصر المسيحي النسطوري . وأصبح الملك الناصر مسلوب الإرادة مرعوباً ، ليس له رأي ، ووقع أخيراً في أسر هولاكو الذي قام بقتله فيما بعد عند سماعه لهزيمة المغول في عين جالوت .

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في أيدي المغول وحلفائهم أن عمّ الرُّعب ، والخوف سائر أرجائها ، فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية ، وكانت القيادة الإسلامية بمصر تستقبل فلول

(١) كان هذا اسم مصر عند التتار .

المسلمين من العراق ، والشام ، وتجهز نفسها لمعركة فاصلة مع المغول ، وكان السلطان سيف الدين قطز على رأس السلطة في مصر ، وكان يدرك : أنَّ بقاء دولته الفتية يتوقف على اجتيازه ذلك الامتحان الكبير المتمثل في الغزو المغولي للممالك الإسلامية الذي استشرى خطره ، وأنَّ يثبت : أنه بحق أهل الثقة التي أولاها إياه الأمراء في مصر ، ورجل الساعة بالفعل بعد إجماعهم على عزل الملك المنصور علي بن المعز أليك وتنصيبه على دولة المماليك ، وأخذ سيف الدين في إعداد الجبهة الداخلية ، وحرص على رص الصفوف والتصالح مع المخالفين ، وحكم الشريعة الإسلامية في دولته ، واستجاب لتعاليم ، وترشيد الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وردَّ على رسالة هولوكو بإعلان الحرب على المغول ، والقبض على رسلهم ، وضرب أعناقهم أمام أبواب القاهرة ، وعلّق رؤوسهم على باب زويلة ، وأبقى على صبي من الرسل ، وجعله من مماليكه ، وكانت تلك الرؤوس أول ما علق في مصر من المغول ، وشرع في إعداد العدة للمعركة الفاصلة ، واستطاع المسلمون بقيادة سيف الدين قطز أن يحققوا نصراً ساحقاً على المغول ، وتمَّ تطهير بلاد الشام من السيطرة المغولية ، ورُتب سيف الدين قطز أمور الولايات الشامية ، وبعد ذلك قصد البلاد المصرية ، وفي طريق عودته تمَّ اغتياله على يد ركن الدين بيبرس ، ومجموعة من فرسان المماليك لأسباب تمَّ بيانها ، وتفصيلها في هذا الكتاب . وذكرت أهم العوامل التي ساهمت في تحقيق النصر

في معركة عين جالوت ، والتي منها :

- ١ - القيادة الحكيمة .
- ٢ - توسيد الأمر إلى أهله .
- ٣ - الجيش القوي .
- ٤ - إحياء روح الجهاد .
- ٥ - الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب .
- ٦ - عبقرية التخطيط .
- ٧ - بُعد نظر سيف الدين قطز ، وقيادته الحكيمة .
- ٨ - توفر صفات الطائفة المنصورة .
- ٩ - سنة التدرج ، ووراثه المشروع المقاوم .
- ١٠ - الاستعانة بالعلماء ، واستشارتهم .
- ١١ - الزهد في الدنيا .
- ١٢ - صراعات داخل بيت الحكم المغولي .
- ١٣ - سنة الله في أخذ الظالمين ، والطفة .

وبينت : أنَّ الأسباب في انتصار المسلمين في عين جالوت متشابهة ومتداخلة ، ويؤثر كلُّ منها في الآخر تأثيراً عكسياً ، وما ذكرنا من الأسباب ليس على سبيل الحصر ، وإنما هذا ما أمكن الوصول إليه ، ومع البحث والتنقيب في صفحات التاريخ يمكن

للباحثين ، والمهتمين ، أن يصلوا إلى المزيد ؛ لكي نستخرج الدروس ، والعبر ، والسنن ، والقوانين المهمة في قيام الدول ، وسقوطها ، وانتصار الشعوب ، وهزيمتها ، ومعرفة صفات قادة التمكين ، وفقهاء النهوض . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

ولخصت أهمّ النتائج ، والآثار المترتبة على انتصار المسلمين في عين جالوت ، فذكرت منها :

- ١ - تحرير بلاد الشام من المغول .
- ٢ - تحقيق الوحدة بين الشام ومصر .
- ٣ - خمود القوى المناوئة للمالِك .
- ٤ - انتصار الإسلام على الوثنية .
- ٥ - أنه حدث حاسمٌ في تاريخ البشرية .
- ٦ - أنه روحٌ جديدة في الأمة .
- ٧ - انحسار المد المغولي .
- ٨ - فشل التحالف بين الصليبيين والتتار .
- ٩ - إضعاف الوجود الصليبي .
- ١٠ - مدينة القاهرة عاصمة المماليك .

١١ - ميلاد دولة المماليك الفتية .

١٢ - الدور الرمزي للخلافة العباسية .

١٣ - تطوير الجيش المملوكي ، وتحديث عتاده ، وأنظمته .

لقد تعرّفت من خلال دراستي في هذا الكتاب على طبيعة المشروع المغولي ، ونقاط ضعفه ، وقوته ، وكيف استباح العالم الإسلامي ، وتهاوت مدن المسلمين ، كبخارى ، وسمرقند ، وكابل ، وبغداد ، وغيرها أمام جيوش المغول ، فاستباحت الديار ، وهتكت الأعراض ، وصودرت الممتلكات ، وغابت أسباب النصر ، وتعمّقت عوامل الهزيمة في الأمة أمام المشروع الغازي ، ومضت السنن ، والقوانين الإلهية ، وعملت عملها ، ولم تجامل أحداً ، وما تغيرت ، ولا تبدلت ؛ والناس في همٍّ ، وغمٍّ ، وذللٍّ ، وضعفٍ ، وخورٍ ، وصغارٍ ؛ حتى استوعبت القيادة الإسلامية في مصر فقه المقاومة وإدارة الصراع ، وعرفت كيف تدفع أقدار الله بأقداره من خلال سنن النهوض ، وأسباب النصر ، فكانت النتيجة المذهلة في معركة عين جالوت .

لقد تحرك سيف الدين قطز من خلال مشروع إسلامي ملك مقومات الصمود ، والتحدّي ، وحقق الانتصار ، فكانت الرؤية واضحةً ، والهوية صافيةً ، والبعد العقائدي حاضراً ، والفقه

السياسي ناضجاً ، والقوة العسكرية متفوقةً في مجالها :
 المعنوي ، والمادي ، وعرف سيف الدين قطز مكانة العلماء في
 الأمة ، وقوة تأثيرهم ، ونفوذهم الروحي على الشعب ، فقربهم ،
 واحترمهم ، وفتح لهم أبواب التعليم ، والوعظ ، والإرشاد ،
 فقاموا بدور كبير في تعبئة الأمة ، ودفعها لكي تلتفّ حول المشروع
 الإسلامي الذي قاده سيف الدين قطز .

إنّ تاريخ الأمة ثروة فكرية لا تفتنى ، وكنوز علمية لا تنفد ،
 تمنحنا الأصالة ، وعزّ الإيمان ، وشرف الانتماء ، فيعيننا لهذا
 المخزون الحضاري في تشكيل الحاضر ، واستشراف المستقبل ،
 واستئناف الحياة الكريمة في ظلّ مجتمع إسلامي تسوده العقائد
 الصحيحة ، وتركيبه العبادات السليمة ، وتحركه مشاعر رفيعة ،
 وتحكمه تعاليم الإسلام ، وتوجه اقتصاده ، وفنونه ، وسياسته ؛
 على أننا إذا تلفّتنا إلى الماضي ؛ فلا نلتفت إليه لنرجع القهقريّ ،
 ونمشي إلى الوراء ، بل لنستمدّ منه القوة على السير سعياً إلى
 الأمام ؛ لنربط بين الماضي المجيد ، والمستقبل المشرق إلى
 الأمام لنصل مجدنا الجديد بمجدنا التليد ، إننا نعلم : أن
 الاستغراق في الماضي وحده نومٌ ، أو جمود ، والاستغراق في
 المستقبل وحده هوسٌ ، وجنون ، والاستغراق في الحاضر وحده
 عجزٌ ، وقعود ، ونحن نريد أن نستمدّ من الماضي دافعاً ،
 وحافزاً ، ومن المستقبل موجّهاً ، ومرشداً ، ومن الحاضر
 عماداً ، وسناداً .

ونحن نعلم : أنَّ هذا المجد لا يعود بالأحاديث ،
والخطب ، ونعلم : أنَّ السجين المصفَّد بالأغلال لا يطلقه تذكر
الحرية ، والتغني بلذاتها ، وأنَّ الجائع لا يشبعه تذكر موائد
الماضي ، واستعراض ألوانها ، وأنَّ الفقير لا يغنيه تذكر زمان
غناه ، والزهو بما ضاع فيه ، وأنَّ الذلة لا تُدفع عن الدليل بنظم
قصائد الفخر بعزة جدّه ، ولكننا نعلم أيضاً : أنَّ السجين الذي
ينسى أيام الحرية يستريح إلى القيد ، ولا يجد حافزاً إلى
الانطلاق ، وأنَّ الفقير الذي ينسى زمان الغنى يطمئن إلى الفقر
ولا يجد دافعاً إلى الاستغناء ، وأنَّ الدليل الذي ينسى عزة أبيه
يألف الذلّ ، ولا يجد قوةً على دفعه ، فإذا اطمئنا إلى جلال
ماضي ، وحسبنا : أنَّ خطبة بتمجيده ، ومقالة بالإشادة به تغنيا
وتكفيها ؛ فلن يعود لنا هذا الجلال أبداً ، وإن نسينا : أننا أبناء
سادة الأرض ، وأساتذة الدنيا ؛ لم يحرك أعصابنا شيءٌ إلى
استعادة هذا المجد ، فلنأخذ من الماضي بقدر ، نأخذ منه ما
يدفع ، ويرفع ، وينفع ، وندع منه ما يشبط ، ويُقعد ، وينيم .

إننا لا نريد أن نعود إلى الزمان الماضي ، فالزمان يمشي أبداً
لا يقف ، ولا يعود ، ولا نعود إلى مثل معيشة الزمان الماضي ،
ونترك ثمرات الحاضر ، ولكن نعود إلى المُثل العليا ، وإلى
الفضائل التي لا تفقد قيمتها بمرور الزمن ، فكما : أن الذهب ،
والألماس لا يغيّر القَدَم ، ولا يصدأ كما يصدأ الحديد ؛ فإنَّ في

المعاني ما هو كالألماش ، والذهب في المعادن ^(١) .

نحن نريد أن نعود إلى حياة الإيمان ، والتقوى ، والإحسان ، والعدل ، والعبودية الخالصة لله عز وجل ، والشرعة الحاكمة على الأفراد ، والشعوب ، والأمة ، والدول ، وننحرر من أنواع الشرك ما ظهر منه وما بطن ، ونعمل لقول الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥ - ٥٦] .

إن أمر النهوض بهذه الأمة ، والتصدي للمشاريع الغازية يحتاج إلى جميع أنواع القوى على اختلافها ، وتنوعها ، ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة ، وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها ؛ لأن التمكين لهذا الدين طريقه للوصول إلى القوى بمفهومها الشامل ، وقد قال الأصوليون : وما لا يتم الواجب إلا به ؛ فهو واجب ^(٢) .

إن القرآن الكريم أوجب على أتباعه إعداد القوة ، قال

(١) فصول في الدعوة والإصلاح ص : ١٤ .

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص : ١٢٣ .

تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠] وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة ، فهم يواجهون نظاماً عالمياً ، وقوى دولية لا تعرف إلا لغة القوة ، فعليهم أن يقرعوا الحديد بالحديد ، ويقابلوا الريح بالإعصار ، ويقاتلوا الغزاة بكل ما اكتشف الإنسان ، ووصل إليه العلم في هذا العصر من سلاح ، وعتاد ، واستعداد حربي ، لا يقصرون في ذلك ، ولا يعجزون ^(١) .

إن قادة المماليك قدّموا للأمة أعمالاً جليلة في الفداء ، والبطولة ، فقد استطاعوا أن يقاوموا طوال فترة حكمهم عدوّين غاشمين ، كانت لهم أطماع في البلاد الإسلامية دينية ، وسياسية ، واقتصادية ، هما : المغول ، والصليبيون ، غير أنهم جميعاً لم يستطيعوا تحقيق رغباتهم ، ولا الوصول إلى أهدافهم ؛ إذ كان المماليك يقفون سداً منيعاً لحماية للبلاد الإسلامية ، ودفاعاً عن الدين والأخلاق ، فكان جهادهم في هذا المضمار من أعظم الأعمال التي قاموا بها ، وكانت وقائعهم مع أعداء الإسلام صفحات مضيئة ، ومشرفة يستفيد منها ويقتدي بها المسلمون كلما أرادوا العزة والكرامة ، لقد استطاع المماليك أن يثبتوا كفاءتهم ،

(١) المصدر نفسه ص : ٢٢٤ .

وشجاعتهم في الميادين العسكرية ، والسياسية ، فنظر إليهم حكام الدول الإسلامية ، وشعوبها نظرة إكبار ، وإجلال في حين نظرت إليهم القوى الدولية الأخرى نظرة خوف ، واحترام ، فحرصت على ملاطفتهم ، ومسالمتهم ، أو مهادنتهم اتقاء بطشهم ، وانتقامهم ، وبذلك تكون دولة المماليك قد فرضت احترامها على الأعداء ، والأصدقاء ، وتسابق الجميع في كسب مودتها ، وإقامة العلاقات معها ، وشهدت القاهرة نشاطاً سياسياً ضخماً في تلك الحقبة من تاريخ المماليك ^(١) .

وقد وصف عصر المماليك بأوصاف ، واتهامات جائرة ، فوصف بأنه عصر تدهور ، واضمحلال ، وعصر تخلف ، وجمود ، وعصر اجتزت فيه العلوم اجتراراً ، إلى غير ذلك من الأحكام التي انطلقت من أفواه المستشرقين خاصة ، فعلى الرغم من أن الحقائق تشير إلى أن أضخم إنتاج فكري في العصور الإسلامية قد جاءنا من عصر المماليك إلا أن المستشرق الفرنسي « جاستون فييت » يعده إنتاجاً من الدرجة الثانية ، ويقول عن ذلك : ولكن القاهرة لم تكن في أي وقت مضى مركزاً علمياً في مستوى بغداد ، وقرطبة ، وكانت في القرنين الرابع عشر والخامس الميلاديين - الثامن والتاسع الهجريين مركزاً للسياسة ، والإدارة ، وبصفة خاصة للتجارة العالمية ، ورغم : أنها احتفظت بذوقها

(١) الحسبة في العصر المملوكي ص : ٢٦٧ .

الفني الرفيع ؛ فإنها في مجال الإنتاج الفكري كانت من الطبقة الثانية^(١) . ويصف « بروكلمان » هذا الإنتاج بأنه إنتاج يكاد يكون خلواً من الأصالة ، والإبداع بالكلية^(٢) .

ومن ثمَّ نجد : أنَّ عدداً من الباحثين العرب ، والمسلمين قد انساقوا وراء آراء المستشرقين ، فأصيبوا بداء الإعجاب بهم ، فانطلقت أكثر أحكامهم من حدود آراء المستشرقين ، ولم تنطلق من دراسة علمية متخصصة ، وموضوعية ، وهؤلاء الباحثين الذين ساروا على نهج المستشرقين ، كفيليب حتي ابتعدت أحكامهم عن الموضوعية ، وجاءت مطلقة ، كما ورد في رأي بروكلمان الذي جعل العصر المملوكي بطوله ، وعرضه خالياً من الإنتاج الأصيل المبدع بالكلية وقاصراً كما جاء في رأي « جاستون فييت » الذي وصل إلى رأي لا أظن أن أحداً من الباحثين يسمع له فيه عندما قصر الحياة الفكرية على مقدمة ابن خلدون وحدها في عصر امتدَّ قرابة قرون ثلاثة ، وخلف العشرات من العلماء الذين يُشار إليهم بالبنان ، ويعرفهم الصغير والكبير .

لقد حاول غالبية المستشرقين أن يصفوا عصر المماليك بعصر الانحطاط ، والتخلف والجمود بدافع من الجهل ، أو الحقد ، أو كليهما ، ثم تابعهم كالعادة بعض المؤرخين ، والعلماء

(١) القاهرة مدينة الفن والتجارة ، مصطفى العبادي ص : ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص : ٣٧١ .

المحسوبين على ثقافتنا ، وحضارتنا ، ورددوا هذه الأقاويل ؛ حتى وسموا عصر المماليك كله بالتخلف ، والانحطاط ، والهجين ، والفوضى ، والانحلال . والواقع : أن هذا الرأي الذي يؤيده غالبية المستشرقين - كما تتشدد به غالبية المستغربين من أهل المشرق - ينطلق من حقد الغربيين الدفين على المماليك الذين دمروا الصليبيين ، وأجلوهم عن الشام ، كما دمروا حلفاءهم المغول ، وحفظوا لبلاد الشام ، والأماكن المقدسة فيها ، والحجاز استقلالها قرابة ثلاثة قرون في فترة زمنية قياسية ^(١) .

إنَّ الحقائق التاريخية تثبت للباحثين المنصفين بأن عصر المماليك لم يكن بحال من الأحوال عصر انحطاط ، بل هو الذي ظهرت فيه حضارة عظيمة في مختلف نواحي الحياة ، لقد كان عصر المماليك هو العصر الذهبي في العمارة الإسلامية ، وهذا يبدو اليوم بوضوح تام في القاهرة التي سميت بمدينة الألف مئذنة ، والتي تنتشر فيها الآثار المملوكية الهائلة بدءاً من البيمارستان المنصوري إلى جامع السلطان حسن ، وخانقاه بيبرس الجاشنكير ، ومسجد الأمير أيبك ، ومسجد الغوري ، وغير ذلك ^(٢) ، وأما الذين لم يزوروا القاهرة ، فبإمكانهم مشاهدة الآثار المملوكية في دمشق مثل المدرسة الظاهرية ، والجقمقية التي

(١) العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية ص : ١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٣ .

بجوارها ، وبين هذه وتلك يمكنهم مشاهدة نموذج رائع من نماذج العمارة المملوكية ، وهو المئذنة الغربية من مآذن الجامع الأموي التي أمر بنائها السلطان قايتباي بعد حريق الجامع الأموي ٨٨٤ هـ ، وتمّ ذلك في بضعة شهور ^(١) .

وفي ميدان الفكر قد امتاز العصر المملوكي بأنه عصر الموسوعات الكبرى في الأدب ، والتاريخ ، والتفسير ، والفقه ، والحديث ، وغيرها ، ففي علوم الدين ، والفقه ، والحديث نجد الموسوعات الضخمة للإمام النووي ، وابن تيمية ، وابن رجب ، والبدر العيني ، وابن حجر . وفي التاريخ نجد اليونيني ، والبرزالي ، وابن كثير ، وابن خلدون ، وابن تغري بردي ، والنويري ، وفي الموسوعات العلمية نجد مسالك الأبصار ، وصبح الأعشى ، وخطط المقرئزي ، وغيرها . وهؤلاء ، وأمثالهم حفظوا لنا التراث الإسلامي بالدرجة الأولى ، ثم زادوا عليه ؛ حتى أصبحنا اليوم نعرف أدقّ التفاصيل عن القاهرة في عصر المماليك .

وهناك جانب آخر من الحضارة المملوكية لم يلتفت إليه الكثيرون ، ونعني به الجانب العسكري ، ذلك أن الانتصارات المذهلة التي حققها المماليك على برابرة الشرق ، والغرب ؛ أي : على المغول ، والصليبيين في غضون أربعة وأربعين عاماً فقط من

(١) المصدر نفسه ص : ١٣ .

سنة ٦٥٨ هـ - ٧٠٢ هـ فقد تحققت بسبب الشجاعة ، والعقيدة ، ونتيجة ازدهار ما يسمى بلغة اليوم بالصناعات الهندسية ، والعسكرية ؛ التي مكنت المسلمين من تحرير قلعة عكا في فلسطين ، وهو الفتح المبين الذي لم يكن في أهميته بأقل من فتح القسطنطينية فيما بعد بشهادة الغربيين أنفسهم .

لقد كانت دولة المماليك من حيث طبيعتها امتداداً طبيعياً للأيوبيين ، ولمن سبقهم من الملوك والسلاطين ، فهي دولة عريقة الحضارة ، أعجمية الحكام ، تقود الجهاد الإسلامي في وجه الخطر الذي كان يتهدد المسلمين ^(١) ، ومن الأوهام التي تأثر بها كثير من الباحثين هو أن تدمير المغول لبغداد عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م كان نهاية الحضارة الإسلامية ، ولذلك لا يتطرقون إلى ذكر شيء من إبداعات عصر المماليك وإنجازاته . وهذه فكرة خاطئة ، ووهم يتطلب الوقوف عنده كثيراً ^(٢) ، وسنجيب عنها بإذن الله تعالى في كتبنا القادمة ، ونبين الحياة العلمية ، والفكرية ، وأشهر الأعلام في عهد المماليك .

إن هذه الأمة تنبض بالحياة ، وقادرة على تجاوز المحن العظيمة ، وأثبت التاريخ بشواهد ، ووقائعه بأن طاقاتها الكامنة تتفجر عندما تتعرض للمخاطر ، والشدائد ، وحينئذ تستجمع

(١) العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية ص : ١٤ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٥ .

قواها ، وتستثير كوامنها ، وتظهر ذخائرها ، وتتصدى للمشاريع
الغازية ، والمصائب القاسية بإيمان عظيم ، وصبر جميل ؛ حتى
يجعل الله من ظلام ليلها صباحاً مشرقاً ، ونهاراً مضيئاً . قد رأينا
الصحابة الكرام ، وفتوحاتهم الربانية ، وسار على هديهم التابعون
بإحسان ، ولما جاءت جحافل الصليبيين ، والمغول ؛ تصدّى لهم
السلاجقة ، والزنكيين ، والأيوبيين ، والمماليك ، وكان الإسلام
هو المحرك لقادة الجهاد الإسلامي من أمثال عماد الدين ، ونور
الدين ، وصلاح الدين ، وسيف الدين قطز ، وركن الدين
بيبرس ، ومن سار على نهجهم ، ولسان حال المسلمين في
الماضي ، وفي الحاضر ، والمستقبل قول الشاعر :

أنا مسلمٌ أنا مسلمٌ	هَذَا نَشِيدِي الْمُلْهُم
من أعماق الأعماق	أبعث لحنه يترنم
رُوحِي تُرَدِّدُهُ وقلبي	والجوارح والدم
شوقاً وتحناناً	لأمجاد لنا تتكلم
أنا مسلمٌ أنا مسلمٌ	بالرغم ممّن يحقدون
أنا هاهنا بشريعتي	في موكب الحق المبين ^(١)

ويقول الشاعر :

أظننت دعوتنا تموت بضربة خابت ظنونك فهي شرُّ ظنون

(١) صلاح الأمة في علو الهمة (٦ / ٥١٦) .

بَلَيْتُ سِيَاطَكَ والعزائمُ لم تزل
تألَّهُ ما الطغيان يهزم دعوة
ضع في يديَّ القيد ألهب أضلعي
لن تستطيع حصار فكري ساعةً
فالنور في قلبي وقلبي في يدي
سأعيش معتصماً بحبل عقيدتي
منا كحدِّ الصارم المسلول
يوماً وفي التاريخ برُّ يميني
بالسَّوط ضع عنقي على السَّكِّين
أو نزع إيماني ونور يقيني
ربي وربي ناصري ومعيني
وأموت مبتسماً ليحيا ديني^(١)

إنَّ الذين استطاعوا التصدي للمشاريع الغازية ، وانتزاع
المدن ، والقلاع ، والحصون من المغول ، والصليبيين هم الذين
تميّزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح ، وعرفوا خطر المشاريع
الباطنية الدخيلة ، فصدّوا لها بكلِّ حزم ، وعزم . إنَّ أية أمة تريد
أن تنهض من كبوتها لا بدَّ أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص
منها الدروس ، والعبر ، والسنن في حاضرها ، وتستشرق
مستقبلها .

إنَّ قراءة التاريخ تضيف للباحث ، والقائد ، والزعيم ،
والملك ، والرئيس أعمار السابقين ، وأما الوعي بالتاريخ ؛ فإنه
يوظف ثمرات هذه القراءة في تغيير الواقع ، واستشراف
المستقبل ، ولذلك يستحيل التقدم ، وينعدم النهوض عند الذين
لا يفقهون ، ولا يتعرّفون على سنن الله ، وقوانينه ، وعبره ،
وعظاته من خلال التاريخ .

(١) صلاح الأمة (٦ / ٥٢٨) .

إنَّ النهوض بوجه عام يحتاج إلى سلاح القلم ، واللسان ، ولم ينجح مشروع نهضوي عبر التاريخ من غير أقلام قوية ، أو ألسنة تعبر عن قلوب صادقة تدعو إليه ، وتنشر مبادئه بين الناس ، وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الحوار ، والجدال ، والصراع ، والممانعة ، والمطالبة بالحقوق ، وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار ، والعقائد ، والثقافات ، والمناهج ، وهي تسبق التدافع السياسي ، والعسكري ، فأیُّ برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد ، وأفكار ، وثقافة تدفعه ، فالحرف هو الذي يلد السيف ، واللسان هو الذي يلد السنان ، والكتب هي التي تلد الكتابات .

إنَّ موسوعة الحروب الصليبية ، والتي صدر منها كتاب السلاجقة ، وعصر الدولة الزنكية ، وصلاح الدين الأيوبي ، والحملات الصليبية الرابعة ، والخامسة ، والسادسة ، والسابعة وهذا الكتاب ، قد أجابت عن الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية ، والإقليمية ، والعالمية ، وهذه الحقبة من تاريخ الأمة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً على أن الإسلام قادر في أية لحظة تتوافر فيها النية المخلصة ، والإيمان الصادق ، والالتزام المسؤول ، والذكاء الواعي ، واستيعاب فقه السنن ، والنهوض ، وقوانين الحضارات ، وبناء الدول على إعادة دوره الحضاري والقيادي ، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

هذا ؛ وقد انتهيت من هذا الكتاب « السلطان سيف الدين قطز » يوم الخميس من تاريخ ١٧ صفر ١٤٣٠ هـ / الموافق ١٢ / ٢ / ٢٠٠٩ م ، والفضل لله من قبل ومن بعد ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويشرح صدور العباد للانتفاع به ، ويبارك فيه بمنه ، وكرمه وجوده . قال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم ، وإلهي الكريم معترفاً بفضلته ، وكرمه ، وجوده متبرئاً من حولي ، وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي ، وسكناتي ، وحياتي ، ومماتي ، فألله خالقي هو المتفضل ، وربّي الكريم هو المعين ، وإلهي العظيم هو الموفق ، فلو تخلّى عني ، ووكلني إلى عقلي ، ونفسي ؛ لتبدل مني العقل ، ولغابت الذاكرة ، وليست الأصابع ، ولجفت العواطف ، ولتحجّرت المشاعر ، ولعجز القلم عن البيان ! اللهم بصرني بما يرضيك ، واشرح له صدري ، وجبني اللهم ما لا يرضيك ، وأصرفه عن قلبي ، وتفكيرني ! وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجعل عملي لوجهك خالصاً ، ولعبادك نافعاً ، وأن تثيبي عليّ كل حرف كتبتّه ، وتجعله في ميزان حسناتي ، وأن تثيب إخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولاك ما كان له وجود ، ولا انتشار بين الناس .

ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد
الفقير ، إلى عفو ربه ، ومغفرته ، ورحمته ، ورضوانه من دعائه
قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾
[النمل : ١٩] .

وأختتم هذا الكتاب بقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا
إِنَّكَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

(سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ،
أستغفرك ، وأتوب إليك) .

الفقير إلى عفو ربه ، ومغفرته ، ورحمته ، ورضوانه علي
محمد محمد الصلابي ، غفر الله له ، ولوالديه ولجميع
المسلمين !



الفصل الأول

قيام دولة المماليك

المبحث الأول

أصول المماليك ونشأتهم

أولاً : من هم المماليك ؟

المماليك : جمع : مملوك ، وهم من الرقيق الذين كانوا يشترون ، ويستخدمون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القدم ، ويعتبر الرقيق الأتراك أول من استخدموا في الجندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين ؛ إذ يذكر الطبري بأن نصر بن سيار والي الأمويين على خراسان اشترى : ألف مملوك من الترك ، وأعطاهم السلاح ، وحملهم على الخيل^(١) . وكانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيسي للرقيق الأتراك^(٢) ، وفي العصر العباسي

(١) تاريخ الطبري ، عصر الدولة الأموية نقلاً عن بيت المقدس ، د . النقر ، ص : ٤٧ .

(٢) تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي للدكتور النقر ، ص : ٤٧ .

تزايد استخدام الأتراك في وظائف الدولة إضافة إلى استخدامهم في الجيش^(١) ، وتوسعت أسواق النخاسة البيضاء من شبه جزيرة القرم ، وبلاد القوقاز ، والقفجاق في آسيا الصغرى ، وتركستان ، وبلاد ما وراء النهر ، وكان فيهم عنصر الأتراك ، وفيهم الشراكسة ، والروم ، والأكراد ، وبعضهم من البلاد الأوربية أيضاً^(٢) .

وكان الخليفة المعتصم العباسي (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م) أول من شكل فرقاً عسكرية ضخمة منهم ، وأحلهم مكان العرب الذين أسقط أسماءهم من ديوان الجند^(٣) . وقد بلغت ممالك الخليفة المعتصم بضعة عشر ألفاً ، وقد امتلأت بهم بغداد ممّا أدى إلى اصطدامهم بالناس في الطرقات ، وأثار سخط أهل العاصمة ، فبنى لهم مدينة سامراء لتكون عاصمة لهم ، ومقرّاً لجيوشه التركية من الممالك ، والأحرار^(٤) . وقد استخدم المعتصم الجيش التركي تخلصاً من النفوذ الفارسي ، والعربي في الجيش ، والحكومة سواء ، وقد لجأ إلى الأتراك بالشراء ،

(١) تاريخ المغول والممالك ص : ٦١ - ٦٢ ، و : تاريخ بيت المقدس ص : ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٦١ .

(٣) تاريخ بيت المقدس ، ص : ٤٧ .

(٤) قيام دولة الممالك الأولى في مصر والشام ، ص : ١٢ .

والتريبة ، والإعداد اعتقاداً منه بأنهم مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس ، ومن العصبية التي عرف بها العرب ^(١) . ولكن سرعان ما أخذ أولئك المماليك في التدخل في شؤون الدولة ؛ حتى أمست في أيديهم يفعلون بها ما يشاؤون ^(٢) ، وأصبح الخليفة منذ مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م في أيديهم كالأسير ، إن شاؤوا خلعوه ، وإن شاؤوا قتلوه ^(٣) .

وهكذا أصبح هؤلاء الجنود عنصر تمرد ضد الخلفاء ، فأسأؤوا التصرف في شؤون الإدارة والحكم ، فانفضت الولايات من حول العاصمة ، وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الترك في الخلافة العباسية بعد أن صار منهم الجيش والقادة ، فلما ضعف سلطان الخلافة ؛ طمع عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم ، وصار الجيش ، وقادته من الأتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة ، فازداد المماليك الأتراك في الدولة العباسية أهميةً على أهميتهم ، وأضحى منهم الولاة ، والوزراء ، وأرباب الدولة ^(٤) .

-
- (١) تاريخ المغول والمماليك ، مجموعة من المؤلفين ، ص : ٦٢ .
 (٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين نقلاً عن تاريخ المغول والمماليك ، ص : ٦٢ .
 (٣) الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا ، ص : ٢٢٠ .
 (٤) تاريخ المغول والمماليك ص : ٦٢ .

والواقع فمنذ العصر العباسي الأول اتخذ مصطلح « ممالك » معنىً اصطلاحياً خاصاً عند المسلمين ؛ إذ اقتضت التسمية على فئة من الرقيق الأبيض الذي كان يشتري من أسواق النخاسة ، ويستخدم كفرق عسكرية خاصة . ومع ضعف الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني كان من الطبيعي أن تزداد الحاجة للرقيق الأتراك ، ذلك : أن الدويلات التي انفصلت عن جسم الخلافة مثل الطولونيين ، والأخشيديين في مصر^(١) ، والصفاريين ، والسامانيين في خراسان^(٢) وما جاورها ، والغزنويين ، والغوريين في الهند^(٣) ، أقبلوا على شراء الأتراك الأرقاء لتأكيد سلطتهم ، وبظهور الأتراك السلاجقة على مسرح السياسة في المشرق الإسلامي ازداد نفوذ الأتراك عموماً ، ذلك : أن السلاجقة في الأصل من العناصر التركية ، كما أن الدولة السلجوقية زادت من الاعتماد على الممالك الأتراك^(٤) .

ويعدُّ نظام الملك الوزير الكبير للسلطان السلجوقي ألب أرسلان ملكشاه هو أساس النظام التربوي المملوكي في كتابه سياسة نامه ، وقد جاء فيه : أنه يجب ألا يثقل على الممالك

(١) المواعظ والاعتبار للمقريزي نقلاً عن تاريخ بيت المقدس ص : ٨٤ .

(٢) تاريخ إيران بعد الإسلام ، عباس إقبال ص : ٩٧ - ١٦٧ .

(٣) تاريخ بيت المقدس ص : ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه .

القائمين على الخدمة إلا إذا دعت الحاجة ، ولا ينبغي أن يكونوا عرضة للسهم ، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور ، ولا حاجة إلى التكليف كل اليوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون : الغلمان ، صاحب الماء ، صاحب السلاح ، والساقي ، وأشباه ذلك ، ولمن يكون في خدمة كبار الحجاب ، وكبير الأمراء ، ويجب أن يؤمرا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد منهم ، ومن الخواص عدد معين . هذا وقد كان للسلطان ممالك صغار ، وكان عليهم من الصبيان الخاص رقباء ، وعلى طوائفهم من جنسهم رقباء ^(١) .

ونظم نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المماليك ، وكان أشد الناس تمسكاً بهم ، وقد أحاط نفسه بجيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه ، فقوى بهم نفوذه ^(٢) . ويعتبر نظام الملك أول من أقطع الإقطاعات للمماليك الأتراك ، وبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقداً صار يعطى إقطاعاً ^(٣) ، فتسلم الأرض إلى المقتطعين يضمن عنايتها ، وعمارتها مما يحفظ قوة وثروة الدولة ، كما فتحت القلاع ،

(١) دولة آل سلجوق للأصفهاني ص : ١١٣ ، و : تاريخ المغول والترك ص : ٦٥ .

(٢) دولة آل سلجوق ص : ٧٦ ، و : تاريخ المغول والترك ص : ٦٦ .

(٣) تاريخ المغول والترك ص : ٦٦ .

والمدن ، والولايات للقادة من مماليكهم الذين سُمُّوا بالأتابكة^(١) ، والجدير بالذكر : أن الوزير نظام الملك أول من لقب بلقب أتابك ، وقد منحه أياه السلطان ملكشاه حين فوض إليه تدبير أمور الدولة سنة ٤٦٥ هـ^(٢) .

وهكذا اتخذ السلاجقة أشخاصاً من كبار المماليك ؛ ليكونوا مربيين لأولادهم في القصر ، ومنحهم الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم بشؤونهم وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب ، ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات وبخاصة عندما ضعفت الدولة ، وتفككت ، فاستقلُّوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً^(٣) ، وأقاموا دويلات منفصلة عن جسم الدولة السلجوقية عرفت باسم : دويلات الأتابكة : وكان عماد الدين زنكي أقوى هؤلاء الأتابكة ، وأسس دولةً ضُمَّت الموصل ، وحلب ، وديار ربيعة^(٤) .

وعند وفاة عماد الدين زنكي خلفه ابنه نور الدين محمود ، وتوسَّع بالدولة ، وضَمَّ دمشق ، وقضى على الدولة الفاطمية ،

-
- (١) صبح الأعشى (٤ / ١٨) ، و : تاريخ المغول والترك ص : ٦٦ .
 (٢) أخبار الدولة السلجوقية ص : ١٩٦ ، ١٩٧ ، و : تاريخ المغول ص : ٦٦ .
 (٣) تاريخ المغول والترك ص : ٦٦ .
 (٤) تاريخ بيت المقدس ص : ٤٩ .

وأصبحت مصر من ضمن الدولة الزنكية ، وقد توسَّعتُ عن الحديث عن عماد الدين وابنه نور الدين في كتابي عصر الدولة الزنكية ، وقد استكثر نور الدين محمود من شراء المماليك الأتراك الذين صاروا يكونون غالبية جيشه ^(١) .

وبعد الزنكيين جاء الأيوبيون ، فأكثرُوا من المماليك الأتراك ، واستخدموهم في الجيش . وتجدر الإشارة إلى أن الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه إلى مصر كان معظمه يتكوَّن من المماليك ، والأمراء النورية ^(٢) . وقد سمي ممالك صلاح الدين الأيوبي بالمماليك الصلاحية ، كما سمي ممالك أسد الدين شيركوه بالمماليك الأسدية ، وفي عهد الملك العادل سمي المماليك بالعادية نسبة إلى العادل ، ولما توفي خلفه أبناءؤه : الأشرف موسى العادل ، والكمال ، وغيرهم ، ونسب عددٌ من المماليك لكل واحد منهم ، فعرف : المماليك الأشرفية ، والمماليك الكاملية ^(٣) .

١ - نجم الدين أيوب والمماليك :

ينسب إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إدخال

(١) المصدر نفسه ص : ٤٩ .

(٢) كتاب الروضتين (١ / ١٥٥) ، و : تاريخ المغول والترك ص : ٦٨ .

(٣) تاريخ المغول والترك ص : ٦٩ .

تشكيلات جديدة على القوّة العسكرية التي كان يتكوّن منها جيش السلطان الأيوبي ، فقد اتخذ جملة من الإجراءات العسكرية تبناها السلطان الملك الصالح نجم الدين لتقوية الجيش الذي كان يترأسه ، ومن أهمها : اهتمامه الكبير بشراء المماليك ، والغلمان الأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطة الأيوبية ، فخلال مدّة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة ما تعدى من أكثر من ألف مملوكٍ تركيٍّ جلبهم من إقليم التركستان (خوارزم) ، ومن مناطق شمالي البحر الأسود ، وبحر قزوين ^(١) ، وغيرها من الأماكن ، وقد أصبح العنصر التركي في عهد الملك الصالح هو الغالبية المتميزة للجيش الأيوبي ، وسرعان ما شكّلوا نواة عسكرية - سياسية نشطة تحوّلت إلى دولة المماليك البحرية بعد أقل من بضع سنين على وفاة الملك الصالح لتختفي تدريجياً العناصر المتكوّن منها الجيش الأيوبي ، كالبربر ، والسودان .

ومن أهم معالم التطوير في البنية العسكرية الأيوبية في عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الآتي :

أ - الصالحية :

وهي القوّة العسكرية الجديدة من المماليك الأتراك باسم (الصالحية) نسبة إلى الملك الصالح أيوب نفسه ، ومن

(١) الملك الصالح وإنجازاته السياسية والعسكرية ص : ١٠٩ .

الواضح : أن الملك الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل في تكوين هذه الفرقة الجديدة من المماليك التي تحمل أيضاً اسم البحرية ، والتي قدر لها أن تنهض بدور خطير في تاريخ مصر السياسي لما يقارب من قرنين ونصف . ومما يقوله : ابن تغري بردي نقلاً عن ابن واصل مؤرخ الأيوبيين : اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته ؛ حتى صاروا معظم عسكره ، وأرجحهم على الأكراد وأمرهم^(١) .

ويبدو : أن الملك الصالح أراد أن يشكر المماليك في مساندتهم له للوصول إلى دست السلطنة ، ولذلك عمل منهم جيشاً قوياً يساعده في فرض إرادته على الأقاليم الأيوبية بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة مما دفعه إلى الاعتماد على تلك الفرقة الجديدة وترجيحهم على العناصر الأخرى السائدة^(٢) .

وأما عن السبب في تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجح : أن ذلك يرجع إلى اختيار السلطان الملك الصالح نجم الدين جزيرة الروضة على بحر النيل مركزاً لهم ، ولثكناتهم العسكرية ، وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك المجلوبين من بلاد القفجاق شمال البحر الأسود ، ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين ، وقد كان للأتراك القفجاق ميّزاتهم الخاصة بين طوائف الترك العامة من

(١) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص : ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١١٠ .

حيث حسن الطلعة ، وجمال الشكل ، وقوة البأس فضلاً عن الشجاعة النادرة ، ولا شك في ولاء هؤلاء لسيدهم ، وقد كانوا قد شكلوا نواة لقوة عسكرية ضاربة في الجيش الأيوبي واحتلوا نتيجة لنيلهم ثقة واعتماد السلطان رتباً عسكرية كبيرة في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب مثل المكانة التي كان يتمتع بها مقدّمهم ركن الدين بيبرس ، والذي لعب دوراً كبيراً في صعود الملك الصالح إلى السلطنة ، وفيما بعد في المعارك ضدّ الصليبيين الفرنج وخاصة معركة المنصورة ^(١) .

ب - ثكنات المماليك الصالحية في جزيرة الروضة :

اتخذَ الملك الصالح أيوب لمماليكه قاعدة في جزيرة الروضة تعرف بـ : قلعة الجزيرة ، أو قلعة الروضة ، وجعلها مقراً لهم ، وشرع في حفر الأساس وبنائها بين عامي ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م و ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م ، ولتطوير هذه الثكنات هدم الكثير من الدور ، والقصور والمساجد التي كانت في الجزيرة ، وأدخلت في نطاق القلعة مشيداً فيها مبانٍ كثيرة منها ستين برجاً ، وأقام بها مسجداً ، وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار ، وقد شحنها بالسلح وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الغلال ، والأزواد والأقوات ، وقد أنفق السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على عمارتها أموالاً كثيرة ، وكان السلطان يقف بنفسه ، ويرتب ما

(١) المصدر نفسه ص : ١١٠ .

يعمل بها ، وقد عمل كل ذلك من أجل أن ينتقل من قلعة الجبل ، ويسكن مع مماليكه البحرية^(١) .

ج - هل السلطان الصالح نجم الدين هو أول من سَمَّى المماليك البحرية بذلك ؟

إن معظم المؤرخين السابقين ، والمحدثين أجمعوا على أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو أول من رتب المماليك البحرية ، وأول من سماهم بذلك نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة ، غير أن هذا الرأي لا يستند إلى أساس صحيح للأسباب التالية :

- المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال ابن واصل ، وأبي شامة لم يسيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية ، وهذه النسبة أوردوها بعض المؤرخين المتأخرين من أمثال المقرئ ، وأبي المحاسن^(٢) .

- من المعروف : أن الفاطميين من قبل كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية ، كذلك كان للسلطان العادل الأول جد الصالح فرقة من المماليك ، أسماها البحرية العادلية ، وهذا يدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ .

(١) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص : ١١٤ .

(٢) في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، أحمد مختار ص : ٨٥ .

- يروي الخزرجي : أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت ٦٤٧ هـ) الذي كان معاصراً للصالح أيوب في مصر ، استكثر من المماليك البحرية ؛ حتى بلغت عدّتهم ألف فارس ، وكانوا يحسنون الفروسية ، والرمي ما لا يحسنه مماليك مصر وكان منهم في حلقتة ، وعساكر أمرائه . هذا النص يدلُّ على أن لفظ بحرية استخدم في بلاد إسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل^(١) .

- أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوروبا إلى الشام أثناء الحروب الصليبية اسم الفرنج الغرب البحرية ، فيروي أبو شامة : أنه في سنة ٥٩٣ هـ فتح الملك العادل يافا ومن عجيب ما بلغني : أنه كان في قلعتها أربعون فارساً من الفرنج البحرية ، فلما تحققوا نقب القلعة ، وأخذها ؛ دخلوا كنيستها ، وأغلقوا عليهم بابها ، وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا ، وكسر المسلمون الباب وهم يرون أن الفرنج ممتنعون ، فألفوهم قتلى عن آخرهم ، فعجبوا من حالهم^(٢) .

فلفظ بحرية إذاً لم يكن جديداً على مصر حينما أنشأ الملك

(١) الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة للصلاحي ص : ٣٤١ .

(٢) في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص : ٨٦ .

الصالح أيوب فرقته البحرية ، بل كان لفظاً عاماً أطلق على المسلمين ، والمسيحيين سواء ، كما استخدم في مصر ، وفي خارج مصر قبل عهد الصالح أيوب ، وهذا يؤيد القول بأن نسبة هذا اللفظ إلى بحر النيل أمر مشكوك في صحته ، وأغلب الظن : أنهم سموا بحرية ؛ لأنهم جاؤوا من وراء البحار ^(١) ؛ إذ جاء في « جوانفيل » : أنهم يسمون : بحرية ، أو : رجال ما وراء البحر . وجوانفيل الذي حارب المماليك البحرية الصالحة في حملة لويس التاسع ، وأسر عندهم ، وتحدث إليهم روايته لها قيمتها بصفته رجلاً معاصراً وشاهد عيان . وإذا علمنا : أن المماليك البحرية زمن الأيوبيين ، والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز ، وآسيا الصغرى ، وشواطئ البحر الأسود ، ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ، ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط ، حيث يسIRON فيه إلى ميناء الإسكندرية ، أو دمياط ؛ تأيدت لدينا عبارة جوانفيل ^(٢) .

ثانياً : نظام التدريب والتربية والتعليم للمماليك :

كان الصالح أيوب - ومن تبعه من الأمراء - لا يتعاملون مع المماليك كرقيق ، بل على العكس من ذلك تماماً ، فقد كانوا يقربونهم جداً منهم لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم ، ولم

(١) المصدر نفسه ص : ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٨٧ .

تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رابطة السيد ،
والعبد أبداً ، بل رابطة المعلم ، والتلميذ ، أو رابطة الأب ،
والابن ، أو رابطة كبير العائلة ، وأبناء عائلته ، وهذه كلها روابط
تعتمد على الحب في الأساس ، لا على القهر ، أو العنف ، حتى
إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب (الأستاذ) وليس
لقب السيد ^(١) .

وكانت المدة التي يقطعها المملوك ليعتبر منتهاً من تعليمه
تمرُّ بمراحل ثلاث :

١ - المرحلة الأولى :

تبتدىء من الصغر إلى سن البلوغ ، حيث كان المماليك
يُجلبون صغاراً ، تحقيقاً لرغبة الملوك ، والسلاطين ، ثم يوزعون
على طباق القلعة حسب أجناسهم ، تحت إشراف جهاز إداري
محكم يتولى شؤونهم في التعليم ، والتدريب ، والإعداد
العسكري ، وكان هذا الجهاز يتكون من الموظفين المختصين
بشؤون الجيش ، وبخلفيات الأمم التي ينتمون إليها ، وبالدين
الإسلامي الحنيف ^(٢) . فأول ما يبدأ به المماليك في المرحلة
الأولى تعليمهم ما يحتاجون إليه من القرآن الكريم ، ولكل طائفة

(١) قصة التتار من البداية إلى عين جالوت ص : ٢١٤ .

(٢) الحملات الصليبية للصلاحي ص : ٣٣٨ .

فقيه يأتيها كلّ يوم ، ويأخذ في تعليمها القرآن ، ومعرفة الخط ،
والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية ، وملازمة الصلوات ،
والأذكار ^(١) .

وكان من ضمن المنهج الدراسي الخاص في هذه المرحلة
الاهتمام بالتمرينات ، والألعاب الرياضية مدّة من الزمن ، وكانت
الصلاة تؤدى في أوقاتها تحت المراقبة الدقيقة ؛ حتى تؤدى على
وجهها الصحيح ، وحتى تصبح ملكة عند المماليك من صغرهم ،
ويؤمرون بحفظ بعض الأدعية المأثورة لتلاوتها في مناسبتها .
وأهم ما في هذه المرحلة إبراز التعاليم الدينية في صورةٍ تعلقهم
بها ، حتى يصبح أحب شيء إليهم هو الجهاد ، والأخلاق
الفاضلة ^(٢) .

إن الفقهاء ، والعلماء ، والمؤدبين الذين أشرفوا على تربية
المماليك ساروا على نهج رسول الله ﷺ في الاستفادة من القرآن
الكريم ، وتربية الأتباع على معاني العقيدة الصحيحة ، والتصور
الصحيح عن الله عز وجل ، ومن أهم الجوانب التي اهتمت بها
التربية الدينية في هذا الجانب :

- إن الله منزّه عن النقائص ، موصوف بالكمالات ؛ التي

(١) المصدر نفسه ص : ٣٤٠ .

(٢) أباطيل يجب أن تمحى ص : ٣٣٩ ، و : خطط المقرئزي
(٣ / ٣٤٦) .

لا تتناهى ، فهو سبحانه الواحد لا شريك له ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

- وأنه سبحانه خالق كل شيء ، ومالكة ، ومدير أمره : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٢٤] .

- وأنه - تعالى - جده - مصدر كل نعمة في هذا الوجود ، دقت ، أو عظمت ، ظهرت ، أو خفيت : ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] .

- وأن علمه محيط بكل شيء ، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء ، ولا ما يخفي الإنسان ، وما يعلن : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

- وأنه - سبحانه - يحصي على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته ، في كتاب لا يترك صغيرة ، ولا كبيرة إلا أحصاها ، وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة ، والوقت المناسب ﴿ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

- وأنه - سبحانه - يتلي عباده بأمور تخالف ما يحبون ، وما يهون ؛ ليعرف من الناس معادتهم ، من منهم يرضى بقضاء الله ، وقدره ، ويسلم له ظاهراً ، وباطناً ، فيكون جديراً بالخلافة ، والإمامة ، والسيادة ، ومنهم من يغضب ، ويسخط فلا يساوي

شيئاً ، ولا يسند إليه شيء : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] .

- وأنه سبحانه يوفق ، ويؤيد ، وينصر من لجأ إليه ، ولاذ بحماه ، ونزل على حكمه في كل ما يأتي ، وما يذر : ﴿ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] .

- وأنه سبحانه ، حدّد مضمون هذه العبودية ، وهذا التوحيد في القرآن الكريم .

إن تربية أفراد الأمة على المعاني الإيمانية ، والتصورات الصحيحة خطوة مهمة في نهوض الأمة ، وتحتاج التذكير ، والتعليم ، والتربية لكل أفراد المسلمين ، وقد ظل ﷺ يطرق مع أصحابه هذه الجوانب ، ويكررها عليهم ، وعلى من آمن به ، ويفتح عيونهم عليها من خلال الكتاب المنظور ، والكون المسطور ؛ حتى خشعت قلوبهم ، وسلمت أرواحهم ، وطهرت نفوسهم ، ونشأ لديهم تصور وإدراك لحقيقة ومضمون الألوهية يخالف تصورهم الأول وإدراكهم القديم ^(١) .

واهتم ﷺ بغرس حقيقة المصير ، وسبيل النجاة لأصحابه موقناً : أن من عرف منهم عاقبته ، وسبيل النجاة والفوز في هذه

(١) منهج الرسول في غرس الروح الجهادية للدكتور سيد نوح ص : ١٠-١٦ .

العاقبة سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوك هذا السبيل ؛ حتى يظفر غداً بهذه النجاة ، وذلك الفوز ، فقد ركز ﷺ في هذا البيان على الجوانب التالية :

- إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَهْمَا طَالَتْ ؛ فَهِيَ إِلَى زَوَالٍ ، وَأَنْ مَتَاعُهَا مَهْمَا عَظُمَ ؛ فَإِنَّهُ قَلِيلٌ حَقِيرٌ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْهَى أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] ، ﴿ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : ٧٧] .

- وَأَنَّ كُلَّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ رَاجِعُونَ ، وَعَنْ أَعْمَالِهِمْ مَسْئُولُونَ ، وَمَحَاسِبُونَ وَفِي الْجَنَّةِ ، أَوْ فِي النَّارِ مُسْتَقَرُّونَ : ﴿ أَلَيْسَ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] .

- وَأَنْ نَعِيمَ الْجَنَّةِ يَنْسِي كُلَّ تَعَبٍ ، وَمَرَارَةٍ فِي الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ عَذَابُ النَّارِ يَنْسِي كُلَّ رَاحَةٍ ، وَحِلَاوَةٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٦﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٧﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧] ، ﴿ كُفُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

- وَأَنَّ النَّاسَ مَعَ زَوَالِ الدُّنْيَا وَاسْتِقْرَارِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، أَوْ فِي النَّارِ سَيَمُرُونَ بِسِلْسَلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْأَهْوَالِ ، وَالشَّدَائِدِ : ﴿ يَتَأَيَّهَا

النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا
تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا
وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾
[الحج : ١ - ٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَنْفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾
[المزمل : ١٧ - ١٨] .

- وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال ، ومن تلك الشدائد ،
والظفر بالجنة ، والبعد عن النار ^(١) بالإيمان بالله تعالى ، وعمل
الصالحات ابتغاء مرضاته : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ [البروج : ١١] .

- ومضى ﷺ كذلك يبصرهم ، ويذكرهم بدورهم ،
ورسالتهم في الأرض ، ومنزلتهم ، ومكانتهم عند الله ، وظل ﷺ
معهم على هذه الحال من التبصير ، والتذكير حتى انقده في
ذهنهم ما لهم عند الله ، وما دورهم ورسالتهم في الأرض ، وتأثراً
بتربيته الحميدة تولدت الحماسة ، والعزيمة في نفوس أصحابه ،
فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم ، وما في طاقتهم
دون كسل ، أو تواني ، ودون كلل ، أو ملل ، ودون خوف من
أحد إلا من الله ، ودون طمع من مغنم إلا أداء هذا الدور ، وهذه

(١) منهج الرسول ﷺ في غرس الروح الجهادية ص : ١٩ - ٣٤ .

الرسالة لتحقيق السعادة في الدنيا ، والفوز ، والنجاة في الآخرة ^(١) .

إنَّ الفقهاء ، والعلماء الذين تولَّوا مهام تربية وتعليم المماليك في نهاية عهد الدولة الأيوبية حرصوا على الإعداد الرباني ، وكانت خطواتهم تتمُّ بكل هدوء ، وتدريج ، وانصبَّت أهدافهم التربوية على تعليم الكتاب ، والسنة ، وتلاوة القرآن الكريم ، وتطهير النفوس من أمراضها ، وإعداد الأفراد لتحمل تكاليف الجهاد ، والدفاع عن حياض الإسلام ، والهجوم على أعدائه ، وقد غرست تلك التربية الكثير من القيم الأخلاقية كالإخلاص لله ، والصبر ، والتوكل ، والاستعانة ، وكثرة الدعاء ، والثبات ، والخوف ، والحذر من الله عز وجل ، وكان لهذه التربية المتميزة أثرها على أطفال ، وشباب المماليك فنشؤوا على تعظيم أمر الدين الإسلامي ، وتكوَّنت لديهم خلفية واسعة عن الفقه الإسلامي ، وأصبحت مكانة العلماء عالية عند المماليك طيلة حياتهم ، وهذا من أسباب النهضة الحضارية الثقافية العلمية الراقية التي وجدناها في عهد المماليك .

٢ - المرحلة الثانية :

وهي التي تبتدئ بسنِّ البلوغ ؛ حيث يشرع في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ، ولعب الرمح ، والضرب بالسيف

(١) منهج الرسول في غرس الروح الجهادية ص : ٣٧ .

وركوب الخيل ، ويراعى في هذه المرحلة الأخذ بشدة ، فلا يتسامح مع المملوك إذا أخطأ ، وإنما يعاقب عقاباً قاسياً إذا بدا عليه الشذوذ في أخلاقه ، أو الانحراف عن المبادئ الدينية ، ثم يقسمون إلى فرق ، يتولى كلاً منهم معلّم في العلوم الرياضية ، والتدريبات العسكرية ، فيتمرنون على فنون من الرياضة العنيفة مثل السباحة ، والعموم لمسافات طويلة ، والمبارزة ، ولعب الكرة راجلين وراكبين ، وأما في أوقات الفراغ ؛ فإنهم يتركون إلى هواياتهم العلميّة ، أو الدينية ، أو الأدبية ، ومن هنا ندرك السرّ في ظهور عدد من المماليك في صفوف الفقهاء ، والشعراء ، والكتّاب البارزين ^(١) .

وقد كان لهم خدامٌ ، وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً ، ويؤاخذونه أشدّ المؤاخذه ، ويناقشونه على تحركاته ، وسكناته ، فإن عثر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن ، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنباً ، أو أخلّ برسم ، أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا ؛ قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه ، فلذلك كانوا سادة يدبّرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ، ويردعون من جار أو تعدّى ^(٢) .

(١) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص : ٣٤٠ .

(٢) الخطط (٢ / ٢١٣ - ٢١٤) ، و : في التاريخ الأيوبي والمملوكي =

٣ - المرحلة الثالثة :

وهي مرحلة ظهور المواهب العسكرية ، ووضوح الاتجاهات ، والكفايات السياسية ، وفي هذه المرحلة تعقد المبارزات بين المماليك ، لمعرفة مقدار المهارة الفنية ، والعسكرية في صفوفهم ، ثم يرسلون إلى ميادين القتال ؛ ليعرف بلاؤهم هناك ، ثم يكافأ المبرزون منهم بمنحهم الحرية ، وعتقهم من الرق ، وهناك من يبقى في الرق مع تولي المناصب كالذين باعهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ، ثم اعتقهم ، ووضع أثمانهم في بيت مال المسلمين ، ويوضعون في وظائف عسكرية صغيرة ، يترقى فيها المملوك حتى يبلغ الإمارة ، فيمنحه السلطان لقبها ، ثم يترقى في سلكها ، حتى يصل إلى كبريات المناصب في الدولة ، وكثيراً ما كانت ترتفع به مواهبه ، وعبقريته إلى منصب السلطنة ، ورياسة الدولة ^(١) .

وبفضل الله ، ثم هذه التربية المتميزة نبغ من بين هؤلاء من خلّد التاريخ بطولاتهم ، وسجّل على صفحاته أمجاداً عظيمة للمسلمين من تصديهم للمشروع المغولي ، والقضاء على الوجود الصليبي في ديار المسلمين . يقول « بروكلمان » في شأنهم :

= ص : ٨٤ .

(١) مصر في عهد بناء القاهرة ص : ١٦٩ وما بعدها ، إبراهيم شعوط .

وعدَّت الأجيال التالية عصر بيبرس كما عدَّت عهدي الرشيد ،
وصلاح الدين - أحد العصور الذهبية في الإسلام^(١) .

٤ - نظام الأكل والثياب والراحة :

كان لتعليم المماليك نظام دقيق ، فليس لهم أن يخرجوا من
مقرِّهم ، إطلاقاً ، لا سيما ليلاً ، وكان عليهم أن يذهبوا إلى
الحمام يوماً في الأسبوع ، ويكون أكلهم اللحم ، والأطعمة ،
والفواكه ، والحلوى ، والفول المسلوق ، وغير ذلك ، وكانوا
يتسلمون كسوات فاخرة ، وقد يأخذون مرتباً قليلاً قد يصل إلى
ثلاث أو عشرة دنانير في الشهر^(٢) ، وكان السلطان يذهب ليتفقد
أحوالهم من طعام ، وغيره ، ولكن منذ عهد السلطان برقوق سمح
للمماليك بالخروج من الطباق ، والمبيت خارجها في القاهرة ؛
بحيث أصبحت فقط مكاناً لتعليمهم ، ويلاحظ المقريري : أن
ذلك جرَّ إلى نسيان تقاليد المماليك في التعليم بالطباق ، وأنهم
أُخلدوا إلى البطالة ، وسعوا إلى نكاح النساء ، حتى صارت
المماليك أرذل الناس ، وأدناهم^(٣) .

٥ - نظام التخرج وإنهاء الدراسة :

كانت الدراسة في الطباق بين أربعة ، أو خمسة عشر شهراً ،

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية نقلاً عن أباطيل يجب أن تمحى ص : ٣٤١ .

(٢) الخطط (٣ / ٣٤٨) ، و : دولة المماليك ، سمير فراج ص : ٣٢ .

(٣) دولة المماليك ، سمير فراج ص : ٣٢ .

وإن كانت أحياناً تمتدُّ إلى عدة سنين ، فإذا انتهت الدراسة ؛ أعتق المملوك ، ويكون الإعتاق بالجملة ، ويقام له احتفال خاص يحضره السلطان ، والأمرء ، وذلك بناء على شهادة تسمى : إعتاق ، أو عتاقه ^(١) ، ثم يُسلَّم المملوك سلاحاً ، وفرساً ، ولباساً خاصاً « قماشاً » وإقطاعاً يبقى له مدى الحياة ، وحينئذ يُسمَّى : عتيقاً ، أو معتوقاً - جمعها : معاتيق - ومعتقه يُسمَّى : أستاذه ، أما رفاقه المتحررون معه ، فيسمون : خشداشية ^(٢) ، مفردها : خشداش . وكان المماليك المتخرجون يقسمون أقساماً ، لكل جماعة منهم باش ، أو نقيب ، أما الذين يصلون إلى الإمارة ، وهي مرتبة تهىء الوظائف الكبرى الحاكمة في البلاط ، والجيش ، أو حتى للسلطنة نفسها ، وكان من المفروض : أن المملوك لا يحصل على الإمارة إلا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة ، فلا يليها إلا وقد تهذبت أخلاقه ، وكثرت آدابه ، وامتزج بروح الإسلام ، وبرع في الشؤون الحربية ، بحيث كان منهم مَنْ يصير من كثرة علمه في مرتبة فقيه ، أو أديب ، أو حاسب ، لذلك كانوا سادة يديرون المماليك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة .

(١) المصدر نفسه ص : ٣٢ .

(٢) أي : زميل الخدمة .

٦ - لغة المماليك :

هي اللغة التركية ، وهي لغة مملوءة بالفارسية ، والعربية ؛ حتى ولو لم يكونوا تركاً ، فعدد كبير من سلاطين المماليك ، وأمرائهم وصلوا إلى السلطنة ، ووظائفها العالية دون أن تكون لهم معرفة بالعربية ^(١) ، ومع ذلك ، فكثير من المماليك أتقن العربية ، وأصبح فصيح اللسان ، وله مسائل في الفقه عويصة ، يرجع له فيها العلماء ^(٢) .

٧ - رابطة الأستاذية بين المماليك :

كانت أقوى الروابط بين المماليك هي رابطة الأستاذية بين الأستاذ ومماليكه الذين اشتراهم ، وأشرف على تربيتهم ، وتدريبهم ، كما كان يوليهم عناية كاملة ، بل إن الأستاذ كان يتناول طعامه مع مماليكه ، ويحرص على مجالستهم ، وزيادة أواصر العلاقة بينه وبينهم ؛ لكي يضمن ولاءهم ، وكان الملك المنصور قلاوون يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ، ويأمر بعرضه عليه ، ويفقد لحمهم ، ويختبر طعامهم في جودته ، ورداءته ، فإن رأى فيه عيباً ؛ اشتد على المشرف ، والإستادار ، ونهرهما ، وحلّ بهما أي

(١) المصدر نفسه ص : ٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٣ .

مكروه^(١) . وكان يقول : كان الملوك يعملون شيئاً يذكرون به ما بين مال ، وعقار ، وأنا عمّرت أسواراً ، وعملت حصوناً مانعة لي ، ولأولادي ، وللمسلمين ، وهم المماليك . وكانت المماليك تقيم بهذه الطباق^(٢) ، لا تبرح فيها^(٣) .

وهذا النص يكشف عن أحد أركان المؤسسة المملوكية ، والعلاقات داخلها ، فالسلطان - وهو مملوك في الأصل - يدرك أهمية المماليك في حماية عرشه ، وأسرته ، ويصفهم بأنهم مثل الأسوار والحصون المانعة ، كما أنهم عمل يخلد اسمه بين الملوك والحكام . ومن ناحية أخرى يكشف هذا النص عن أسباب قوة رابطة (الأستاذية) التي ربطت برابطة الولاء الشخصي بين السيد ، ومماليكه ، فواجهه أن يراعاهم ، ويغدق عليهم ، ويعتني بهم ، وواجبهم أن يحموه ، وأن يصونوا عرشه ، ويدافعوا عن أسرته^(٤) .

٨ - رابطة الخشداشية (الزمالة) :

وهي من أقوى الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة ، وتفسير ذلك : أن هؤلاء الذين جُلبوا أطفالاً ، ثم عُزلوا

(١) السلطان المظفر سيف الدين قطز ص : ٤٧ ، د . قاسم عبده .

(٢) الطباق : الثكنات العسكرية .

(٣) الخطط (٢ / ٢١٣) ، و : السلطان المظفر ص : ٤٧ .

(٤) السلطان المظفر سيف الدين قطز ص : ٤٨ .

عن المجتمع في معسكرات صارمة القوانين ، وعاشوا حياتهم المبكرة في سن الشباب سوياً ، لم يكونوا يجدون الأمان ، والطمأنينة إلا مع بعضهم البعض ، ولهذا تميزت الفرقة المملوكية بالطائفة القائمة على الولاء الشخصي ، فالمماليك كانوا عادة ينسبون إلى السلطان الذي اشتراهم ، فالمماليك الظاهرية مثلاً نسبة إلى الظاهر بيبرس ، والمعزية نسبة إلى المعز أيك ، والناصرية نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون ، وهكذا ، ومن ناحية أخرى أدى هذا إلى زيادة نسبة الصراعات الدموية في سبيل الوصول إلى الحكم ^(١) .

ولقد أحسن السلاطين الذين جمعوا بين التربية الدينية ، والتدريب العسكري للمماليك في معسكراتهم ، ولذلك نجد هؤلاء المقاتلين الأفذاذ في الفترة الأولى من عهد المماليك يتميّزون بالحماسة ، والغيرة على البلاد ، والمقدسات الإسلامية ، وهو الأمر الذي تجلّى واضحاً ^(٢) على تصديهم للمشروع المغولي ، وقضائهم على الوجود الصليبي في بلاد الإسلام .

٩ - هل هؤلاء أجلاب ؟

لا يمكن أن نتخيّل مدلول كلمة « المماليك » بمعنى الرقيق

(١) المصدر نفسه ص : ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٥١ .

المجلوب من أسواق النخاسة بالنسبة لكل هؤلاء المماليك ؛ لأننا نعلم : أن جماعات من الأتراك الفارين من وجه المغول إلى الشرق الأدنى دخلوا في خدمة سلاطين مصر ، ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى نشأ بين هذه الجموع التركية جيلٌ جديد من الحكام ، بسط سلطانه على مصر ، وسوريا حتى الفتح العثماني ، كما أنَّ بعض هؤلاء المماليك كان من سلالة ملكية ، يتصل في نسبه إلى ملك خوارزمشاه ، مثل السلطان « قطز » بطل موقعة عين جالوت ، ولقد كفل نظام تربيتهم الدقيق ، الذي يفوق نظام الداخلية الآن في أيِّ مدرسة ، أو جامعة ، أو كلية عسكرية كفل لهؤلاء القوم صيانة مركزهم الأدبي ، كما أتى ثماره في الحفاظ على أخلاقهم ، وأتاح فرصة الظهور في المجالات المختلفة مما عاد على البلاد بالخصب ، والغنى ، وعلى العلم ، والثقافة ، والفنون بما فاق كل إنتاج علميٍّ ، وثقافيٍّ ، وفنيٍّ في العالم الإسلامي^(١) .

١٠ - الكليات العسكرية الحديثة :

إنَّ الدول العربية ، والإسلامية في يومنا هذا عليها أن تعيد النظر في عقيدة جيوشها ، وأن تربي المنتسبين إليها على العقيدة الصحيحة ، والعبادة السليمة ، والأخلاق الفاضلة ، وتجارب الحروب في تاريخ أمتنا ، وسنن الله في انتصار الأمم ،

(١) أباطيل يجب أن تصحح ص : ٣٤١ .

وهزيمتها ، وهذا يحتاج إلى إعادة النظر في برامج الدراسة ، والقائمين عليها ، ولا ننسى أبداً أهمية الاستفادة من التكنولوجيا المعاصرة ، والحرب النفسية ، وتطوير السلاح ، ومعرفة أسرارها والعمل بقول الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

١١ - الشيخ عز الدين عبد السلام بائع أمراء المماليك :

رأى الشيخ عز الدين عبد السلام : أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب ، ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين ، واستغلهم في خدمته وجيشه ، وتصريف شؤون الدولة يمارسون البيع ، والشراء ، وهو تصرف باطل ؛ لأن المملوك لا ينفذ تصرفه ، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعاً ، ولا شراء ، فضايقهم ذلك ، وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنى ، فقال لهم بائع الملوكة : أنتم الآن أرقاء ، لا ينفذ لكم تصرف ، وإنَّ حكم الرق مستصحبٌ عليكم لبيت مال المسلمين ، وقد عازمت على بيعكم . فاحتدم الأمر ، وبائع الملوكة مصممٌ ، لا يصحح لهم بيعاً ، ولا شراء ، ولا نكاحاً ، فتعطلت مصالحهم ، وكان من جملة نائب السلطان الذي اشتاط غضباً ، واحمرَّ أنفه ، فاجتمع مع شاكلته ، وأرسلوا إلى بائع الملوكة ، فقال : نعقد لكم

مجلساً ، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عتقكم بطريق شرعيّ . فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فبعث إليه ، فلم يرجع ، فخرجت من السلطان كلمة فيها غلظة ، حاصلها الإنكار على الشيخ رحمه الله في دخوله في هذا الأمر ، وإنه لا يتعلق به ^(١) .

وهنا أدرك الشيخ العز : أنَّ أعوان الباطل تمالؤوا عليه ، ووقفوا في وجه الحق ، وتطبيق الشرع ، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق - في الدين - بين كبير ، وصغير ، وحاكم ، ومحكوم ، وأمير ، ومواطن ، فلجأ إلى سلاحه الضعيف الباهت في ظاهره القويّ الفعال المدمر في حقيقته ، وجوهره ، وسنده ، وأعلن الانسحاب ، وعزل نفسه عن القضاء ، وقَرَّر الرحيل عن القرية الظالم أهلها ، والتي ترفض إقامة شرع الله ، ونفَذ العزُّ قراره فوراً ، وحمل أهله ، ومتاعه على حمار ، وركب حماراً آخر ، وخرج من القاهرة ، وما إن انتشر الخبر بين الناس في مصر حتى تحرّكت جموع المسلمين وراءه فلم تكن امرأة ، ولا صبي ، ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلف ، ولا سيما العلماء ، والصالحين ، والتجار ، وأمثالهم ولسان حالهم يقول : لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله ، القائمون بالكتاب ، والسنة ، والآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ،

(١) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء ص : ٣١ .

والمجاهدون في سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم ، ولا شماتة شامت .

ورفعت التقارير حول هذه الظاهرة إلى القاهرة ، وكانت التوصيات : متى راح ذهب ملكك ! فركب السلطان بنفسه ، ولحقه ، واسترضاه ، وطيب قلبه ، فرجع على أن ينادي على ملوك مصر ، وأمرائها ويبيعهم ، وأرسل إليه كبيرهم - نائب السلطان - بالملاطفة ؛ والشيخ لم يتغير ؛ لأنه يريد إنفاذ حكم الله .

عندئذ انزعج نائب السلطان ، وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسدياً ، وقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ، ويبيعنا ؛ ونحن ملوك الأرض ؟ ! والله لأضربنه بسيفي هذا بنفسه في جماعته ! وجاء إلى بيت الشيخ ؛ والسيف في يده صلتاً ، وطرق الباب ، فخرج إليه ولد الشيخ ، فرأى أمراً جلدأ ، وعاد إلى أبيه ، وأخبره الحال ، فقال بائع الأمراء ممتلئاً إيماناً بربه ، قائلاً لولده : يا ولدي ! أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ! فلما رآه نائب السلطان ؛ اهتزت يده ، وارتعدت فرائضه ، وسقط أرضاً ، فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعو له قائلاً : يا سيدي ! خيراً أي العمل ؟ فقال الشيخ : أناادي عليكم ، وأبيعكم ! قال نائب السلطان : ف فيما تصرف ثمننا ؟ قال الشيخ : في مصالح المسلمين . قال نائب السلطان : من يقضيه ؟ قال الشيخ : أنا .

وأنفذ الله أمره على يد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فباع الأمراء منادياً عليهم

واحداً تلو الآخر ، وغالى سلطان العلماء في ثمنهم ، وقبضه ، وصرفه في وجوه الخير التي تعود بالنفع على البلاد ، والعباد ^(١) .

ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه (بائع الملوك) واشتهر أمره في الآفاق ، وسجل له التاريخ موقفاً فريداً لم يشهده العالم أجمع ، وعلا صوت الحق ، وعز العلماء ، وتم تطبيق شرع الله تعالى ، وهزم الباطل ، وطاشت سهام السلطة ، والقوة المادية أمام سلطان الله تعالى ، وأحكامه ، وصدق على العز حديث رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ^(٢) . وعاد العز إلى عرينه في كنف الله تعالى ، ورعايته ، وهو القائل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج : ٣٨] ، والقائل : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

١٢ - عصر الأفذاذ :

هذه التسمية انفرد بها على حسب علمي الشيخ محمد محمد حسن شُرَّاب ؛ حيث قال : لا أدري من الذي أضاف هذا العصر إلى لفظ (المماليك) ولا أعرف من هو أول من أعطاهم هذا اللقب ، إن كان الذين وضعوا هذا الوصف (المملوكي) هم

(١) المصدر نفسه .

(٢) العز بن عبد السلام ص : ١٨٢ للزحيلي .

العرب ، فإنهم وآله أساءوا إلى من أحسن إلى بلادهم ، وإن كان الذين وضعوا هذا الوصف هم الغربيين الأوربيين ؛ كان علينا أن نعرف : أن الأعداء لا يصفون عهدنا التاريخية إلا بأحسن الصفات إليهم ، وأبغض الصفات إلينا ، فما كان لنا أن نقلدهم ، ونسير على هديهم ، فالغريون الصليبيون يحقدون على عصر صلاح الدين ، وعلى عصر (الأفاذ) ، وقولهم : (المماليك) إنما هو لقب (ذم) ، هم يحقدون على هؤلاء الأفاذ ، لأنهم حرموا الصليبيين من تحقيق أطماعهم في العودة إلى القدس ، ذلك : أن الحملات الصليبية لم تفر بعد صلاح الدين ، وذكرنا قبل هذا : أنهم دخلوا القدس مرتين بعد أن حرّره صلاح الدين ، وكانت بقيت لهم ممالك ، وحصون كثيرة على الساحل ، وهؤلاء الذين نلقبهم (المماليك) هم الذين نظفوا البلاد من الصليبيين ، وأزالوا آخر مملكة صليبية سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م أي : بعد فتح القدس بمئة سنة . . . وهؤلاء الذين نصفهم بالمماليك هم الذين هزموا أكبر غزو وحشي على البلاد الإسلامية بعد الغزو الصليبي ؛ ألا وهو الغزو المغولي .

ومعركة عين جالوت تتحدث عنها الركبان ، وتعدّ رمزاً لقوة الإسلام . . وعهد هؤلاء الأفاذ العلمي من العهود الزاهرة ، وآثارهم العلمية ، والعمرانية شاهدة لتاريخهم المجيد ، فقد عدت لهم في القدس وحدها خمساً وثلاثين مدرسة لتعليم العلوم النافعة ، وعشرات المساجد ، والبنائيات ، والأوقاف ،

والأربطة ، والإصلاحات ^(١) ، إنهم إذا كانوا ممالك ، فإنهم في رأيي ممالك الإحسان على معنى قول الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

فأولئك أحسوا في قرارة نفوسهم : إِنَّ اللَّهَ أَحْسَنُ إِلَيْهِمْ عندما جلعهـم مسلمين ، وحكاماً ، فامتلك قلوبهم هذا الإحسان ، لم يفخروا بنسب ينتمون إليه ، وإنما فخروا بأعمالهم التي خلدتهم ، ومن حقهم علينا أن نلقبهم بأحب الألقاب إليهم في حياتهم ، ومن حقهم علينا أن نذكرهم في التاريخ بالصفة التي تدلُّ على الوفاء لهم جزاء ما قدموا للعرب ، والمسلمين ، ومن الأوصاف المناسبة لعصرهم أن نقول : عصر الأفضاذ ^(٢) .

ثالثاً : جهود الممالك في دحر الحملة الصليبية السابعة :

عندما قرَّر الصليبيون الزحف نحو القاهرة توفي الملك الصالح أيوب ، وكانت محنة عظيمة أملت بالمسلمين ^(٣) ، وكان عمره عند وفاته ٤٤ سنة ، وقد عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ، ولم يكن موجوداً في مصر ، وظهرت على مسرح

(١) بيت المقدس والمسجد الأقصى ص : ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٤٢٦ .

(٣) الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ص : ٣٥٣ .

الأحداث زوجته شجرة الدرّ ، وأدركت خطورة إذاعة خبر وفاة زوجها نجم الدين على الجند ، فقررت إخفاء خبر الوفاة ، ولم يعرف ذلك إلا الخاصة ، وقدمت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين ابنه تورانشاه قائداً عاماً للجيش ، ونائباً للسلطان أثناء مرضه ، وخلال ذلك كان الصليبيون يتحركون جنوباً ، ووصلوا إلى مدينة فارسكور في الثاني عشر من ديسمبر ١٢٤٩م ، ومنها تقدموا إلى شار مساح ، ثم البرامون ، وأصبح بحر أشموم هو الفاصل بين المسلمين ، والصليبيين .

وعند هذه المرحلة توقفت القوات الصليبية ، وأقامت معسكرها على الضفة الشمالية ، وعملت على تأمين معسكرها بحفر الخنادق ، وإقامة المتاريس ، وظلّوا على هذا حوالي شهر ونصف ، ثم شرعوا في بناء جسر ليعبروا عليه على الضفة الجنوبية لبحر أشموم ، ولم تكن عملية إقامة الجسر بالأمر الهين ، فقد أمطروهم المسلمون وابلاً من القذائف ، ولم يتمكنوا من إقامته ، وأخيراً نجح الصليبيون في التعرف على مخاضة - دلهم عليها أحد العربان ، وفي رواية : أحد الأقباط ^(١) بعدما رشوه بالمال ، وتمكنوا من العبور إلى المعسكر الإسلامي ، وكانت خطة الملك لويس أن يعبر هو ، وإخوته وجزء كبير من الجيش المخاضة إلى الجنوب ، ويقوم بقية الجيش الصليبي بحراسة المعسكر الصليبي ،

(١) تاريخ الأيوبيين ص : ٨٥ .

وبعد إتمام عملية العبور تقوم الفرقة المخصصة للحراسة باستكمال عملية إقامة الجسر ، وإذا تمَّ النصر على القوات الإسلامية في المنصورة ؛ يتقدم الجيش الصليبي إلى القاهرة .

وعبرت القوات الصليبية في عجز الثامن من فبراير عام ١٢٥٠ م وكانت عملية شاقة ، وبطيئة بسبب عمق المخاضة ، وكان في طليعة القوات الصليبية « الكونت آرتو » الذي شن على القوات الإسلامية المواجهة له هجوماً ، وحقق نصراً عليها ، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير فخر الدين أسرع بدعوة القوّات الإسلامية ، والتحم مع الصليبيين في معركة عنيفة وقع فيها فخر الدين شهيداً ، فغسل بذلك عار إنسحابه من جيزة دميماً ، واغتر « الكونت آرتو » بالنصر الذي أحرزه ، ولم يبال بأوامر الملك لويس التاسع ، ونصائح القادة الصليبيين بالترُّيث حتى تتكامل القوات الصليبية ، وأراد أن ينفرد بشرف النصر لنفسه ^(١) .

١ - معركة المنصورة :

اغترَّ « روبرت آرتو » بقوته ، وتابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها ، والقضاء على الجيش الأيوبي ، وأعرض عن توسُّلات الدَّاوية بأن ينتظر وصول الملك ، والجيش الرئيسي ، ونصحه بعضهم بالحيلة ، والحذر ، ثم بادر باقتحام المنصورة ^(٢) ،

(١) تاريخ الحروب الصليبية ، محمود سعيد ص : ٣١٢ .

(٢) الحملات الصليبية الرابعة الخامسة ، السادسة والسابعة ص : ٣٥٦ .

فأضحت المنصورة ساحة لحرب الشوارع ، وتولّى قيادة المسلمين الأمير بيبرس البندقداري ، فأقام جنده في مراكز منيعة داخل المدينة ، وانتظروا حتى تدفق الصليبيون بجمعهم إلى داخلها ، ولمّا أدركوا : أنهم بلغوا أسوار القلعة التي اتخذها المصريون مقراً لقيادتهم ؛ خرج عليهم المماليك في الشوارع ، والحارات ، والدروب ، وأمعنوا في قتالهم ، ولم يستطع الصليبيون أن يلتمسوا لهم سبيلاً إلى الفرار ، فوقع الاضطراب بين الفرسان ، ولم يفلت من القتل إلا من ألقى بنفسه في النيل ، فمات غريقاً ، أو كان يقاتل في أطراف المدينة ^(١) . وكانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي ^(٢) ، وأول ابتداء النصر على الفرنج .

وجزع لويس التاسع بتلك الصدمة ، لكنه تمالك نفسه ، وبادر إلى إقامة خط أمامي لمواجهة ما توقعه من هجوم من قبل فرسان المماليك ضدّ قواته ، كما أقام جسراً من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيل مع رجاله ، وورّع رماته على الطرف البعيد للنهر حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك ، لكن المماليك لم يتركوه وشأنه ، وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي ، وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه ، وأجبر المسلمين على التراجع نحو المنصورة ، وعلى رغم من الانتصار الصليبي ، إلا أنّ موقف

(١) الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون ص : ١٥٠ .

(٢) السلوك (١ / ٤٤٨) ، و : تاريخ الأيوبيين ص : ٣٨٦ .

الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بسرعة واضحة ، بعد أن قُلتِ المؤن ، كما فقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة ، وانتشرت الأمراض في معسكرهم ، وظلَّ الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع ، في معسكره أمام المنصورة آملاً بأن يحدث انقلاب في مصر ، أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي ^(١) .

٢ - تورانشاه يقود المعركة :

وصل تورانشاه إلى المنصورة في ١٧ ذو القعدة ٦٤٧ هـ / ٢١ شباط ١٢٥٠ م بعد أن أعلن سلطاناً في دمشق ، وهو في طريقه إلى مصر ، فأعلنت عندئذ وفاة الصالح أيوب ، وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور ، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين ^(٢) . وكان وصوله إلى مصر إيذاناً بإعادة ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين ، وبين صفوف المماليك ، وتيمّن الناس بطلعته ^(٣) . وأمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة نقلها إلى فروع النيل السفلى ، وأنزلها في القنوات المتفرعة ، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط ، فقطع بذلك الطريق عليها ، وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط ^(٤) ، وفقد الصليبيون عدداً كبيراً

(١) الحملات الصليبية للصلاحي ص : ٣٥٦ .

(٢) السلوك (١ / ٤٤٩) ، و : تاريخ الأيوبيين ص : ٣٨٧ .

(٣) النجوم الزاهرة (٦ / ٣٦٤) .

(٤) المصدر نفسه (٦ / ٣٦٤) .

من سفنهم قَدَّرَتهَا المصادر بما يقرب من ثمانٍ وخمسين سفينة .

انقطع المدد من دمياط عن الفرنج ، ووقع الغلاء عندهم ، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ، ولا يقدرّون على الذهاب ، وتشجع المسلمون ، وطمعوا فيهم ، وأدرك لويس التاسع استحالة الزحف نحو القاهرة في ظلّ هذه الأوضاع ، وبدأ يفكر في العودة إلى دمياط ، وفعلاً أمر بالارتداد ، وأحرق الصليبيون ما عندهم من الخشب ، وأتلفوا مراكبهم ؛ ليفروا إلى دمياط ، كما أدرك : أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة ، وأن المماليك سوف يطاردون جيشه ؛ لذلك لجأ قبل أن يبدأ بعملية الانسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس ^(١) ، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة ، وكان طبيعياً لأن يرفض تورانشاه هذا الاقتراح ، وبخاصة : أنه علم بحرج موقف الملك .

وفي صباح المحرم عام ٦٤٨ هـ / نيسان عام ١٢٥٠ م بدأت عملية المهندسين الصليبيين على أن يدمروا الجسر الذي أقاموه لاجتياز البحر الصغير ، فلم يلبث المماليك أن عبّروه وراءهم ، وقاموا بعملية مطاردة منظمة ، وهاجموهم من كل ناحية ^(٢) ، وبفضل ثبات الملك الفرنسي ، وحسن إدارته بعملية الانسحاب

(١) تاريخ الأيوبيين ص : ٢٨٨ .

(٢) النجوم الزاهرة (٦ / ٣٦٤) ، و : تاريخ الايوبيين ص : ٣٨٨ .

وصل الصليبيون إلى « شرمساح » عند منتصف الطريق بين المنصورة ، ودمياط ، ولكن كان هذا الملك مريضاً ، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب ، وراحوا يتخطفونهم ، وشنوا عليهم هجوماً عاماً في « فارسكور » ولم يقو الملك على القتال ، وتم تطويق الجيش بأكمله ، وحلت به هزيمة منكرة ، ووقع كل أفراده تقريباً بين قتلى ، وجرحى ، وأسرى ؛ حيث سيق مكبلاً إلى المنصورة ، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، وعُهد إلى الطواشي صبيح بحراسته ، وخُصص من يقوم بخدمته .

وكانت معظم الحرب في فارسكور ، فبلغت عدّة القتلى عشرة آلاف في قول المقلّ ، وثلاثين ألفاً في قول المكثّر ، وأسر من الفرنج عشرات الألوف بما فيهم صناعهم ، وسوقتهم ، وغنم المسلمون من الخيل ، والبغال ، والأموال ما لا يحصى كثرةً ، وأبليت الطائفة المملوكية البحرية - لا سيما بيبرس البندقداري - في هذه المعركة بلائاً حسناً ، وبأن لهم أثرٌ جميل ^(١) .

٣ - صور من شجاعة المماليك :

تعدّدت صور شجاعة هؤلاء المماليك في التصديّ لأعداء الإسلام ، وشهد التاريخ ببسالة الدور الذي لعبه المماليك في مقاومة الصليبيين ، فذكر جوانقيل : أن الكونت بواتيه ،

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب (٢٩ / ٣٥٦) .

والكونت فلاندر ، وبعض قادة قواتهم كان يرسلون إلى الملك لويس يتوسّلون إليه أن يقصر عن الجريمة لعجزهم عن متابعته لضغط المماليك الشديد عليهم^(١) . ويقول : ثم جاء للكونتابل جندي كان يعمل صولجاناً يرتجف خوفاً ، وأخبره : أن الترك قد أهدقوا بالملك ، وأنه في خطر عظيم فرجعنا ، وأبصرنا بيننا وبينه ما لا يقل عن ألف مملوك ، والملك قريب من النهر ، والمماليك يدفعون قواته ، ويضربون السيوف ، والصولجانات ، وأرغم القوات الأخرى على التقهقر^(٢) . وقد وصفهم أحد المؤرخين في تلك المعركة بقوله : والله لقد كنت أسمع زعقات الترك كالرعد القاصف ، ونظرت إلى لمعان سيوفهم ، وبريقها كالبرق الخاطف فلله درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه من حديد ، فلم تكن إلا ساعة وإذا بالإفرنج قد ولّوا على أعقابهم منهزمين ، وأسود الترك لأكتاف خنازير الإفرنج ملتزمين^(٣) .

وتضمّنت انتصارات المماليك على الصليبيين : أنهم استطاعوا الاستيلاء على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين بعد أن

(١) السلوك (١ / ٤٥٠) ، و : الحملات الصليبية للصّالبي ص : ٣٥٨ .

(٢) الجوّاري والغلمان في مصر ، نجوى كمال ص : ٤٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٤٠٤ ، كنز الدرر (٧ / ٣٧٦) .

قاموا بسحب بضعة سفن من سفن المسلمين إلى اليابسة ، وأنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرهم ، فاستحالت عودة الفرنج الذين ذهبوا إلى دمياط لجلب المؤنة ، وتمّ قتل جميع بحارة الثمانين سفينة ، كما استولوا على اثنين وثلاثين مركباً ، ممّا أضعفهم ، وطلبوا الصلح ^(١) .

٤ - لويس التاسع في الأسر وشروط الصلح :

لم يهتمّ المسلمون كثيراً بعد انتصارهم ، بأمر دمياط ، ونظروا إلى أبعد من ذلك ، ففكّروا باسترداد ما بأيدي الصليبيين في بلاد الشام ، فاستغلّوا وجود الملك الفرنسي في الأسر لتحقيق هذه الغاية ، لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه البلاد ليست في أملاكه ، بل تخصّص الملك كونراد ابن الإمبراطور فريدريك الثاني ^(٢) ، وعبثاً حاول تورانشاه إرغامه على الاعتراف ، وأصرّ لويس التاسع على رأيه ، وقال : إنه أسيرهم ، ولهم أن يفعلوا به ما يشاؤون ^(٣) ، فبادر تورانشاه إلى إغفال هذا الموضوع ، لكنه قرّر غزو بلاد الشام ، وغالّى في شروط الصلح ؛ إذ كان لازماً على الملك الفرنسي أن :

(١) الجوّاري والغلمان في مصر ص : ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٢) مذكرات جوائفيل ص : ١٥٧ ، ١٥٩ - ١٦١ .

(٣) تاريخ الأيوبيين ص : ٣٨٩ ، و : حملة لويس التاسع ص : ٢٠٦ .

- يفتدي نفسه بأن يؤدي مليون بيزنطة . وهذا مبلغ كبير .
- يُطلق سراح عددٍ كبير من الأسرى المسلمين .
- يسلم دمياط إلى المسلمين .
- يستمر الصلح مدة عشر سنوات ^(١) .

وافق الملك الفرنسي على هذه الشروط ، وأقسم الطرفان على احترامها ^(٢) ، وانتظر لويس لبعض الوقت ؛ حيث كانت زوجته تعاني آلام الوضع ، وأرسل بعض رجاله إلى دمياط لتسليمها للمسلمين ، ودخلت القوات المدينة في السابع من مايو بعدما ظلت في أيدي قوات لويس ما يقرب من عام ، ودفع لويس نصف الفدية حسبما اتفق عليه ، وأطلق سراح الصليبيين من البر الشرقي إلى جيزة دمياط ، ثم تابعهم باقي الصليبيين .

وفي يوم الأحد الرابع من صفر عام ٦٤٨ هـ الموافق الثامن من مايو عام ١٢٥٠ م أفلعت سفن الفرنج ، واتخذت طريقها إلى عكا حاملة فلول الحملة بعد أن أنهكتها الهزائم ، وحلت بها الكوارث ^(٣) .

(١) تاريخ الأيوبيين ص : ٣٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٨٩ .

(٣) تاريخ الحروب الصليبية ، محمود سعيد ص : ٣١٥ .

٥ - من أسباب هزيمة الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة :

ساهمت مجموعة من الأسباب في هزيمة الحملة الصليبية السابعة ، والتي من أهمها :

- أ - التطوير العسكري في الجيش الأيوبي .
- ب - وحدة الصف الإسلامي .
- ج - هيئة القيادة الإسلامية .
- د - نزول العلماء والفقهاء أرض الجهاد .
- هـ - جهل الفرنجة بجغرافية البلاد الإسلامية .
- و - خطأ كبير في تقدير العامل الزمني .
- ز - العصيان وعدم الطاعة عند الصليبيين .
- ح - انحلال الحملة السابعة خلقياً .
- ط - فتور الروح الدينية عند الصليبيين .
- ي - التهور ، وقصور النظر .

وقد فصلتُ في شرح الأسباب المذكورة في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة ، والخامسة ، والسادسة ، والسابعة^(١) .

(١) الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ص : ٣٦٠ .

٦ - من نتائج الحملة الصليبية السابعة :

لقد ترتب على هزيمة لويس التاسع عام ١٢٥٠ م / ٦٤٨ هـ مجموعة من النتائج ، ومن أهمها :

أ - ارتفاع شأن ومكانة المماليك :

فقد تبين بوضوح الدور البارز الذي قام به المماليك في معركة فارسكور ، وكيف : أن جهادهم أعداء الإسلام كلل بالنجاح ، وفي حقيقة الأمر : أن ذلك الدور كان له أثره في ارتفاع شأنهم ، وبذلك سيصبح لهم السند التاريخي في الوصول إلى العرش ، وليس غريباً : أن العام الذي شهد الانتصار على الغزاة ، وهو عام ١٢٥٠ م / ٦٤٨ هـ هو ذاته الذي شهد نهاية تورانشاه حريقاً غريباً لتنتهي الدولة الأيوبية ، ويتم إفساح الطريق لدولة المماليك الأفذاذ ؛ لتدافع عن الإسلام ^(١) بقوة ، وعزم ، ونشاط ، وحيوية جهادية رائعة .

ب - عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها :

والملاحظ : أن فعاليات فرنسا في دعم الحركات الصليبية ، وفي التوجه إلى البعد الإفريقي نالها الخسران المبين ، وعجزت فرنسا عن صنع واقع حربي وسياسي في المنطقة على حساب الأيوبيين ، وبذلك تأكد للدارسين كيف أن كافة المحاولات

(١) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص : ٣٧١ .

الصليبية لاختضاع مصر سواء في القرنين الثاني عشر ، والثالث عشر الميلادي / السادس والسابع الهجريين لم تحقق أدنى نجاح ، ولا شك في أن صورة أسرة آل كايبة الحاكمة في فرنسا ، ضعف أمرها بين الأسر الحاكمة في أوروبا بسبب الهزيمة الشنيعة التي تعرض لها لويس التاسع ، ووقوعه في الأسر^(١) وغير ذلك من النتائج التي ذكرتها في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة ، السادسة ، والسابعة .

٧ - مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية :

تباينت الآراء ، واختلف المؤرخون حول شخصية تورانشاه ، وتعددت أسباب قتله في نظرهم ، ولكنهم اجتمعوا على قتله على يد مماليك أبيه البحرية^(٢) . ويرى المؤرخ المصري الدكتور قاسم عبده قاسم : بالرغم من الانتصار الإسلامي الرائع على الحملة الصليبية ؛ فإن السلطان الأيوبي تورانشاه كان إخفاقاً أيوياً جديداً مهّد الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية ، وصعود الدولة الجديدة التي شادها المماليك ، لقد فشل تورانشاه في الاستجابة للتحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية ، وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً

(١) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص : ٣١٠ .

(٢) الخطط (٢ / ٢٣٦) ، والنجوم الزاهرة (٦ / ٣٦٤) .

بدأ يدبّر للتخلص « من شجرة الدر » وكبار أمراء المماليك ^(١) .

وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب أدّت لقتل تورانشاه ، منها :

- أن هؤلاء المماليك خدموه أتمّ خدمة ، وانتظروا مجازاتهم ، واعتقدوا : أنه سيملأ فراغ والده ، ولكنه قدم أمراءه ، وتوعّد ممالك أبيه - الذين ربّاهم كأولاده - وقطع أخبازهم ، ونهب أموالهم ، ولم يعمل بوصية أبيه تجاههم ^(٢) .

- ومن الأسباب التي ذكرت في قتله : أن ممالكه أشاروا عليه بصلح الفرنج بعد أن كان ملكهم في يديه حتى لا يحتاج إلى شجرة الدر ، أو ممالك أبيه ؛ لأنهم مسيطرون على الحكم ، وسوّلوا له : أنّ هؤلاء هم أعداؤه ، وأنّ في صلح الملك ، وتركه ، وأخذ الأموال ، والجواهر صلاح الحال ، وتسليم دمياط ، فشعر أمراء أبيه بتغيّره عليهم ، واستهتاره بما قاسوه ؛ حتى وصلوا إلى هذا النصر على الصليبيين ، فدبروا قتله ^(٣) .

- وقيل : إن من أسباب قتله : أنه كان قد وعد الفارس أقطاي حين ذهب إليه يستدعيه من حصن كيفا أن يؤمّره ، ولم يف

(١) في تاريخ الايوبيين والمماليك ص : ١٤٨ .

(٢) الجوّاري والغلمان في مصر ص : ٤٠٨ .

(٣) السلوك نقلاً عن الجوّاري والغلمان ص : ٤٠٩ .

بوعده ، فحقده عليه أقطاي^(١) ، ولما ذكّره بوعده على لسان بعض خواصه ؛ ردّ قائلاً : أعطيه جباً مليحاً يليق به^(٢) .

- وقيل : من أسباب قتل المماليك له : أنه تعرض لحظايا أبيه^(٣) ، فلماذا حظايا أبيه وقد كان في عصر من الممكن الحصول فيه على أكبر عدد من المماليك ، والجواري ، والحظايا ، وكان طبيعياً : أن لكل سلطان حظايا ، فلم تكن ثروة ثمينة لا يستطيع الحصول على مثلها^(٤) .

- وقيل : من أهم أسباب قتله : أنه طالب زوجة أبيه شجرة الدر بمال أبيه ، والجواهر^(٥) ، وهذّدها ، فخافت منه ، فتلاقت مخاوفها مع مخاوف زعماء المماليك وغضبهم بعد أن حرّمهم السلطان الجديد من إقطاعاتهم ، فاستقرّ الرأي على ضرورة التخلص من آخر سلاطين الأيوبيين في مصر^(٦) .

- وكان إدمان شرب الخمر أحد تصرّفات تورانشاه التي

(١) نهاية الارب (٢٩ / ٣٦٠) ، و : الجوّاري والغلمان ص : ٤٠٩ .

(٢) كنز الدرر (٧ / ٣٨١ - ٣٨٢) ، و : الجوّاري والغلمان ص : ٤٠٩ .

(٣) شفاء القلوب نقلاً عن الجوّاري والغلمان ص : ٤٠٩ .

(٤) الجوّاري والغلمان في مصر ص : ٤٠٩ .

(٥) السلوك نقلاً عن الجوّاري والغلمان ص : ٤١٠ .

(٦) في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، قاسم عبده ص : ١٤٨ .

أثارت حقن المماليك البحرية عليه ، وذكرها معظم من أرخ لتلك الفترة ، فقد كان يشرب الخمر حتى تدور رأسه ، ويأتي بالشموع ، ويسميها باسم ممالك أبيه ، ويطيح بها بسيفه ، وقد حذره أبوه في وصيته بترك شرب الخمر ، ولكن يبدو : أنه لم يسمع النصيحة . وقد جاء في الوصية : يا ولدي ! قلدت إليك أمور المسلمين ، فأفعل فيهم ما أمرك به الله ، ورسوله . يا ولدي ! إياك والشراب ؛ فإن جميع الآفات ، وما يأتي على الملوك ما هو إلا من الشراب ^(١) .

- وذكر ابن العبري : أن أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حفيظة البحرية ضده حين علم : أن الملكة زوجة الملك لويس التاسع المعتقل لديه ولدت له ابناً في دمياط ، فسير إليها المعظم عشرة آلاف دينار ذهباً ، ومهداً للطفل ذهبياً ، وحللاً ملكية ^(٢) ، وغير ذلك من الأسباب .

والمهم أن نعرف حقيقة هامة ، وهي : أنهم شعروا باختلاف شديد في معاملة السلطان لهم ، ومعاملة تورانشاه المختلفة ، فقد كان الملك الصالح يحب ممالكه ، ويهتم بهم ، ويغدق عليهم الكثير من الإنفاق ، وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم : أنه ذكرهم في وصيته لابنه تورانشاه : الولد يتوصى بالخدم محسن ، ورشيد ،

(١) نهاية الأرب (٢٩ / ٣٤٧) ، و : الجواري والغلمان ص : ٤١٠ .

(٢) الجواري والغلمان ص : ٤١٠ .

والخدم المقدمين لا تغيّرهم ، فما قدمت أحداً من الخدم ، ولا من الممالك إلا بعد ما تحققت نصحه ، وشفقته . وأستاذ الدار ، وأمير جاندار تتوصى بهم ، وكذلك الحسام لا تغيّرهم ، فإنني اعتمد عليهم في جميع أموري ^(١) . وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من الممالك تقدّمهم ، وتعطي كل واحد منهم كوس ^(٢) ، وعلم ، وتحسن إليهم ، وتتوصى بالممالك غاية الوصية ، فهم الذين كنت أعتمد عليهم ، وأثق بهم ، وهم ظهري ، وساعدي ، تتلطف بهم ، وتطيب قلوبهم ، وتوعدهم بكل خير ، ولا تخالف وصيتي ، ولولا الممالك ما كنت قدرت أركب فرسي ، ولا أروح إلى دمشق ، ولا إلى غيرها ، فتركهم ، وتحفظ جانبهم ^(٣) .

وجاء في الوصية : والوصية بجميع الأمراء ، وأكرمهم ، واحترمهم ، وارفع منزلتهم ، فهم جناحك الذي تطير به ، وظهرك الذي تركن إليه ، وطيب قلوبهم وزد في إقطاعهم وزد كل أمير على ما معه من العدة عشرين فارساً ، وأنفق الأموال ، وطيب قلوب الرجال ؛ يحبوك ، وتتل غرضك في دفع هذا العدو ^(٤) .

(١) المصدر نفسه ص : ٤١١ ، و : نهاية الأرب (٢٩ / ٣٥٠) .

(٢) الكوس : من شعارات السلطنة والإمارة ، وهي صنوج من نحاس .

(٣) نهاية الأرب (٢٩ / ٣٥١) ، و : الجواري والغلمان ص : ٤١١ .

(٤) الجواري والغلمان ص : ٤١١ .

ومن الراجح : أن هؤلاء المماليك توقعوا بعد الانتصارات التي حققوها ، والصعاب التي واجهوها في سبيل تخلص البلاد من ذلك الخطر الصليبي ، وحفظ البلاد للسلطان ، وحتى مجيئه ، وحلفهم له ، وتنصيبهم إياه سلطاناً على البلاد أن يقدّر ذلك الجميل ، ويكافئهم كما تعودوا من أبيه ^(١) .

ويبدو : أن الأمر كان مغايراً تماماً لما توقعوه ، وبعد أن كان لهم الحل ، والعقد ، والأمر ، والنهي أثر مماليكه ، ودأب على تهديد هؤلاء ، ووعيدهم ، فلم يستطيعوا تقبل الأمر كما هو ، فقتلوه ^(٢) . وكانت أكبر أخطاء تورانشاه : أنه أقام بناية السلطنة الأمير جمال الدين أقوش النجيبى بدلاً من الأمير حسان الدين أبي علي الذي كانت له هبة في عهد الصالح ، وهو الذي كان قد أمر الخطباء بالدعوة لتورانشاه على المنابر يوم الجمعة بعد الدعاء لأبيه ، وهو الذي حرّض على استدعائه في سرعة ، حتى لا يتغلب الأمير فخر الدين على البلاد عقب وفاة الصالح ^(٣) ، فكان من الممكن أن يسانده ، ويتقوّى به ^(٤) .

(١) مرآة الزمان نقلاً عن الجوّاري والغلمان ص : ٤١٣ .

(٢) الجوّاري والغلمان ص : ٤١٤ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٤١٤ .

(٤) المصدر نفسه ص : ٤١٤ .

٨ - كيفية مقتل تورانشاه :

ونتيجة لبعض التصرفات غير المسؤولة ، وعدم أخذ الحيطة اللازمة من تورانشاه قرّر المماليك البحرية التخلص من تورانشاه ، وتزعم المؤامرة مجموعة من الأمراء البحرية ، منهم : فارس الدين أقطاي ، وبيبرس البندقداري ، وقلاوون الصالحي ، وأبيك التركماني ، وتمّ تنفيذ المؤامرة في صباح يوم الإثنين ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ / ٢ أيار ١٢٥٠ م وكان السلطان آنذاك في فارسكور يحتفل بانتصاره ، وتهيأ لاستعادة دمياط ^(١) . وجلس على عادته ليتناول طعامه ، فتقدم إليه بيبرس البندقداري ، وضربه بسيفه ضربة تلقّاها بيده ، فقطعت بعض أصابعه ، فأسرع تورانشاه إلى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل ليمضي فيه بعض وقته ، واحتّمى به ، وهو يصيح : من جرحني ؟ فقالوا : (الحشيشية) فقال : لا والله إلا البحرية ! والله لا أبقيت منهم بقية ، وضمّد جراحه ، فاجتمع أمراء المماليك ، وقرروا قتله ، وقالوا : بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها ، ودخل ركن الدين بيبرس ، وفارس أقطاي ، وغيرهما من أمراء المماليك البحرية إلى البرج ، وهم شاهرون سيوفهم ، ففرّ تورانشاه إلى أعلى البرج ، وأغلق بابه والدم يسيل من يده ، فأضرموا النار في البرج ، ورموه بالنشاب ، فلقى تورانشاه نفسه من أعلى البرج ، وهو يصيح مستنجداً : ما

(١) تاريخ الايوبيين ص : ٣٩٠ .

أريد ملكاً دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين ! أما فيكم من يصطنعني ، ويجبرني ^(١) ! فلم يجبه أحد ، وأخذ يركض نحو النيل ، ونبال المماليك تأخذه من كل جانب حتى ألقي بنفسه في الماء على أمل أن يسبح إلى إحدى سفنه الراسية ؛ ليعتصم بها ، ولكن سرعان ما لحق به أقطاي ، فقتله ، وتركت جثته على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يتجاسر أحد على دفنه إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسي ، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ، ودفن ، بعد أن حكم واحداً وستين يوماً ^(٢) ، وقيل مدة سلطته بالمنصورة نحو أربعين يوماً ، لم يدخل فيها إلى القاهرة ، ولا طلع قلعة الجبل ، ولم يعتل سرير الملك ^(٣) .

وبوفاة تورانشاه انقضت دولة بني أيوب بعد أن قامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوماً ، وكان تورانشاه آخر من تولي السلطنة من بني أيوب ^(٤) ، على أن بعض المصادر ذكرت : أن الدولة الأيوبية انتهت بخلع شجرة الدر ^(٥) . فقد ذهب مجموعة من المؤرخين : أن حكم شجرة الدر استمرّ للحكم الأيوبي ،

(١) النجوم الزاهرة (٦ / ٣٧١) .

(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن الدولة الأيوبية د . عكور ص : ٢٦٢ .

(٣) بدائع الزهور نقلاً عن الجوّاري والغلمان ص : ٤١٦ .

(٤) المصدر نفسه ص : ٤١٦ .

(٥) عجائب الآثار (١ / ٥١) ، للجبرتي ، و : الجوّاري ص : ٤١٦ .

وأما في بلاد الشام ؛ فقد استمرَّ حكم الدولة الأيوبية لعدة سنوات أخرى^(١) .

رابعاً : أسباب سقوط الدولة الأيوبية :

إن أسباب سقوط الدولة الأيوبية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله في أمور الحكم ، وغيرها ، فقد وقع الظلم على الأفراد ، وتورط بعض السلاطين في الترف ، وحدث بينهم نزاع عظيم ، سفكت فيه الدماء ، وأدى ذلك إلى زوالهم . فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم - كما حدث في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين - يجلب للأفراد ، والدولة تعاسةً ، وضنكاً في الدنيا ، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وإن الفتن تظل تتوالى ترى على الناس حتى تمسَّ جميع شؤون حياتهم^(٢) . قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

لقد كان في إبتعاد سلاطين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين عن تحكيم الشرع في نزاعاتهم ، وخلافاتهم آثار على أفراد البيت

(١) الدولة الأيوبية د . عكور ص : ٢٦٦ .

(٢) الدولة العثمانية للصلابي ص : ٥٢٠ ، و : الدولة الأموية

الأيوبي ، والدولة ، فقد أصيبوا بالقلق ، والجزع ، والخوف ، والشقاق ، والخلاف ، ونزع منهم الأمن ، وأصبحوا في الضنك من الحياة .

إنَّ هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ ، بل نتيجةً لممارسة هذه الأسرة الحاكمة ، أو الدولة ، أو الأمة الظلم ، والانحراف ، وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية ؛ حتى تحقَّ عليهم الكلمة ، فيدفعوا ثمن انحرافهم ، وإجرامهم ، وطغيانهم ، وفسقهم . والآيات صريحة في ذلك ، فالله إذا أنعم على دولة نعمة أيّاً كانت ؛ فهو لا يسلبها ؛ حتى يكفر بها أصحابها ^(١) . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] . والآيات في هذا كثيرة سواء ما يخصُّ الفرد ، أو الأمة ، بل إن القرآن الكريم ليذكر : أن بعض ما يصيب الأمم ، والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى ، وتواتيهم الدنيا ، وتفتح عليها خيراتها ، فينسوا مهمتهم ، وما خلقوا له ، بل ينسون المنعم ، جل جلاله ، وينسبون ما عندهم لجهدهم ، وذكائهم ، وقد يفلسفون الأمر ، فيقولون : لو لم نكن نستحق هذه النعم ؛ لما منحت لنا ! وفي هؤلاء يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَسَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾

(١) في التفسير الإسلامي للتاريخ ، نعمان السامرائي ص : ٨٨ .

فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ [الأنعام : ٤٤ - ٤٥] . لقد نسي هؤلاء : أن الله يمنح خيرات الدنيا لمن يطلبها ، ويجدُّ فيها . قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [آل عمران : ١٤٥] . ولكن هناك من يريد الآخرة بحق ، ويسعى لذلك ، فهو الفائز : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [١٨] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّهُنَّ هُنَّ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ [الإسراء : ١٨ - ٢٠] . وقال تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [٢١] وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٢٢﴾ [النحل : ١١٢ - ١١٣] . ولنستمع لهذه الدعوة الكريمة : ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا الْجَحِيمَ﴾ [هود : ٥٢] .

وهناك آيات كثيرة تحاول قطع الطريق على بعض المتفلسفين من أهل الكتاب : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة : ١٩] ، فكلُّ إنسان ، وكلُّ مجتمع ، وكلُّ أمة مسؤولة عما يصدر عنها ، ولا يتحمل أحد جريرة غيره : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ

وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ [البقرة : ١٣٤] .
المهم : أن الله تعالى لا يحجب نعمة عن أحد ، بل يوزعها على
المؤمن ، والكافر ، ثم يراقب تصرف الكل فيها ، فمن طغى ،
وظلم ، ومن كفر بها ، واستعملها استعمالاً سيئاً ؛ فإن العقاب
العادل سينزل به في الوقت المناسب ، وقد يطول ذلك العهد قبل
نزول العقاب ، ولكنه يكون في الطريق ، وبعد هذا وذاك فإنه :
﴿ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ومثل هذا في
الأمم ، والمجمعات ، وعلى مستوى الأفراد ، فإن الله خلق
النفوس ملهماً إياها طريق الخير ، والشر ، يقول تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ
وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ^(٧) فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ^(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ^(٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّهَا ﴿ [الشمس : ٧ - ١٠] . وقال ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾
[البلد : ١٠] .

ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول ، والحضارات
بأنها لا تسقط بسبب واحد ، كما لا تقوم بسبب واحد ، بل بتجمع
عدة أسباب لقيامها ، وعدة أسباب لتدهورها ، وسقوطها ، بعضها
يعمل ببطء ، بينما يعمل البعض بسرعة أكبر ، ولا تسقط الدولة ،
والحضارة بضربة واحدة ، بل بتضافر جملة من العوامل ^(١) ،
وهذا ما حدث للدولة الأيوبية التي زالت من الوجود في مصر عام
٦٤٨ هـ .

(١) أيعيد التاريخ نفسه ص : ١٣٤ .

وأهم هذه الأسباب في نظري :

١ - توقف منهج التجديد الإصلاحي :

كان صلاح الدين رَحِمَهُ اللهُ رجل المرحلة ، وجدت فيه صفات عظيمة ، ساعده على ذلك الأجواء التي هيأها نور الدين بن محمود من حبه للجهد ، والعلم ، وتقريب العلماء ، وإشاعة العدل ، وسرى هذا في الأمراء ، والوزراء ، ولكن المعضلة الرئيسية التي بقيت هي أن التجديد لم يتحوّل إلى مؤسسات راسخة ، وإلى اتجاه عام في الدولة ؛ حتى لا ينقطع بوفاة القائد ، أو المؤسس^(١) ، وذلك يرجع إلى أمور ، منها :

أ - نقص الفقه الحركي الذي وجّه نشاطات المدارس الإصلاحية :

فإن مدارس الإصلاح في هذا العصر ركّزت نشاطاتها على تحقيق عنصر « الإخلاص » في العمل ، أي : أنها ركزت على التربية أكثر من الاستراتيجية ، ولذلك لم تفرز « فقه الحكمة » اللازم لتنظيم مؤسسات السياسة ، والإدارة ، والاقتصاد ، وتنظيم مسؤوليات العاملين فيها وأدائهم ، وحسن استثمار الموارد البشرية ، والمادية بما يناسب حاجات المكان ، والزمان ، وإنما اكتفت بـ : (فقه) الآباء الذي يركز على « المظهر الديني للقيادة »

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص : ٣٢٢ .

دون « المظهر الاجتماعي » ، وصار شيوخها ، ومتعلموها يسلكون طريق « الزهو » وينتمون إلى مذهب من المذاهب الفقهية التقليدية في آن واحد . ولهذا يوصف الواحد منهم بأنه - مثلاً « قادري السلوك » ، « وشافعي المذهب » . كذلك لم تطرق هذه المدارس ميادين « الفقه » المتعلق بالمظهر الكوني للعبادة ، والمؤدي إلى تطور العلوم الطبيعية ، وتسخير تطبيقاتها في ميادين الحضارة المادية المختلفة .

وهذا النقص في الفقه السياسي ، والإداري جعل المنجزات التي حققها جيل صلاح الدين تعتمد على الشخصيات أكثر من فاعلية المؤسسات ، فلمّا غابت الشخصيات القيادية على مسرح الحياة ؛ برز تأثير العامل الثاني ، أي : أثر العصبية الأسرية ، والقبلية التي عادت لتوجه مؤسسات الحكم ، والإدارة بما فيها مدارس الإصلاح نفسها ، وهذا التطور السلبي حقّق إفراز ظواهر غير إيجابية ، منها :

- حين لم يحد جيل الأبناء فقهاً سياسياً ، وإدارياً ينظم عملية تعيين الحاكم ، ومؤسسات الحكم ، والإدارة ؛ ارتد إلى تقاليد العصبية الأسرية ، والقبلية ، وروابط الدم التي تعتبر الحكم ، وقيادة المؤسسات التربوية ، والعلمية ميراثاً يرثه الأبناء عن الآباء ، الأمر الذي أدّى إلى تفكك الدولة ، وانقسامها ؛ حيث تقاسم الأبناء ما وحّده جيل الآباء ، وأداروه طبقاً لتقاليد العصبية الأسرية التي سبقت جيل صلاح الدين ، والتي كانت تعتبر أراضي

الدولة ، ومدنها ، وسكانها إقطاعات يتصرف بها الحكام ، ويتبادلونها بالبيع والشراء ، وصفقات الحرب ، والصلح .

- أدى النقص في الفقه السياسي ، والإداري إلى انفجار الفتن بين الملوك ، وأمراء الجيش ، من ذلك ما حدث بين الملك الكامل ، وبين عماد الدين أحمد بن المشطوب الكردي الهكاري الذي يصفه ابن خلكان بأنه كان صلاح الدين أطمعه وهو شاب إقطاع نابلس إكراماً لوالده سيف الدين أبو الهيجاء المشطوب الهكاري الذي كان من كبار أمراء الجيش الصلاحي ، وقادته ، فقد اتفق عماد الدين بن المشطوب مع الأكراد الهكارية على خلع الملك الكامل ، وتمليك أخيه الفايز ، ولكن المحاولة لم تنجح ، ودبّ الاضطراب في معسكر الجيش الذي كان في مواجهة الصليبيين ، وانسحب عماد الدين إلى قلعة حرّان حيث بقي فيها حتى وفاته عام ٦١٠ هـ ^(١) .

والخلاصة : أن الجذب في الفقه السياسي ، والإداري أفرز - بعد جيل صلاح الدين - قيادات ، وإدارات متسلطةً فردية عملت على أن تحكم الأمة بقيم القوة فوق الشريعة ، والفردية بدل العمل الجماعي ، والتسلط بدل الشورى ، والارتجال بدل التخطيط ^(٢) .

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص : ٣٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٢٢ .

- قامت الدولة الأيوبية على تبني فكرة الجهاد ، وتحرير ديار المسلمين من الغزو الصليبي ، وكانت التعبير العملي على مدى أصالة فكرة الجهاد الإسلامي وعن مدى عمق هذه الفكرة في نفوس المسلمين في كل من مصر ، والشام ، وقد انعكس هذا العمق وتلك الأصالة في الصفحات المشرقة التي سجلها بجهاده صلاح الدين ، وذلك إذا انتقلنا إلى الصورة التي كانت لها في سنواتها الأولى ، وهذا يعني : أنها قد أصبحت في وادٍ ، والفكرة التي قامت عليها في وادٍ آخر ، ولو قُدِّر ، واستمرت الدولة الأيوبية بالصورة التي كانت عليها في سنواتها الأخيرة ؛ لكان معنى ذلك نهاية ، أو سقوط فكرة الجهاد الإسلامي ، وترك الساحة للصليبيين يرسمون مستقبلها ، ومقدرات شعوبها كما يريدون .

وإذا فإن اختفاء الدولة الأيوبية ، وقيام دولة المماليك مقامها كان التعبير العملي لرفض زوال فكرة الجهاد ، كما كان أيضاً تأكيداً عملياً لقوة هذه الفكرة ، وضرورة استمرارها حتى تحقق أهدافها كاملة ، وخير للأجيال أن تستمر الفكرة حتى ولو على حساب سقوط الدولة والرجال مهما كانت درجة التعاطف مع هذه الدول ، وهؤلاء الرجال ^(١) .

ب - ومن الظواهر السلبية :

التي ساهمت في توقف حركة التجديد والإصلاح ، تسلل قيم

(١) الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات ص : ٣٩٥ .

العصبية الأسرية إلى مدارس الإصلاح نفسها ؛ إذ يستفاد مما كتبه مؤرخو تلك الفترة كابن الوردي ، وابن المستوفي : أن الأبناء ، والأحفاد تسلموا مشيخات هذه المدارس بعد وفاة المصلحين الآباء دون أن يكون لأولئك الأبناء ، والأحفاد المؤهلات العلمية ، والدينية ، والأخلاقية ، الأمر الذي أحال مدارس الإصلاح إلى إقطاعات دينية ، وعصبية مذهبية ، وأدى إلى انصراف النابهين المثقفين من صفوفها ، واجتماع العامة فيما عرف باسم « الطرق الصوفية » التي اشتقت أسماؤها من أسماء الآباء المؤسسين ، كالطريقة القادرية ، والطريقة البينانية ، والطريقة الرفاعية ؛ التي راحت تركز على الطقوس ، والأشكال بدل التربية ، والعلوم ، والأعمال ^(١) .

٢ - الظلم :

إنَّ الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان ، يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدره له وهو مريض ، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته ، فكذلك الظلم في الأمة ، والدولة يعجل في هلاكها مما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها ، واضمحلالها من خلال مدة معينة يعلمها الله ، هي الأجل المقدر له ، أي : الذي قدره الله بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء ، كالعدل ، أو من

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص : ٣٢٣ .

عوامل الهلاك ، كالظلم الذي يظهر أثرها - وهو هلاكها - بعد مضي مدة محددة يعلمها الله ^(١) . قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] . قال الألوسي رحمه الله في تفسيره هذه الآية : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي : لكل أمة من الأمم الهالكة أجل ، أي : وقت معين مضروب لاستئصالهم ، ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا ، أي : أننا نعلم يقيناً : أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله ، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ، ولا بالسنين ، وهو محدد عند الله تعالى ^(٢) : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٠ - ١٠٢] .

إن الآية الكريمة تبين : أن عذاب الله ليس مقتصرًا على من تقدّم من الأمم الظالمة ، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة ، فلا ينبغي أن يظن أحد : أن هذا الهلاك قاصر على أولئك الظلمة السابقين ؛ لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم ؛ قال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ [هود : ١٠٢]

(١) السنن الإلهية د . عبد الكريم زيدان ص : ١٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٢١ .

فبين الله تعالى : أن كلَّ من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدَّت إلى هلاكهم ؛ فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد ، فالآية تحذر من خطورة الظلم ^(١) .

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى : أن حكامها لا يظلمون الناس ، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم ، فهذه الدولة مع كفرها تبقى ؛ إذ ليس من سنته إهلاك الدولة بكفرها ، ولكن إذا انضمَّ إلى كفرها ظلم حكامها للرعية ، وتظالم الناس فيما بينهم ^(٢) ؛ نزول . قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : ١١٧] قال الإمام الرازي رَحِمَهُ اللهُ فِي تفسيره : إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك . والمعنى : أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم ، يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح والسداد ^(٣) . وفي تفسير القرطبي رَحِمَهُ اللهُ قوله « بظلم » أي : بشرك ، وكفر ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أي : فيما بينهم في تعاطي الحقوق . ومعنى الآية : أن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده ، ولكن حتى يضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال ،

(١) الدولة الأموية للصلاحي (٢ / ٥٧١) .

(٢) السنن الإلهية ص : ١٢١ .

(٣) تفسير الرازي (١٨ / ١٦) .

والميزان ، وقوم لوط باللواط ^(١) .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة : أمور الناس إنما تستقيم بالعدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وأن تشترك في الأثم ، ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة . ويقال : إن الدنيا تدوم مع العدل ، والكفر ، ولا تدوم مع الظلم ، والإسلام ، وذلك : أن العدل نظام كل شيء ، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل ؛ قامت ، وإن لم تقم بالعدل ؛ لم تقم ؛ وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة ^(٢) .

ولقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الأيوبيين ، فقد سفكوا الدماء فيما بينهم ، فقاتل الأخ أخاه ، والعم بني أخيه ظلماً ، وجوراً ، وتسلباً على العباد ، والبلاد ، وحوصرت دمشق ، وتعرض أهلها للمجاعة بسبب الأهواء ، والنزوات ، وإسراف بعض سلاطينهم في المال العام ، وتمّ الاعتداء في بعض الأحوال على أموال الرعية بدون وجه حق . وقد بيّنتُ ذلك في مناسبات عديدة في كتابي : « الأيوبيون بعد صلاح الدين ، والحملات الصليبية ، الرابعة ، والخامسة ، والسادسة ، والسابعة » .

(١) تفسير القرطبي (٩ / ١١٤) .

(٢) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص : ٤٠ .

٣ - الترف والانغماس في الشهوات :

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَبْغَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ١١٦] ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ أراد بالذين ظلموا : تاركي النهي عن المنكرات ؛ أي : لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين ، وهو الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإنما اهتموا بالتنعم ، والترف ، والانغماس في الشهوات ، والتطلع إلى الزعامة ، والحفاظ عليها ، والسعي لها ، وطلب أسباب العيش الهنيء ^(١) ، وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة ، وابتعدوا عن شرع الله بالهلاك ، والعذاب . قال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونُ ﴾ [الأنبياء : ١١ - ١٣] .

ومن سنة الله تعالى هلاك الأمة بفسق مترفيها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦] . وجاء في تفسيرها : وإذا دنا وقت هلاكها ؛ أمرنا بالطاعة مترفيها : أي : متنعميها ، وجباريها ،

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص : ١٨٦ .

وملوكها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فأهلكناها . وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع ؛ لأنهم أئمة الفسق ، ورؤساء الضلال ، وما وقع من سوء ؛ فإنما وقع باتباعهم ، وإغوائهم ، فكان توجه الأمر إليهم أكد ^(١) .

إن أمر بني أيوب مازال مستقيماً في عهد صلاح الدين حتى أفضى أمرهم إلى أبنائه ، فوقع بعضهم في الترف ، وآثروا الشهوات ، وأقبلوا على اللذات ، والدخول في المعاصي ، والتعرض لسخط الله ، والشواهد على ذلك كثيرة ، نذكر منها ما كان في عهد الملك الأفضل ، وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ما فعله أستاذ الدار ، وهو كبير أمناء الملك ، أو الرئيس ، والذي كان يجمع إلى منصبه اختصاصات الوزير ، وقاد الجيش في المعارك ، وفتح دمشق وكان متحللاً ، وعابثاً ، ومعتدلاً بقوة ، ومنصبه ، وتجراً على منكر كبير ، يخالف أحكام الدين ، ويسخر بالشرع ، ويسيء إلى مشاعر المسلمين ، فبني فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة ؛ أي : قاعدة لسماع الغناء ، والموسيقى ، وقد تصدَّى لذلك سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، كما بينا ذلك في الكتاب الذي قبل هذا .

ومن صور الترف في عهد الدولة الأيوبية التوسع في المآكل ،

(١) تفسير الألوسي (١٥ / ٤٢) .

والمشارب ، وما يترتب على ذلك من آفات ، وحب التكثر من المال ، والتوسع في المركوب ، وفي المسكن ، والملبس ، والنكاح لدى بعض أمراء ، وملوك البيت الأيوبي .

٤ - تعطيل الخيار الشوري :

ضرب الأيوبيون نظام الشورى في الحكم بعرض الحائط ، ذلك النظام القائم على حرية الانتخاب ، وحرية المعارضة ، والذي كانت القيادة الراشدة نفذته التزاماً بمعطيات القرآن ، والسنة في هذا المجال ، ولقد ولدت خطوة الأيوبيين هذه ردود أفعال خطيرة في الدولة الأيوبية ، بل أصبح التسلُّط والغلبة هو الطريق للسلطة والحكم . فهذا الملك العادل بعد أن تغلب على بني أخيه ؛ قال لوزرائه ، ومعاونيه : إنه قبيح بي أن أكون أتابكاً مع الشيخوخة ، والتقدم ؛ مع أن الملك ليس هو بالميراث ، وإنما هو لمن غلب ، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر رَحِمَهُ اللهُ صاحب الأمر ، غير أنني تركت ذلك إكراماً لأخي ، ورعاية لحقه ، فلما حصل من الاختلاف ما حصل ؛ خفت أن يخرج الملك من يدي ، ويد أولاد أخي ، فمشيت الأمر إلى آخره ^(١) . ثم أن الملك العادل ورث أبناءه من بعده ، وحدث قتال بينهم ، ورجع إلى نظام التوريث الذي كان له سلبيات خطيرة ساهمت في سقوط الدولة الأيوبية ، منها :

(١) في التأصيل الإسلامي للتاريخ ص : ٦٠ .

- إن هذا النظام قد سيطرت فيه عاطفة الأبوة ، والأقرب نسباً ، وقوة العصبية على عملية التولية بصفة عامة ، وقد أدى ذلك إلى الآتي :

☆ تقييد حق الأمة في اختيار سلطان بحصره في أسرة معينة .

☆ تقييد مبدأ الشورى بحصره في أهل عصبية ، وشوكة الأسرة الحاكمة .

☆ دفعت المفضول إلى تولي السلطنة مع وجود الأفضل ، بل وبمن افتقد بعض شروط السلطنة مع وجود المستجمعين لهذه الشروط وفقاً لما سلف ذكره .

☆ وضع الحكام موضع تهمة ، وشبهة ، كما أثار الشك - عند بعض الناس - حول مشروعية البيعة بولاية العهد ، والبيعة للسلطان .

☆ أدى إلى ظهور العداوة ، والبغضاء بين أبناء البيت الأيوبي ، وذلك ممّا أدى في النهاية إلى ضمور قوّتهم ، وزوال شوكتهم^(١) .

٥ - النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية :

إنّ سنة الله تعالى ماضية في الشعوب ، والأمم لا تتبدل ،

(١) نظام الحكم في الإسلام ص : ٣٠٧ .

ولا تتغير ، ولا تجامل ، وجعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم ، وزوال الدول الاختلاف . قال رسول الله ﷺ : فإن من كان قبلكم اختلفوا ، فهلكوا » وفي رواية : « فأهلكوا » . وعند ابن حبان : عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف » .

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقى أسباب الاختلاف المذموم ؛ لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة الأيوبية ، وهلاكها ، واندثارها ، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع في البيت الأيوبي أسبابه ، ومنها : ضعف الوازع الديني عند بعض الأمراء الأيوبيين ، والأنانية ، وحب الذات ، والتكالب على المصالح الدنيوية ، والتناحر من أجلها ، والحرص على السلطة ، والجاه ، والمنصب ، وتحكيم بعض الأمراء الأيوبيين أهواءهم في الأمور . فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات ، والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الأيوبي ، فكانت من أكبر معاول الهدم ، وأسباب الضعف ، وتلاشي الدولة . وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون ، حيث ذكر : أن من آثار الهرم في الدولة انقسامها ، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها ، كما يؤدي إلى قسمتها ، ثم اضمحلالها ^(١) .

(١) الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم ص : ١١٨ .

لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ، وسرعان ما انغمس الأيوبيون في صراعاتهم الداخلية ، فلم يحترم الأخ أخاه ، والعم بني أخيه ، واستغل الملك العادل الأيوبي الجهل ، والطيش الذي اتسم به أبناء صلاح الدين ؛ إذ إنه استخدم علاقاته القديمة ، ومكانته لتحقيق هزيمة سياسية وعسكرية لجيش الملك العزيز قبل أن يستلّ جندي واحد سيفه من غمده ؛ إذ كانت المنافسة قائمة بين الأمراء الصلاحية « أمراء صلاح الدين » والأمراء الأسدية « أمراء أسد الدين شيركوه » الذين ورثهم صلاح الدين في جيشه ، ونجح العادل في الإيقاع بين الفريقين ^(١) .

وقد وصف القاضي الفاضل الخلاف في البيت الأيوبي بقوله : أما هذا البيت ؛ فإن الآباء منه اتفقوا ، فملكوا ، وإن الأبناء منه اختلفوا ، فهلكوا ، وإذا غرب نجم ؛ فما الحيلة في تشريقه ، وإذا بدأ تخريق في ثوب فما يليه إلا تمزيقه ، وهيهات أن يسد على طريقه ، وقد قدر طروقه ! وإذا كان مع خصم على خصم فمن كان معه فمن يطيقه ^(٢) ؟ !

واستمر الصراع في الأسرة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل ؛ حيث اشتدّ النزاع بين أولاده الملك المعظم ، والملك الكامل أبناء البيت الأيوبي .

(١) في تاريخ الأيوبيين والمماليك قاسم عبده ص : ٨٢ - ٨٣ .

(٢) دور الفقهاء ص : ١٧٤ .

٦ - موالة النصارى :

من لوازم الإيمان الصحيح الولاء ، والبراء ، فكانت الدولة في عصر صلاح الدين عاملة بقول الله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] . وقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] ، وقال رسول الله ﷺ : « أوثق عرى الإيمان ، الموالة في الله ، والمعاداة في الله ، والحب في الله ، والبغض في الله ^(١) » .

أما في عصر الملك الكامل ؛ فضعف الولاء ، والبراء ، ويظهر ذلك في تسليم القدس للإمبراطور فريدريك الثاني على طبق من ذهب ، وبدون إراقة للدماء ، وقد استعظم المسلمون ذلك ، وأكبروه ، ووجدوا له من الغم ، والهم ، والتألم ما لا يمكن وصفه ، وكان الملك الكامل لديه الاستعداد للتحالف مع النصارى لقتال أخيه المعظم الذي تحالف مع الخوارزميين .

كما أن الملك الصالح نجم الدين إسماعيل الذي دخل في صلح مع الصليبيين ، وسلّم لهم أحد الحصون ، وتصدّى لذلك

(١) صحيح الجامع .

الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وابن الحاجب ، فاعتقلهما مدة ، ثم أطلقهما ، وألزمهما منازلهما .

وتحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب في مقابل تسليم القدس ، وإعادة مملكة بيت المقدس الصليبية إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن ، ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليم القدس ، وطبرية ، وعسقلان ، فضلاً عن قلعة الشقيف ، وأرنون ، وأعمالها ، وقلعة صفد ، وبلادها ، ومناصفة صيدا ، وطبرية ، وأعمالهم ، وجبل عامل ، وسائر بلاد الساحل . وأمام هذا السخاء العجيب ثار الرأي العام الإسلامي في مصر ، والشام على الصالح إسماعيل ، حتى إن حاميات بعض القلاع رفضت طاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح إسماعيل . وفي تلك الأثناء أسرع الصليبيون إلى تسلّم بيت المقدس ، وأعادوا تعمير قلعتي طبرية ، وعسقلان ، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا ، وعسقلان استعداداً للخطوة التالية ، وهنا وعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر ؛ أعطاهم جزءاً منها ، فسأل لعبهم لذلك ، واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر^(١) ، وسار الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، والملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص

(١) النجوم الزاهرة (٦ / ٣٢٢) ، و : الدولة الأيوبية دكتور
ص : ٢٣٣ .

على رأس جيوشهما في مهمّة غزو مصر^(١) ، ولكن قادة القوات الشامية رفضوا طعن إخوانهم المصريين ، فما كادوا يلتقون بجيش الملك الصالح أيوب قرب غزة ؛ حتى تخلّوا عن الصالح إسماعيل ، والمنصور إبراهيم ، وسأقت عساكر الشام إلى عسكر مصر طائعة ، ومالوا جميعاً على الفرنج ، فهزموهم ، وأسروا منهم خلقاً لا يحصون^(٢) .

وهكذا تحالف الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين ، وتنازل لهم على مدن المسلمين من أجل الحكم ، والسلطان ، وإن بعض ملوك بني أيوب أمعنوا في موالة النصارى الصليبيين ، وألقوا إليهم بالمودة ، وركنوا إليهم ، واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين ، وعملوا على إضعاف عقيدة الولاء ، والبراء في الأمة ، وأصابوها ، وفقدت أبرز مقوماتها ، وسهل بعد ذلك زوالها من الوجود .

٧ - فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري :

حاول صلاح الدين بإيمان صادق ، وذكاء متميز حمل لواء المشروع الإسلامي الحضاري ؛ الذي تزعمه نور الدين محمود زنكي ، وحرص على الفتوحات العسكرية ، والدعوية بحيث

(١) النجوم الزاهرة (١ / ٣٠٥) ، و : الدولة الأيوبية ص : ٢٣٣ .

(٢) السلوك (١ / ٣٠٥) ، و : الدولة الأيوبية ص : ٢٣٣ .

لاتطغى الأرض على الحضارة ولا الدولة على الدعوة ، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم من مبادئ الدين ، وتقيد السياسة الشرعية ، وعمل على إيجاد تيار حضاري عقدي يملأ أركان الحياة ، ومهما يكن من أمر ؛ فإن الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين لم تستوعب قانون الامتداد الحضاري ، فبعد الامتداد ، والانتصارات كان عليها أن تمتد بالدعوة ، وتطور المدارس الإصلاحية ؛ حتى تواكب احتياجات العصر العلمية ، والتربوية ، والثقافية ، والحضارية ؛ إلا أن خلفاء صلاح الدين لم يستطيعوا أن يقدموا مشروعاً حضارياً يجدد حيوية الدولة ، ويرسم أهدافها ، ويدفعها بقوة نحوها ، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة انتهت بزوال دولتهم .

لقد فشل ملوك بني أيوب بعد صلاح الدين في إيجاد تيار حضاري ، ولم يستطيعوا أن يحققوا التوازن بين الدولة ، والدعوة ، والأرض ، والعقيدة ، والسياسة ، والفكر ، وكانت هذه رساله سامية تأخر فيها الأيوبيين ، وغلبتهم الظروف ، والتحديات ، فأصبحوا أمام قانون التاريخ الحضاري الذي لا يجامل ، ولا يحابي : إما أن يتقدموا ، أو يزولوا من الوجود ، فلا سكون في تاريخ البشرية .

٨ - ضعف الحكومة المركزية :

قسم صلاح الدين دولته إلى أقاليم إدارية ، يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة ، وطابعه المميز ، مثل : مصر ، والشام ،

وشمالي العراق ، والنوبة ، والمغرب ، واليمن ، والحجاز ، وقضى أكثر سني حكمه في ميادين القتال يمارس سياسة التخطيط ، والتنفيذ ، والإشراف ، وتوجيه سياسة الدولة العليا ، ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية في الاستعداد ، والدفاع للولاة وفقاً لظروف ، وإمكانات كل إقليم ، وهو ما يُعبر عنه في مفهومنا الحديث : (اللامركزية الإدارية) ^(١) . والحقيقة : أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده على الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير دفة الحكومة المركزية .

والراجع : أنه أدرك : أن توزيع السلطات يجعل من كل سلطة رقيبة على السلطة الأخرى ، وموازية لها في ممارسة اختصاصاتها ، كما أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص أكفاء يحقق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل ، وسرعة إنجازه ^(٢) .

وقد ارتبطت الدولة الأيوبية التي بناها صلاح الدين الأيوبي بصفاته ، وسجاياه ، وشخصيته الفذة ، فحين توارت هذه الشخصية من على مسرح التاريخ في المنطقة ؛ حدث فراغ كبير أضرَّ بالجانب الإسلامي ، وعاد بالفائدة على الجانب الصليبي ؛ إذ كانت شخصيته ، ومواهبه ، وأدائه السياسي ، والعسكري هو الذي حفظ الدولة من التفكك ، ولم تكن هناك مؤسسات تضمن

(١) تاريخ الأيوبيين ، طقوش ص : ٢١٠ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٢١١ .

استمرار بقاء هذه الدولة الكبرى من ناحية .

كما أن صلاح الدين قسّم دولته ، كما يُقسّم الإرث بين أبنائه ، وإخوته ، وبني عمومته على نحو ما كان مألوفاً في تلك العصور ، وكان طبيعياً أن تعود المنطقة إلى الوراثة مرةً أخرى نتيجة المنازعات ، والتشرذم السياسي الناجم عن الخلاف بين ورثة صلاح الدين . لقد كان خليفة صلاح الدين في مصر ابنه أبو الفتوح عثمان وكان وقت وفاة أبيه مقيماً بالقاهرة ، وعنده جُلّ العساكر ، والأمراء من الأسدية ، والصلاحية ، والأكراد ^(١) ، وتولّى أخوه الأفضل نور الدين على حكم دمشق ، على حين تولّى الملك العادل الكرك ، والشوبك ، وولي الظاهر غازي حكم بلاد الشام الشمالية ، وكانت حلب عاصمته ، وتولّى بقية أجزاء الدولة غير المهمة أبناء عمومته ، ففي حمص حكم أفراد من أسرة نقي الدين عمر بن شاهنشاه ^(٢) .

وهكذا تفكّكت عُرَى الدولة الإقليمية الكبرى التي جاهدت ثلاثة أجيال في إقامتها بمنطقة العراق ، والشام ، ومصر : عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي . لقد كان تقسيم الدولة على نحوٍ كتقسيم التركات الخاصة سبباً في انهيار

(١) السلوك (١ / ١١٤) ، و : في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص : ٨٠ .

(٢) تاريخ مصر الإسلامية (٢ / ٩٦) جمال الشيال .

الوحدة السياسية للمنطقة ، وإطالة عمر الكيان الصليبي من ناحية أخرى^(١) ، فتفتت دوله صلاح الدين ، وضعفت الحكومة المركزية بعد وفاته ، وقامت الحروب بين ملوك بني أيوب بدافع التملك ، والتوسع .

٩ - ضعف النظام الاستخباراتي :

كانت مؤسسة البريد والاستخبارات في عهد صلاح الدين قد اشتهرت بالتفوق الدائم على ما كان عند الصليبيين ، واتصفت بالدقة ، والسرعة ؛ حتى إن أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فساعة إلى الصبح ، لا سيما في حصار عكا ، وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين الذين استأنهم السلطان في مناسبات مختلفة ، وتكمن أهمية هؤلاء : أنهم كانوا يعرفون لغة العدو ، ولا يشك فيهم : أنهم رجال صلاح الدين بسبب من سحتهم ، ومظهرهم الخارجي ، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب الحصول عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين ، فذات مرة أخبروا صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من كبس المعسكر الإسلامي ليلاً^(٢) ، وأخبروه عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي أنفقوا عليه ألفاً وخمسمئة ديناراً ، والذي أعدوه للهجوم على عكا ، وكذلك زودوا صلاح الدين بأخبار

(١) في تاريخ الأيوبيين والمماليك د . قاسم عبده ص : ٨٠ .

(٢) صلاح الدين الأيوبي للصَّلابي ص : ٣٨١ - ٣٨٢ .

الحملة الألمانية ، إلا أنه بعد ذلك ضعف جهاز الاستخبارات ، بل نجد : أنَّ الحملة الصليبية الخامسة تصل إلى دمياط ، ولم يعلم بها الملك العادل إلا بعد وصولها ، ولم تكن اختراقات الجهاز الاستخباراتي بعد صلاح الدين بالمستوى الذي كان عليه ، فكان ضعف الجهاز الاستخباراتي للدولة الأيوبية بعد صلاح الدين من أسباب سقوطها .

١٠ - غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي :

مع مجيء الملك الأفضل لحكم الدولة الأيوبية تغيرت بعض الوسائل الاستراتيجية التي كان يعتمد عليها صلاح الدين بعد الله تعالى في إدارة الحكم ، وحركة الجهاد ، وهي اعتماده على العلماء الربانيين ، فأبعد الملك الأفضل القاضي الفاضل ، وأقصى أمراء والده ، ومستشاريه بتأثير الوزير ضياء الدين بن الأثير أخي المؤرخ المشهور ابن الأثير على إدارة الدولة في عهد الملك الأفضل ، ولم يكن موفقاً أبداً ، بل جرَّ البلاء ، والسخط ، والغضب ، والكراهية على الملك الأفضل ، وأصبح القاضي من بعض المبعدين عن القرار السياسي ، وهو الذي قال فيه صلاح الدين : ما فتحت بلداً بسيفي ؛ ولكن بقلم القاضي الفاضل ، ولم تكن مكانة العلماء ، والفقهاء بعد صلاح الدين بالمكانة التي كانوا عليها في عهد نور الدين ، وصلاح الدين .

ولقد خسر الأيوبيون الكثير بإبعاد القاضي الفاضل ، ومن على شاكلته من دائرة القرار السياسي ، وقد قال أبو شامة عن

القاضي الفاضل : كان ذا رأي سديد ، وعقل رشيد ، ومعظماً عند السلطان صلاح الدين ، يأخذ برأيه ، ويستشير في الملمات ، والسلطان له مطيع ، وما فتح السلطان الأقاليم إلا بإقـلـيد آرائه ، وكانت كتائبه كتاب النصر^(١) .

١١ - وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه :

استطاع الملك الصالح نجم الدين أيوب أن يُدخل تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكوّن منها جيش السلطان الأيوبي ، والتي ساهمت في تقوية الجيوش ، وانعكس ذلك على الدولة ، ومن أهم الإجراءات التي اتخذها الملك الصالح نجم الدين أيوب اهتمامه الكبير بشراء المماليك ، والغلمان ، والأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية ، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة أكثر من ألف مملوكٍ تركيٍّ ، وعمل منهم جيشاً قوياً ساندته في فرض إرادته على الأقاليم ، والقضاء على حركات التمرد الداخلية .

وكان ولاء المماليك للملك الصالح نجم الدين أيوب مطلقاً ، واستطاع إعادة هبة الدولة الأيوبية من جديد ، ونجح إلى حد كبير في إعادة قوتها ، وسلطانها إلا أنه توفي أثناء الحملة

(١) كتاب الروضتين (٢ / ٢٤١) .

الصلبية السابعة ، وكان عمره عند وفاته ٤٤ سنة ، وعهد لولده المعظم تورانشاه ، وقامت شجرة الدر زوجة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ومن معها من الوزراء والأمراء بتثبيت الملك المعظم تورانشاه ؛ إلا أنه لم يكن رجل المرحلة ، وفشل في التحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية ، وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً ؛ بدأ يدبر للتخلص « من شجرة الدر » وكبار أمراء المماليك فاحتقر خصومه ، واستبد برأيه ، وأبعد الأولياء ، ولم يلجأ إلى استخدام المال ، والسياسة في تفتيت خصومه ، وضعفت الشقة بينه وبين رجاله ، وفشل في كسب ولاء قادة الجيش ، فتمّ قتله ، وزالت الدولة الأيوبية بموته .

هذه هي أهم الأسباب في زوال الدولة الأيوبية .



المبحث الثاني

سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين أيبك

أولاً : شجرة الدر :

١ - شجرة الدر أيوبية أم مملوكية ؟

إنَّ معظم المؤرخين وعلى رأسهم المقرئ صاحب : « السلوك لمعرفة دول الملوك » يعتبرون شجرة الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية في مصر ، وقد يطلق عليها اسم : دولة المماليك الأولى بإزاء : دولة المماليك الثانية التي هي دولة المماليك البحرية ، فاعتبروها أولى سلاطين المماليك كونها منهم ؛ أي : من المماليك البحرية ، جيء بها جارية مملوكة ، فصارت حظية الملك الصالح أيوب ، وإن كان من الأرجح : أنها ليست من المماليك ، وهذا ما ذهب إليه عصام شبارو في كتابه « السلاطين في المشرق العربي » : أنها مملوكة من أصل أرمني ، لا تركي ، فهي ليست مملوكة تماماً بما في كلمة مملوك من معنى ، إنها قريبة من المماليك بجهة النشأة ، وإن كان المماليك البحرية الصالحة يأتَمرون بأمرها ، ويخضعون لها ، كونها واحدة

من أهم حريم الملك الصالح أيوب ، لهذا فضلاً عن كونها والدة ولده خليل الذي مات ؛ وهو طفل صغير ^(١) .

ويعتبر ابن إياس صاحب : « بدائع الزهور » شجرة الدر آخر سلاطين بني أيوب ؛ كونها زوجة الصالح نجم الدين أيوب والد تورانشاه ، وأم ولده خليل الذي توفي في حياة أبيه ^(٢) .

٢ - سلطنة مصر :

كان للدور الذي لعبته شجرة الدر بعد وفاة زوجها نجم الدين أيوب ، وتصرفها حيال الصليبيين ، وأسر الملك لويس التاسع أبلغ الأثر لدى المماليك بعدما شاهدوا ما تتصف به من حماسٍ سياسيٍّ ، وحنكة ، ومهارة في تصريف أمور الدولة في ذلك الوقت العصيب الذي كادت أخطار الحرب ، والاستيلاء على دمياط أن تفتّ في عضد أيّ حاكم آخر ^(٣) . لقد عملت شجرة الدرّ على تحرير دمياط من الصليبيين لمّا أخفت موت نجم الدين أيوب على الجيش المصري ؛ الذي كان يقاتل الغزاة ؛ إذ لو أعلنت نبأ وفاة الملك ، والجيوش المسلمة ، والصليبية في التحام ، وعراك ؛ لأفلت الأمر من أيدي القادة المماليك ، وبعث فيهم نبأ وفاة الملك

(١) السلاطين في المشرق العربي ص : ٩ .

(٢) بدائع الزهور (١ / ٨٩) .

(٣) شجرة الدرّ القاهرة الملوك ، نور الدين خليل ص : ٧٥ .

شيئاً من الضعف ، والتخاذل ، والتواكل ، الأمر الذي لم يحدث - بفضل الله - ثم بسبب حنكة شجرة الدر ، وحكمتها ، وهي التي تَمَّت الوفاة بحضرتها ، فكتمت هذا الأمر ، وأمرت العبيد أن يحمل الملك سرّاً في محفّة دون علمهم بموت الملك ، ثم أن يوضع في قارب حمله إلى قلعة الروضة ، ريثما تنجلي المعركة عن نصر قريب ، ولم يُفْتْ شجرة الدرّ أن تعهد إلى الأمير فخر الدين بقيادة الجيش ، وأن تبعث فيه روح المشابرة ، والعزيمة ، والجهاد ، ومواصلة الحرب لاسترجاع دميّاط من أيدي الصليبيين . لهذا من جهة .

ومن جهة ثانية ، راحت شجرة الدر ، وبالاتفاق مع بعض الأعوان من الخدم ، والأطباء تعمل على إدخال كبار الموظفين ، والأطباء إلى قاعة الملك ، بحجّة أن السلطان حيٌّ يرزق ، بل راحت توقّع الأوامر ، والمراسم بتوقيع السلطان ، وهي التي حذقت تقليد توقيعه ، ومحاكاة خطه ، وإن قال بعضهم : إن الذي حذق تقليد خطّ الملك ، وتوقيعه هو خادم لشجرة الدرّ ، واسمه : سهيل ، كتم الأمر ، وخضع له خدمة لمولاته السلطنة ^(١) .

بهذا التدبير الحكيم ، وذلك الأسلوب المميّز ، والحنكة الفريدة استطاعت شجرة الدرّ أن تحفظ للجيش وحدته ، وتماسكه ، وأن تحول دون تصدّع صفوفه ، وانفراط عقده ، كما استطاعت أن تبعث في الجنود روح مواصلة الجهاد ، ومتابعة

(١) موسوعة تاريخ مصر (٢ / ٦٧١) لأحمد حسين .

الكفاح دونما ضعف ، أو خور ، أو ميل إلى الخضوع^(١) ، والاستسلام . كان الرصيد الجهادي لشجرة الدر مؤهلاً لها للترئع على كرسي السلطة بعد مقتل تورانشاه .

ويتبارى المؤرخون في سرد الأسباب ، والدوافع التي جعلت المماليك يرضون بها سلطنة عليهم ، فهل يرجع ذلك إلى العلاقة التي تربطها بزوجها الراحل نجم الدين أيوب وابنها خليل ؟ أم لزعامتها العسكرية ، والسياسية وقت الأزمات ؟ أم لحاجة المماليك إلى وجود صلة بين الأيوبيين ، وبين وجودهم بصورة قانونية ؟ لقد رفعوها لتتربع على عرش مصر ، وأطلقوا عليها لقب : « أم خليل »^(٢) .

وهكذا أصبحت هذه الجارية أمة السلطان صالح نجم الدين أيوب ، والتي تزوّجها بعدما أعتقها ملكة المسلمين في مصر ، وسلطنة المماليك البحرية ، يُخطب لها على المنابر ، ويدعون لها من بعد الدعاء لخليفة المسلمين العباسي^(٣) .

٣ - الدعاء لها :

كان مما يدعى لشجرة الدرّ قول المصلين اللهم احفظ الجهة الصلاحية ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا ، والدين أم خليل أمير

(١) شجرة الدرّ ، د . يحيى الشامي ص : ٥٢ .

(٢) شجرة الدرّ ، نور الدين خليل ص : ٧٥ .

(٣) شجرة الدرّ . يحيى شامي ص : ٥٤ .

المؤمنين ، المستعصمة ، صاحبة السلطان الملك الصالح ^(١) ! أو قول الخطباء الذين كانوا يخطبون باسمها على منابر مصر ، وأعمالها ، فيقولون من بعد الدعاء لأمير المؤمنين الخليفة العباسي : اللهم احفظ الجهة الصلاحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا ، والدين ذات الحجاب الجليل ، والستر الجميل ، والدة المرحوم خليل ! إذ إن خليلاً هذا هو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كان توفي في حياة والده صغيراً ^(٢) ، وفي رواية : إن الخطبة التي كان يخطب بها لشجرة الدر على المنابر لما بويعت بالحكم من بعد الدعاء للخليفة العباسي هي التالية : ربنا احفظ ملكة المسلمين عصمة الدنيا ، والدين ، الجهة الصلاحية ، أم خليل المستعصمة ، صاحبة السلطان الملك الصالح ^(٣) .

٤ - نقش توقيعها :

وأيّاً يكن ؛ فإن شجرة الدر هذه هي التي راح الناس يدعون لها ، ويخطبون نقشت اسمها على النقود المتداولة في ذلك الزمان ، وكانت صيغة النقش هي التالية : المستعصمة الصلاحية ، ملكة المسلمين ، والدة المنصور خليل ^(٤) .

(١) النجوم الزاهرة (٦ / ٣٧٤) .

(٢) بدائع الزهور (١ / ٢٨٦) .

(٣) موسوعة تاريخ مصر (٢ / ٦٧١) .

(٤) المصدر نفسه (٢ / ٦٧١) .

٥ - الاحتفال بتنصيبها :

ما إن تمَّ إعلان خبر تولية شجرة الدرّ ملكة على المصريين ؛ حتى راح كبار القادة ، والأمراء يفدون على الملكية ، وقد تربعت على دست الحكم في قاعة الإيوان الذي كان بناه الملك الصالح ؛ حيث النقوش الذهبية ، والأعمدة الشاهقة المغطاة بالأنوس ، والرخام ، وحيث الفرش ، والزرابي ، والطنافس ، والأرائك ، ولقد ضاقت باحة القصر الخارجية بعامة الناس الذين أذهلهم الإعلان عن شجرة الدرّ : أنها ملكة المصريين ما بين مصدّق للخبر ، أو مكذبٍ له ، فكنت ترى مواكب الصناع ، والتجار ، والفلاحين ، والجنود ، والراقصين ، والمغنيين ، والخدم ، والحشم^(١) .

على أيّة حال قبضت « شجرة الدر » على زمام الحكم بيد من حديد ، ووجهت اهتمامها للتخلّص من بقايا الحملة الصليبية السابعة ، ثم أخذت تتقرب إلى العامة ، والخاصّة من رعاياها^(٢) .

٦ - رفض الخليفة والعلماء وعامة الناس لتولي

شجرة الدرّ السلطنة :

تفجّرت ثورات من الغضب في العالم الإسلامي ، وحاولت

(١) شجرة الدرّ د . يحيى الشامي ص : ٥٦ .

(٢) السلطان المظفر سيف الدين قطز ص : ٧٦ .

شجرة الدر أن تُجَمِّل الصورة قدر استطاعتها ، وتقربت إلى العلماء ، والعامّة ، إلا أن ذلك ذهب في أدراج الرياح ، وقامت المظاهرات العارمة على المستوى الشعبي في القاهرة في كل أنحائها ، وقام العلماء ، والخطباء يندّدون بذلك على منابرهم ، وفي دروسهم ، وفي المحافل العامة ، والخاصة ، وكان من أشد العلماء غضباً ، وإنكاراً الشيخ الجليل « العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ » ^(١) ، وأرسل الخليفة العباسي من بغداد إلى الأمراء الذين كانوا بمصر يقول لهم : أعلمونا إن كان ما بقي في مصر عندكم من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها ، أما سمعتم في الحديث عن الرسول ﷺ : أنه قال : لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة ^(٢) .

ومما قاله الشعراء في إنكارهم على تولي شجرة الدر السلطنة :

النساء ناقصات عقل ودين ما رأين لهنّ رأياً سنياً
ولأجل الكمال لم يجعل الله تعالى من النساء نبياً ^(٣)

٧ - شجرة الدر تخلع نفسها :

لقد اضطربت الأمور على المستوى الشعبي العام ، وعارض

(١) قصة التتار ص : ٢٢٩ .

(٢) بدائع الزهور (١ / ٢٨٧) .

(٣) المصدر نفسه (١ / ٢٨٧) .

الفقهاء ، والمتعلمون جلوس « شجرة الدر » على عرش السلطنة ، وأدركت السلطنة ، وزعماء المماليك : أنهم يسبحون ضدّ تيارٍ عارم لا بدّ وأن يغرقهم في موجاته ^(١) ، وبعد ثمانين يوماً تنازلت « شجرة الدر » في الحكم لواحد اختارته بعناية من أمراء المماليك ، هو عز الدين أيبك التركماني الصالحي ، الذي اشتهر بعزوفه عن الصراع حتّى ظنّ الجميع : أنه ضعيف ، وقبل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجرة الدرّ وجلوسه على عرش السلطنة ، بل إن بعضهم قال : متى أردنا صرفه ؛ أمكننا ذلك لعدم شوكته ^(٢) ، وبالفعل تزوجت شجرة الدرّ من عز الدين أيبك ، ثم تنازلت له عن الحكم ، وتمّ هذا التنازل في أواخر جمادى الثانية من السنة نفسها سنة ٦٤٨ هـ . وهكذا في غصون سنة واحدة فقط جلس على كرسيّ الحكم في مصر أربعة ملوك ، وهم : الملك الصالح أيوب رَحِمَهُ اللهُ ثُمَّ مات ، فتولّى توران شاه ابنه ، ثم قتل ، فتولّى شجرة الدر ، ثم تنازلت ، فتولّى عز الدين أيبك التركماني الصالحي ^(٣) .

٨ - حكم تولّى المرأة للولاية العامة :

اتفق فقهاء الإسلام على اختلاف مذاهبهم - على عدم جواز

(١) السلطان المظفر سيف الدين قطز ، ص : ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٧٧ .

(٣) قصة التتار ، ص : ٣٣١ .

المرأة لمنصب الإمامة العظمى ، وأنَّ الذكورة شرط أساسي فيمن يتولَّى هذا المنصب ^(١) ؛ حتى الذين ينادون بحقوق المرأة السياسية ، ويؤيدون تدخلها في أمور السياسة ، أكثرهم لا يجيزون توليها لهذا المنصب ، ويقولون بقصر الرئاسة ، أو رئاسة الوزارة على الرجل دون المرأة ^(٢) . ولا شك : أن أصحاب هذا الرأي يرون رئاسة الوزارة في النظام البرلماني مثل منصب الرئاسة ، أو الإمامة الكبرى في النظام الإسلامي ^(٣) ، واستدلوا على صحة هذا القول بالكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والمعقول .

أ - الكتاب :

- قوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] . وجه الاستدلال : جعل الله تعالى في هذه الآية القوامة للرجال على النساء ، وهم قَوَّامُونَ عليهم ، والقوامة على الأمر ، أو المال ، أو ولاية الأمر ، والقيِّم : من يقوم بالأمر ، والقَوَّام : صيغة مبالغة ، أي : الحسن القيام بالأمر ^(٤) ، فلما جعل الله تعالى القوامة للرجل دون المرأة ؛ فهو يعني حصر القيام بانتظام الأمور ، وتدبير

(١) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي ص : ٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٨٤ .

(٤) تفسير الطبري (٨ / ٢٩٠) .

الشؤون ، وولاية الأمر في الرجل ، وهذه القوامة عامة تشمل ولاية الأمور العامة ، والشؤون السياسية ، بما فيها الإمارة ، والوزارة ، والخلافة ، ونحوها ، كما تشمل الشؤون الأسرية ، ورعاية أهل البيت ، فالرجال قوامون على النساء : أي : القائمون بانتظام أمورهن ، وكفالة نفقتهن ، ومسؤولون عن الذبّ عنهن ، وحفاظهن ، وأمرهم نافذ عليهنّ ، فهم الحكام ، والأمراء ، وعليهنّ طاعتهم فيما يأمرهم به ، وينهون عنه ما لم يكن في معصية الله ^(١) .

وممّا يدلُّ على أن القرآن لم يقيد قوامية الرجال على النساء بالبيوت فقط ، إنه لم يأت بكلمة (في البيوت) في الآية ؛ حتى يحصر الحكم في دائرة الحياة العائلية ^(٢) ، والله لم يعطها حقّ القوامة على بيتها ، وإنما جعله للرجال ، فكيف تجعل على مجموعة من ملايين البيوت ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ووجه الاستدلال : أن الله تعالى في هذه الآية نفى ما كان في الجاهلية من عدم المبالاة بالمرأة ، وعدم اعتبار حقوقها ، وشخصيتها ، فبين الله تعالى هنا : أن النساء

(١) ولاية في المرأة في الفقه الإسلامي ص : ٨٥ .

(٢) تدوين الدستور الإسلامي ص : ٧١ .

(٣) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي ص : ٩١ .

كالرجال في الإنسانية ، ولهنَّ حق حسن المعاشرة كالرجال ، ويجب لهنَّ حقٌّ عليهم تجاه الواجب ، ولكن المراد بالمماثلة مماثلة الواجب بالواجب في كون ما يردُّده البعض في العصر الحاضر من كون مساواة المرأة للرجل في جميع الأمور ؛ لأنَّ الله تعالى قال : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ وهذه الدرجة هي القوامة التي جاء بيانها في الآية السابقة : الإمرة ، والطاعة ^(١) .

- قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] . وجه الاستدلال : إنَّ الله تعالى يبين في هذه الآية الكريمة صفات الاستحقاق للملك ، وذلك : أن بني إسرائيل لما طغوا في استحقاق طالوت للملك ، قالوا : إنه لا يستحقُّ ؛ لأنه ليس من أهل بيت الملك ، ولأنه فقير ليس عنده مال ، فردَّ الله عليهم بأنه استحق للملك لأمرين : لكون زيادته في العلم ، وقوته في الجسم ، فهذا دليل على أن قيادة الأمة تسند إلى من لديه علم واسع ، وهو قويُّ جسيم حتى يتحمل مشاق هذا المنصب ^(٢) ، ومن المعلوم : أن المرأة ضعيفة الجسم ، والبنية ، لا تستطيع تحمُّل المشاق مثل الرجل ، وهذا أمر فطري ، فلهذا لا يسند إليها قيادة البلد ^(٣) .

(١) جامع البيان (٢ / ٤٥٤) .

(٢) تفسير الرازي (٦ / ١٧٤) ، و : مدارك التنزيل (١ / ١٦٣) .

(٣) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي ص : ٩٣ .

ب - السنة :

قال ﷺ : « لن يُفلح قوم وَلَّوْا أَمْرَهُم امرأَةً » ^(١) .

إن الذكورة شرط في أهلية الولاية العامة بالاتفاق ، وأجمعت الأمة في العصور الأولى من الصحابة والتابعين ، وتابعيهم ، والأئمة ، والفقهاء ، والعلماء ، والمحدثين ، والمفسرين على اختلاف مذاهبهم ، أجمعوا على أنه لا تصلح المرأة للأمامة الكبرى ، ولا تجوز توليتها رئاسة المملكة ، كذلك رئاسة الوزارة في النظام البرلماني ؛ لأن لها صلاحيات مثل صلاحيات الإمام . وعلى هذا دلَّت الأدلة الصحيحة من الكتاب ، والسنة ، وهي ظاهرة في دلالتها ، ويقتضيه العقل ، والقياس ، والحكمة في خلقه المرأة ، وتكوينها النفسي ، والجسدي ، والاعتراضات الموجهة إلى حديث صحيح البخاري مردودة ، ليس فيها شيء من القوة ؛ إذ تلقته الأمة بالقبول ، والمعتضون لا يريدون إلا التشكيك في الحديث النبوي ، وأما القول المعارض الذي حدث متأخراً ؛ فليس له دليل صحيح من الكتاب ، والسنة ، بل هي شبهات من اجتهاد بعض أفراد الأمة ، أو أفعال من لا ينظر إلى عمله ، ولا يحتجُّ بفعله ^(٢) .

(١) البخاري ، كتاب المغازي رقم ٤٤٢٥ .

(٢) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي ص : ١٦١ .

ثانياً : سلطنة عز الدين أيبك :

تولّى عرش مصر السلطان أيبك التركماني ، وتلقّب باللقب السلطاني « الملك المعز » ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سنّاً ، أو أقدمهم خدمة ، أو أقواهم مكانةً ، ونفوذاً ؛ إذ يوجد من هم أكبر ، وأقدم ، وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي ، والظاهر بيبرس ، وهذه الحالة الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابه « النجوم الزاهرة » يتهم أيبك بضعف النفوذ ، والشوكة ، وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاؤوا^(١) ، غير : أنّ الحوادث دلّت على أن أيبك رجلٌ يمتاز بصفات السياسة ، والحزم ، والشجاعة ، ولم يكن ضعيف الشخصية ، كما يصوره بعض المؤرخين . ويبدو : أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه : « النجوم الزاهرة » إذ أنه عاد ، واستدرك ذلك في كتابه الآخر : « المنهل الصافي » فمدح أيبك فيه ، ووصفه بالدَيّانة ، والصيانة ، والعقل ، والسياسة ، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطرٍ محقق ، وإذا تناولنا المشاكل ، والمصاعب التي واجهت السلطان أيبك ؛ نجد : أنها تتمثل في تهديدات الأيوبيين ، والصليبيين في الخارج ، وفي ثورات الأعراب في الداخل ، ثم خطر زملائه

(١) قيام دولة المماليك الأولى للعبادي ص : ١٢٤ .

المماليك في داخل البلاد ، وخارجها ^(١) .

١ - الخطر الأيوبي ، والصليبي :

رفض أمراء بني أيوب الاعتراف بالنظام الجديد في مصر ، وانسلخت عنها : دمشق ، والكرك ، والشوبك ، والصبية وغيرها من ممتلكاتها التابعة لها في الشام ، وأصبح في الشرق الأوسط الإسلامي قوتان متنازعتان : ولايات الشام ، ويهيمن عليها الأيوبيون . ومصر ، ويحكمها المماليك . وقد اعتبر الأيوبيون : أنهم أصحاب السلطة الشرعية ، وأن المماليك دخلاء عليهم ، وأنه لا بدّ من اتخاذ إجراء حاسم لإعادة المياه إلى مجاريها ^(٢) ، وشنّوا حملة إعلامية مركزة على المماليك ، وقالوا بأنهم هم الذين سمحوا للملك الفرنسي بالخروج من مصر حياً طمعاً في الفدية التي أعطاهم لهم ، وتلك التي تعهّد بدفعها ، وأنه لولا جشعهم ؛ لما أفلت لويس من قبضة المسلمين ^(٣) ، ولمّا توجه إلى الإمارات اللاتينية في الشام ؛ عمل على بث الخلاف ، وإثارة الفتن ، والقلق في الشرق الإسلامي .

وأما المماليك البحرية ؛ فقد وجدوا : أنهم أصحاب الفضل

(١) المصدر نفسه ص : ١٢٤ .

(٢) العدوان الصليبي على بلاد الشام ، د . جوزيف ص : ١٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ص : ١٤٥ .

الأول في إحراز النصر على لويس ، والتنكيل به ، وبقوّاته على ضفاف النيل ، وأنه لولا اجتهادهم في المنصورة ، وفارسكور ؛ ما تمّ النصر للمسلمين ^(١) . حتى وصفهم ابن واصل بأنهم كانوا داوئية الإسلام ^(٢) ، ودافعوا عن اتهام الأيوبيين لهم بإخلاء لويس طمعاً في ماله ، بأنهم كانوا يخشون إن قتلوه ، أو أبقوه في الأسر أن تثور ثائرة العالم المسيحي ، ويقوم بحملة صليبية جامعة ضدّ المسلمين ، قد لا يستطيعون دفعها ^(٣) ، خاصة وأن لويس لم يكن محبوباً في فرنسا فحسب ، وإنما في أمم الغرب الأوروبي ، والشرق اللاتيني أيضاً ، ثم هم لم ينسوا بعد ما اقترفه « تورانشاه » ابن مولاهم الصالح أيوب في حقهم ، وفي زوجة أبيه شجرة الدر من إساءات ، كان من الضروري وضع حدّ لها قبل أن يفلت الزمام من أيديهم ، ويبطش ^(٤) بهم ، وأنهم بتخلصهم منه إنما انقذوا مصر من مفاسده ، ومبازله ، ولذا فهم يرون : أنهم أحقّ بالملك من غيرهم ^(٥) .

(١) العدوان الصليبي على بلاد الشام ص : ١٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ص : ١٤٦ .

(٤) المصدر نفسه ص : ١٤٦ .

(٥) المصدر نفسه ص : ١٤٦ .

أ - لويس التاسع واستغلال فرصة النزاع بين المسلمين :

ففي هذا الوقت الذي كان فيه الشرق الإسلامي منقسماً على نفسه كان الملك الفرنسي في عكا يسعى لتأليف حملة جديدة تهدف إلى امتلاك البيت المقدس . وحرّئ بالذكر في هذا المجال : أن المسيحيين في المعازل اللاتينية في سورية ، وعلى رأسهم لويس كانوا يدركون حقيقة الحال في مصر ، والشام ، وكانوا ملمين إماماً تاماً بأحوال العالم الإسلامي المضطربة إبان فترة الانتقال هذه ؛ إذ سجل لويس في رسالته إلى شعبه : أن هذا الشقاق قد أنعش آماله ^(١) ، كما وجد الفرصة مواتية لتعويض ما خسره في مصر ^(٢) .

ومما يدلنا على اهتمام الغرب المسيحي بما كان يجري في الشرق الإسلامي من أحداث وقتذاك : أن المؤرخين الغربيين المعاصرين لهذه الفترة أمثال : جوائيل ، وروتان ، ووليم دي ناجي ، ووليم دي شارتر ، ومثي الباريزي ، وغيرهم قد تبّعوا مراحل الخلاف بين مصر ، والشام ، وسجلوا الكثير من ظروف الحال بينهما مما لا تقل قيمته عما خلّفته لنا المصادر الإسلامية في

(١) المصدر نفسه ص : ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٤٦ .

هذا الشأن ، وهي فضلاً عن ذلك تعطينا فكرة واضحة عن هذا النزاع من وجهة النظر المسيحية ، وعن موقف لويس منه ^(١) . من هنا يتضح : أنَّ مهمة الملك لويس التاسع في هذه الفترة بالذات التي قام فيها الخلاف بين بني أيوب في الشام ، والمماليك في مصر هي استغلال الفرصة ، وترقُب الأمور عن كثب ، واتخاذ خطة السياسة والدهاء ، عساه أن يعوّض من وراء ذلك ما فاتته في حملته الفاشلة على الدّيار المصرية ^(٢) .

ب - تردّد السفارات بين ملوك مصر والشام ولويس التاسع :

وهكذا تردّدت الرسل ، وتعدّدت السفارات بين كلّ من أمراء مصر ، والشام ، وبين الملك الفرنسي في عكا ، وفي غيرها من بلاد الشام المحتلة وكلّ منهما يمتّني بالوعود المغرية طمعاً في كسبه إلى جانبه ، ولكنه اتّخذ سياسة الحرص ، والحذر ، متوخياً في ذلك ماتمليه عليه المصلحة المسيحية قبل أن يتّخذ قراراً حاسماً ، فقد كان بوسعه الانضمام إلى أحد الفريقين ، أو الوقوف موقف الحياد ، أو أن يستمر على سياسة متأرجحة أملاً في استنزاف قوى الفريقين إلى أقصى حدّ ممكن ^(٣) .

(١) العدوان الصليبي على بلاد الشام ص : ١٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ص : ١٤٨ .

على أية حال لم يكد لويس يستقرُّ في عكا ؛ حتى أرسل إليه الناصر يوسف صاحب دمشق ، وحلب مبعوثين من قبله يسألانه أن يقف إلى جانب مولا هم في قتاله ضدَّ المماليك البحرية الذين قتلوا قريبه السلطان المعظم تورانشاه ، وتعهد له الناصر إذا تحالف معه بإعادة بيت المقدس التي كانت تحت إمرته آنذاك إلى المسيحيين ^(١) .

كان السلطان عز الدين أيك يراقب الأحداث عن كثب ، وقرَّر مواجهة الخطر الأيوبي بالطرق السلمية أولاً ، وحتى يمتص نقمة الأيوبيين اختار بالاتفاق مع كبار أمراء المماليك صبيّاً صغيراً في العاشرة من عمره من بني أيوب ، هو الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل محمد وأقامه سلطاناً ؛ ليكون شريكاً له في السلطة ، فكانت المناشير ، والتواقيع ، والمراسيم تخرج عنهما ، ويخطب باسميهما على منابر مصر ، وأعمالها ، وضربت لهما السكة على الدنانير ، والدراهم ^(٢) .

ويبدو أن أيك علم بأنباء المفاوضات بين الملك الناصر ، ولويس التاسع ، وخشي وقوع تقارب أيوبي صليبي ، فأرسل إنذاراً إلى الملك لويس التاسع بأنه سوف يُقدم على قتل الأسرى

(١) المصدر نفسه ص : ١٤٩ .

(٢) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ص : ٣٩٦ .

الصلبيين الذين مازالوا في مصر منذ أيام الحملة الصليبية السابعة على دمياط ، وهم بانتظار دفع الفدية المقررة لإطلاق سراحهم ؛ إن قام بأي عملٍ عدائي ضده ، وأبدى في الوقت نفسه استعداداه لتعديل معاهدة دمياط ، والتنازل له عن نصف الفدية المقررة مقابل تحالفه معه ضد الناصر يوسف ، غير أن الملك الفرنسي لم يشأ أن يلتزم بشيءٍ نحو أيٍّ من الطرفين ؛ وإن كان يؤثر التحالف مع دمشق لما لها من أهمية عسكرية ، وسياسية ، لكن كان لزاماً عليه أن يفكر في أسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر ^(١) .

ولما يؤس الناصر يوسف من استقطاب الملك لويس التاسع ؛ زحف بجيوشه نحو مصر ، ونسي زعماء البحرية خلافتهم الداخلية ، وتكتلوا وراء أيبك لصدّ الزحف الأيوبي الذي هدّد مستقبلهم جميعاً ، وخرج أيبك من القاهرة على رأس الجيش المملوكي للتصدّي للتقدم الأيوبي ، لكنه خشي من أن يقوم الصليبيون بمهاجمة دمياط مرة أخرى مستغلين خلوه مصر من المدافعين عنها ، فأمر بهدم ثغرها ؛ حتى خرب كلّها ، ولم يبق من المدينة سوى الجامع ، وأكواخ من القش على شاطئ النيل يسكنها الصيادون ، وضعفاء الناس ، وسمّوها : « المنشية » ^(٢) .

(١) مذكرات جوانفيل ص : ٢٠٠ - ٢٠٨ .

(٢) السلوك (١ / ٤٦٦) ، و : تاريخ الأيوبيين ص : ٣٩٨ .

٢ - معركة بين المماليك والأيوبيين :

والتقى الجيشان الأيوبي والمملوكي في العاشر من ذي القعدة ٦٤٨ هـ / الثالث من شباط ١٢٥١ م عند العباسية بين مدينتي بليس ، والصالحية ، انتصر فيها الناصر يوسف ، في بداية المعركة ، على الرغم من استبسال المماليك ، غير أنه حدث : أن فرقة من جيش الناصر يوسف ، وهم المماليك العزيزية تخلّت عن مواقعها في غمرة القتال ، وانحازت بدافع العصبية المملوكية إلى الجيش المملوكي^(١) ، ولما لم يكن الناصر يوسف مشهوراً بالشجاعة ، لم يلبث أن تراجع ، ولاذ بالفرار عائداً إلى بلاد الشام ، في حين عاد المماليك ظافرين ، ومعهم الأسرى إلى القاهرة^(٢) .

كان لهذه الموقعة أثرها ، وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشئة ، فقد استثمر أليك انتصاره هذا ، فأرسل بعد شهر جيشاً بقيادة فارس الدين أقطاي ، استولى على غزّة^(٣) ، ثم قرر الزحف نحو بلاد الشام للسيطرة عليها ، ولكي يضمن النجاح لمهمته حاول استقطاب لويس التاسع ، ووعده

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص : ٣٩٨ .

(٢) تاريخ الأيوبيين ، طقوش ص : ٣٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٣٩٨ .

بإعطائه بيت المقدس فور استيلائه عليه من الناصر يوسف ^(١) .

ومن جهته رأى الناصر يوسف نفسه مضطراً للاعتماد على حليف قوي يضمن له الصمود ، واستمرارية الصراع مع المماليك ، فأرسل سفارة إلى عكا يعرض على لويس التاسع التنازل له عن بيت المقدس ، مقابل الحصول على مساعدته ^(٢) .

٣ - تحالف مملوكي - صليبي :

استغل لويس التاسع هذا الصراع الإسلامي لمصلحة الصليبيين ، ونجح في الضغط على أيبك ، فأطلق سراح الأسرى الصليبيين ، ثم عقد الطرفان معاهدة في ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م بهدف مناوأة الناصر يوسف ، جاء فيها :

- وافق أيبك على إطلاق سراح بقية الأسرى الصليبيين .

- إعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقي عليه من الفدية .

- وعد أيبك الملك الفرنسي بأن يعيد للصليبيين كل مملكة بيت المقدس التي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الأردن ^(٣) .

(١) المصدر نفسه ص : ٣٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٣٩٩ .

غير أن التحالف المملوكي - الصليبي لم يؤدّ إلى شيء من النتائج ؛ إذ بعد توقيع المعاهدة اتفق كلٌّ من أيك ، ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من بلاد الشام ، وكان من المتفق عليه أن يستولي لويس التاسع على يافا ، في حين يستولي أيك على غزة ، ثم يتمّ الاتصال بينهما ، ويقوم الجيشان بعد ذلك بهجوم مشترك على الإمارات الأيوبية ^(١) . وتنفيذاً لهذه الخطة خرج لويس التاسع على رأس ألف وخمسمئة مقاتل إلى يافا ، واستولى عليها دون مقاومة ، وكانت تحت الحكم الأيوبي ^(٢) ، بينما تقدّم الجيش المملوكي بقيادة فارس الدين أقطاي نحو غزة ، وعسكر في الصالحية .

ويبدو : أن الناصر يوسف علم بأنباء هذا التحالف ، وما أعدّاه من خطط لطرد الأيوبيين من بلاد الشام ، فتحرك على وجه السرعة ، ليحول دون التقاء الحليفين ، فأرسل قوة عسكرية من أربعة آلاف مقاتل عسكرت على تلّ العجول قرب غزة ، وبعد أن سيطرت على هذه المدينة ؛ ارتدت إلى يافا لاستعادتها من يد لويس التاسع ^(٣) . وبفعل سيطرة الأيوبيين على غزة ظلّ المماليك في الصالحية ، وظهرت بين الطرفين بوادر احتكاك ، واستمرّ كلٌّ

(١) المصدر نفسه ص : ٣٩٩ .

(٢) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص : ٣٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٣٩٩ .

منهما يتحفز بالآخر ؛ حتى أضحت المواجهة المكشوفة وشيكة الوقوع ، لكن الصلح تمّ بين الطرفين في أوائل ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م ، فما الذي تغيّر على الساحة السياسية ^(١) ؟

٤ - الخليفة العباسي وسعيه في الصلح :

الواقع : أنه لم يقدر للعداء بين الأيوبيين ، والمماليك أن يستمرّ في هذه الآونة ، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدّد المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى وتطلب منهم أن يتحدوا ، وهو ظهور المغول الذين اكتسحوا العراق ، ووصلت طلائعهم قرب بغداد ، ولم يبق من قوّة في العالم الإسلامي يمكن أن تدعم الخليفة سوى الشام ، ومصر ، فأعاد الخليفة تسيير رسوله نجم الدين البادرائي لإعادة الصلح ، وتثبته بين الناصر يوسف ، والمعز أيبك ^(٢) ، وتمكن رسول الخليفة من عقد صلح بينهما ، تقرّر فيه :

- اعتراف الناصر يوسف بسلطة أيبك ، وبسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن ؛ على أن تدخل مدن غزة ، وبيت المقدس ، ونابلس ، والساحل الفلسطيني كلّها في حوزته .
- اعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام .

(١) المصدر نفسه ص : ٣٩٩ .

(٢) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١ / ٤٠٠) .

والواضح : أن موجة الرعب التي أثارها المغول أثناء زحفهم من جوف آسيا باتجاه العالم الإسلامي ، وأخبار وحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبان بسهولة لدعوة الخليفة ، وكان المعز أيبك قد استغلَّ انتصاره على الناصر يوسف ، وازدياد خطر المغول ، وتهديدهم لبلاد الشام ، ومصر ، فتخلص من شريكه في الحكم ، وهو الأشرف موسى ، فحذف اسمه من الخطبة ، وقبض عليه ، وسجنه في قلعة الجبل ، وذلك في عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م ، واستقلَّ بالسلطنة ^(١) .

ومهما يكن من شيء فقد اتضح للملك الفرنسي ، واللاتيني : أنه بوسع المسلمين في مصر ، والشام إذا اتحدت جهودهم ، واتفقت كلمتهم أن يدفعوا عنهم خطر الجماعات الصليبية ، وأن يعملوا على مضايقتها بشتى الوسائل ، وكان الصلح التي تمَّ بين الناصر ، والمعز أيبك في صفر ٦٥١ هـ / أبريل ١٢٥٣ م بمثابة ضربة وجهت إلى قلب القوى الصليبية ، وإلى لويس التاسع نفسه ؛ إذ إنه أتاح الفرصة للناصر يوسف بعد أن فرغ من جميع ما يشغل باله لتلقيين الفرنج درساً قاسياً ^(٢) .

وكان من الطبيعي أن يبدأ الصدام بين قوات كلٍّ من الناصر

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر والشام ص : ٤٠٠ .

(٢) العدوان الصليبي على بلاد الشام ص : ١٩٢ .

يوسف ولويس التاسع ، بعد أن كشف الأخير عن نياته ، واتخذ من أمراء مصر حلفاء له ضدَّ خصومهم في الشام ، وساعد على ذلك أيضاً : أن قوات صاحب حلب كانت ترابط قبالة غزة على مقربة من المعسكر الصليبي يافا ، ومع أن هذا الصدام لم يكن فيه معركة حاسمة ، إلا أنه كان مقدمة ، أو بداية لسلسلة من الهجمات الشديدة التي ستمكيتها القوات الناصرية للصليبيين ، وولاياتهم بعد إقرار الصلح بينها ، وبين مصر ^(١) .

لقد فشل لويس التاسع في الاستفادة من الانشقاق الذي حدث بين الشام ، ومصر إلا أنه اضطر أخيراً العودة إلى فرنسا ، فغادر فلسطين في ربيع الأول سنة ٦٥٢ هـ / ٢٤ نيسان ١٢٥٤ م مجروحاً في كرامته ، وعزته ، وكبريائه بعد هزيمته في مصر ، وكان ذلك إيذاناً باضمحلال الروح الفرنجية العسكرية ، وموتها فيما بعد في وقت كانت تكابد فيه طور التزع الأخير ^(٢) .

٥ - تمرد القبائل العربية ضدَّ المماليك في مصر :

ومن المشاكل التي اعترضت السلطان أيبك هي ثورة بعض القبائل العربية ، أو ما يسمى بالعربان في مصر سنة ١٢٥٣ م . فمن المعروف : أن القبائل العربية استوطنت مصر بعد الفتح

(١) المصدر نفسه ص : ٢٠٠ .

(٢) معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج ، ص : ٧٨ .

الإسلامي ، وتأثرت بالبيئة المصرية الزراعية ، وأخذت تتحوّل تدريجياً إلى شعب زراعي مستقر ، ولا سيما في أقاليم الصعيد ، والشرقية ، وأطلق عليهم اسم العرب المزارعة ، وكان هؤلاء الأعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القرى القديمة الأهلة بالفلاحين من أهالي البلاد ، غير أنه يلاحظ : أن هؤلاء الأعراب كانوا يتمتعون بمركز اجتماعي أعلى مرتبةً من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدّونها للدولة في وقت الحرب ، ولا سيما إبان الحروب الصليبية ، وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القرى ، والأرياف . كذلك مساهمتهم في الإنتاج الزراعي ، ودفع الخراج .

وكان تعسّف أمراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية ، واحتكارها ، والتلاعب في أسعارها أحياناً من الأسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعدّدة طوال العصر المملوكي ، وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم « فساد العربان » ، وكانت تنتهي في العادة بهزيمة العرب ، نظراً لبراعة المماليك في فنون القتال^(١) ، وتجريد العرب من وسائل الدّفاع المؤثرة ، ففي منشور صدر في عصر المماليك جاء ما يلي : ... فلا تمكّن أحداً من العربان ولا من الفلاحين أن يركب فرساً ، فإنما يعدّها للخيانة مختلساً ،

(١) قيام دولة المماليك الأولى ، ص : ١٢٩ .

ولا يكون لها مرتبطاً ، ولا محتسباً ، وكن لهم ملاقياً مراقباً ، فمن فعل ذلك ؛ فانتقم منه بما رسمنا معاقباً ، ولا تمكنهم من حمل السلاح ، ولا ابتياعه ، ولا استعارته ، ولا استيداعه ، وتفقد من بالأقاليم من تجارة ، وصناعة ، فخذ بالقيمة ما عند التجار ، واقمع بذلك نفس الفجار ، واخرم نار العذاب على من أخرج لعمل ذلك النار ^(١) .

وورد في منشور آخر ما يلي : ... ولا تمكن أحداً من العربان بجميع الوجه القبلي أن يركب فرساً ، ولا يقتنيه ، ويكفي بذلك الأيدي المعتدية فإن المصلحة لمنعهم من ركوبها مقتضية ... ومن وجد من العربان خالف المرسوم الشريف من منعه من ركوب الخيل كائناً من كان اضرب عنقه ، وأرهقه من البطش بما أرهقه ليرتجع به أمثاله ، ولا يتسع لأحد في الشرق مجاله ^(٢) .

ويرجع أسباب الصراع القائم بين العرب والمماليك إلى أن المماليك الذين أستولوا على الحكم لم يكونوا من أهل البلاد ، وإنما كانوا مجرد وافدين لأغراض حربية فحسب ، كما أنهم لم يرتبطوا مع الشعب المصري بروابط المصاهرة ، والنسب ، وظلوا

(١) صبح الأعشى نقلاً عن تاريخ القبائل العربية ، محمود السيد ، ص : ١٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٢٥ .

منعزلين عن أفراد الشعب ومع ذلك فإنه إذا كان للمماليك دور فعال في الدفاع عن مصر وحمايتها من أعدائها ؛ فإن للمصريين ، والعرب دورهم أيضاً في الدفاع بنفس القدر الذي كان للمماليك ، ولذلك فقد رأى العرب : أنهم أحق من المماليك الغرباء بحكم مصر^(١) ، فقامت الثورات ضدّهم ، واستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوي على القسوة ، والقهر من وسائل قتل ، وتعذيب معروفة في ذلك العهد . وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى بغية التّسوّل ، أو السرقة ، أو الاشتراك في المنازعات ، والاضطرابات الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك ، وكانت دوافع تلك الثورات اقتصادية ، وسياسية ، ولا شك : أن الدافع السياسي ، وسعي بعض القبائل العربية للقضاء على حكم المماليك ولّد ردة فعل لديهم ، مما جعلهم يستخدمون سياسة العنف ، والقسوة في قمع الثورات خوفاً على سلطانهم .

وأول ، وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك هي الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان أيبك التركماني عام ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م ، وأسباب هذه الثورة ترجع إلى عوامل اقتصادية ، وسياسية كما أسلفنا ، فالمماليك منذ أن انتصروا على الأيوبيين في وقعة العباسية ، وتدخلت الخلافة في صالحهم

(١) تاريخ القبائل العربية ، د . محمود السيد ص : ١٢٥ ، ١٢٦ .

اعتقدوا : أن البلاد وما فيها صارت لهم بلا منازع ، فبالغوا في الفساد ، والاستهتار ، وزيادة الضرائب إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقرئزي ، وأبي المحاسن فضلوا عليهم الصليبيين ، وقالوا : لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم^(١) .

وهذا كلام لا يستقيم أمام الوقائع التاريخية ، فالفرنج لمّا تمكنوا من ثغر دمياط في الحملة الصليبية ؛ عملوا ما تقشعر منه الأبدان ، وتشيب منه الرؤوس ، وفصلنا كثيراً من أعمال الفرنج في كتبنا السابقة عن الحروب الصليبية ، وقد حاول بعض المؤرخين أن يقدم لنا صفحات التاريخ المملوكي بلون أسود مظلم قاتم ، ومع اعترافنا بالحقيقة المرّة أن تمزقاً كان يقوم بين طوائف المجتمع في عهد المماليك ، وبين الأمراء المماليك أنفسهم وولاءاتهم المتعددة ؛ فإن إشراقة من الإيمان تطلّ علينا ، وشموعاً تضاء في دهاليز الذات لدى هذا القائد ، أو ذاك عندما يمس الإيمان شغاف قلبه ، ويحرّك القرآن فيه روح الجهاد ، والاستشهاد .

إن من التجني أن ننسى الدور الرائد الفذ الذي قام به الظاهر بيبرس ، والمظفر قطز في قيادة جيش إسلامي وقف كالطود الشامخ في وجه الزحف التتري ، الذي كان يستهدف عقيدتنا ، وديارنا ،

(١) السلوك (١ / ٢٨٠) ، و : النجوم الزاهرة (٧ / ٩) ، و : قيام المماليك ص : ١٣٠ .

وأمتنا ، ويسعى لاجتثاث ذلك كله من الوجود ، وكانت النتيجة اندحار الغزاة ، وهزيمة المعتدين بوحدة الصف ، ودافع الإيمان الصادق المتين ^(١) .

إنَّ معركة عين جالوت تمثل معلماً مضيئاً في خضم الظلمات ، ومثلها معالم أخرى ، كتحرير بلاد الشام من المشروع الصليبي في عهد المنصور بن قلاوون ، والمدارس التي بنيت ، والمكاتب التي أوقفت ، والمساجد التي شُيّدت ، وصرح الخير ، والبر ، والمرحمة ، والحركة العلمية الموسوعية التي قادها علماء ذلك العصر ، كالنووي ، وابن تيمية ، وابن القيم ، والذهبي ، وابن كثير ، والمزي ، والسبكي ، والمقرئزي ، وابن خلدون ، والسيوطي ، وغيرهم كثير ، وهذا ما سوف نعرفه في هذا الكتاب بإذن الله تعالى .

الحقيقة هناك تجاوزات حدثت في عهد المماليك ، منها استخدام العنف الغير مبرر ضدَّ المعارضين مما ولّدت ردة فعل عكسية . قال أبو المحاسن : إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسَّه الرقُّ ، وظلوا إلى أن مات السلطان أيك وهم يسمعون ما يكره ؛ حتى في وجهه إذا ركب ، ومَرَّ بالطرقات ، ويقولون : لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة ^(٢) . وترعَّم تلك الثورة

(١) تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء ص : ١٨٠ .

(٢) النجوم الزاهرة (٧ / ١٣) .

الشعبية شريف علوي ، وهو حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة ، وصرّح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب ، وليس للعبيد الأرقاء^(١) . وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى ، وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري ، وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف « بذروة سريام » أو « ذروة الشريف » « نسبة إليه » وتقع بين النيل ، وترعة المنهي التي هي الآن بحر يوسف^(٢) .

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب الشام يطلب مساعدته في محاربة أيبك في ذلك الوقت ؛ إذ كانت رسل الخليفة المستعصم قد تدخّلت لحسم النزاع بينهما ، وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال ، والخيّل ، والمال بفضل الله ، ثم بفضل مشاركتهم في حروب الصليبيين ، فكوّنوا جيشاً كبيراً ، والتّقوا حول زعيم حصن الدين ، وحلفوا له ، واضطر السلطان أيبك أن يرسل حملة تأديبية للقضاء على هذه الثورة . ومن عجب أن يسند قيادتها إلى منافسه أقطاي ، وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية ، وخرج أقطاي من القاهرة بخمسة الآلاف فارس من خيرة المماليك ، وتوجه إلى الشرقية ؛ حيث كانت أكبر مظاهر العصيان ، وعلى الرغم من قلة عدد المماليك

(١) القبائل العربية ص : ١٣١ .

(٢) التعريف بالمصطلح الشريف ص : ١٨٨ .

بالقياس إلى العرب ، تغلب المماليك بسبب تفوقهم الحربي ، ومهارة قائدهم أقطاي ، وتهذمت المقاومة العربية في بلبس سنة ١٢٥٣ م^(١) ، غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطى ؛ حيث ظلّ حصن الدين طليقاً ، وأقام حكومة مستقلة هناك ، ولم يتمكن أيك ، ومن جاء بعده من السلاطين من القبض عليه إلى أن خدعه السلطان بيبرس البندقداري ، وقبض عليه ، وشنقه بالإسكندرية^(٢) .

وكيفما كان الأمر في نهاية الأمر ، فالهم هنا : أن أيك تغلب على أحد العناصر المهددة لقيام دولة المماليك ، واستقرارها في مصر^(٣) . وذكر المقرئ في السلوك : أن من نتائج ثورات العرب ضد المماليك : أن تبدد شمل عرب مصر ، وخمدت جمرتهم من حينئذ^(٤) .

٦ - خطر زملائه المماليك ومقتل الفارس أقطاي :

ومن العوائق التي هددت حكم أيك ، ودولته الناشئة خطر زملائه المماليك البحرية ، وزعيمهم فارس الدين أقطاي ، وكان أيك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها ، وخطرها ،

(١) السلوك (١ / ٣٨٧) .

(٢) التعريف بالمصطلح الشريف ص : ١٨٨ ، و : قيام دولة المماليك ص : ١٣٢ .

(٣) قيام دولة المماليك ص : ١٣٢ .

(٤) تاريخ القبائل العربية ص : ١٣٣ .

ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه ، فأنشأ فرقةً من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه « الملك المعز » كما عين مملوكه قطز المعزي نائباً للسلطنة بمصر ، ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة ، وعزل الملك الأيوبي الطفل موسى شريكه في الحكم ، وانفرد بالسلطنة ^(١) . على أن هذه الإجراءات كلها لم تكن إلا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر أقطاي ، وزملائه البحرية .

ويجمع المؤرخون على أن أقطاي وصل إلى قمة المجد خصوصاً بعد تغلبه على ثورة العرب ، وأصبح لا يظهر في مكانٍ إلا وحوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين ، كأنه ملك متوج ، وكانت نفسه ترى : أن ملك مصر لا شيء عنده ، وكان كثيراً ما يذكر الملك المعز في مجلسه ، ويستقصه ، ولا يسميه إلا أيبكاً ، وقد بلغ ذلك المعز ، فكان يغضي عنه لكثرة خشداشيته البحرية ^(٢) . وتلقي المصادر التاريخية الضوء على القوة التي كان يمارسها ، ويتمتع بها أقطاي ، فالمقريزي يقول عنه : واجتمع الكلُّ على باب الأمير فارس الدين أقطاي ، وقد استولى على الأمور كلها ، وبقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر ، وغيره إليه ، ولا يقدر أحد يفتح كتاباً ، ولا يتكلم بشيء ، ولا يبرم أمراً

(١) قيام دولة المماليك الأولى ص : ١٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٣٣ .

إلا بحضور أقطاي ؛ لكثرة خشداشيته ^(١) .

وابن تغري بردي يقول عنه : فَإِنَّ أمره كان قد زاد في العظمة ، والتفت عليه المماليك البحرية ، وصار أقطاي المذكور يركب بالشاويش ، وغيره من شعار الملك ، وحدثه نفسه بالملك ، وكان أصحابه يسمونه : الملك الجواد ^(٢) فيما بينهم ، وعملوا على تزويجه من إحدى أميرات البيت الأيوبي ، وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود ملك حماة ، بل إنهم تأمروا على قتل أيبك ؛ ليخلو الجو لأقطاي ^(٣) .

وقال الذهبي عنه : فعظم ، وصار نائب المملكة للمعز ، وكان بطلاً شجاعاً جواداً ، مليح الشكل ، كثير التحمل ، بيع بألف دينار ، وأقطع من جملة إقطاعه الإسكندرية ، وكان طائشاً ظلوماً ، عمّالاً على السلطنة ، بقي يركب في دست الملك ، ولا يلتفت على المعز ، ويأخذ ما شاء من الخزائن ، بحيث إنه قال : أدخلوا لي القلعة حتى أعمل عرس بنت صاحب حماة بها ^(٤) . وفهم منها المعز : أنه مستهدف لإزالته من الحكم ، فقرّر التخلص منه ، واتفق مع مماليكه على ذلك ، وأرسل إلى أقطاي

(١) الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية ص : ٤١٢ .

(٢) النجوم الزاهرة (٧ / ١٠ ، ١١) .

(٣) قيام دولة المماليك الأولى ص : ١٣٣ .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٣ / ١٩٧) .

يستدعيه موهماً له أنه يستشيريه في مهمات من الأمور ، وأكمن له كميناً من ممالكه وراء باب قاعة الأعمدة بالقلعة ، وقرر معهم : أنه إذا مرَّ مجتازاً بالدهليز يتدرونه بسرعة ، فلما وردت إلى أقطاي رسالة المعز ؛ بادر بالركوب في نفر يسير من ممالكه من غير أن يُعلم أحداً من خشداشيته ^(١) ؛ لثقته بتمكن حرمة ، وطلع القلعة آمناً ، ولم يدر بما كان له كامناً ، فلما وصل إلى باب القلعة مُنع ممالكه من الدخول معه ، ووثب عليه المماليك المعزّية ، فأذاقوه كأس المنية ^(٢).

وكان قتله يوم الإثنين الحادي والعشرين من شعبان ، وأمر المعزُّ بغلاق باب القلعة ، فركبت ممالكه ، وحاشيته ، وكانوا سبعة فارس ، ومعهم جماعة من البحرية ، وقصدوا قلعة الجبل ، بناءً على أن المعزُّ قبض عليه ، فبينما هم كذلك أرمي لهم برأسه من فوق السور ، فالتفت بعضهم إلى بعض ، وقالوا : على من تقاتلوا ؟ ! فتفرقوا جميعهم ، ولما شاع الخبر بقتله ؛ أجمع البحرية على الخروج إلى الشام ، وكان من أعيانهم يومئذٍ ركن الدين بيبرس البندقداري ، وقلاون الألفي ، وسنقر الأشقر ، وبَيْسري ، وسِكر ، وبرامق ^(٣) ، فشَمَرُوا ويلاً ، وخرجوا ليلاً ،

(١) خشداشيته : الزملاء في الخدمة .

(٢) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص : ٢٢٠ .

(٣) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص : ٢٢٠ .

فوجدوا باب المدينة الذي قصدوا الخروج منه مغلقاً ، فأضرموا فيه النار ، وهو الباب المعروف بباب القارطين ، فأحرقوه ، وخرجوا منه نحو الشام ، فسمي من يومئذ الباب المحروق ^(١) .

وقصد البحرية الملك الناصر صاحب الشام ليكونوا عنده ، ولما أصبح المعزُّ ؛ بلغه هروبهم من المدينة ، فأمر بالحوطة على أملاكهم ، وأموالهم ، ونسوانهم ، وغلمانهم ، وأتباعهم ، واستُصفيت أموالهم ، وذخائرهم ، وشؤونهم ، وخزائنها ، واستتر من تأخر منهم ، وحمل من موجود الأمير فارس أقطاي الجمال المستكثرة من الأموال ، ونودي على البحرية في الأسواق والشوارع ، وتمكن الملك المعز من المملكة ، وارتجع ثغر الإسكندرية إلى الخاص السلطاني ، وأبطل ما قرره من الجبايات ، وأعفى الرعية من المصادرات ، والمطالبات .

وأما البحرية ؛ فإنهم وفدوا على الملك الناصر ، فأحسن إليهم ، وأقبل عليهم ، وأعطى كلاً منهم إقطاعاً يلائمه ، ثم عزم على قصد الديار المصرية ، فجرد عسكرياً صحبة البحرية ، فساروا ، ونزلوا الغور ، واتخذوا العوجاء منزلاً ، وبلغ المعزُّ مسيرهم إليه ، واتفقهم عليه ، فبرز بالعساكر المصرية ، ومعه جماعة ممن حضر إليه من العزيزية ، فنزل الباردة بالقرب من

(١) المصدر نفسه ص : ٢٢٠ ، و : دراسات في تاريخ مصر سحر عبد العزيز ص : ٢٣٩ .

العباسية ، وانقضت هذه السنة ؛ وهو مخيم بها ^(١) .

وفي هذه السنة وصل الشريف المرتضى من الروم ؛ ومعه بنت السلطان علاء الدين كيقباز بن كيخسرو صاحب الروم ، وكان الناصر قد خطبها لنفسه ، فزفت إليه بدمشق ، ودخل بها ، واحتفل بها احتفالاً كبيراً ^(٢) .

وتدخل الخليفة العباسي من جديد بين الأيوبيين ، والمماليك ، ووصل نجم الدين البادرائي للتوسط بين الطرفين ، ونجح في تجديد معاهدة الصلح على أن :

- يستعيد المعز أيبك ساحل بلاد الشام .

- ألا يؤوي الناصر يوسف أحداً من المماليك البحرية .

٧ - مقتل السلطان أيبك وشجرة الدر :

يبدو : أن أيبك أخذ يشعر بما بين زوجته شجرة الدر ، والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات ، واتفاقات ، فعزم على الزواج من غيرها ، وأرسل سنة ١٢٥٦ م ميلادية إلى بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل يطلب إليه حلفاً زواجياً لم يعلم عنه إلا ما تداولته المراجع من خطبته أيبك لابنة بدر الدين ، وليس من

(١) المصدر نفسه ص : ٢٢١ .

(٢) التحفة الملوكية في الدولة التركية ، و : بيبس المنصوري ص : ٣٦٠ .

المعقول أن تكون الخطبة قاصرةً على مجرد الرغبة في الزواج ؛ إذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول عن طريق صاحب الموصل ، وكيفما كان الأمر ؛ فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيك ، وذلك لأنَّ شجرة الدر لما علمت ما يُبيِّت لها ؛ أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية ، والخارجية لسلطنته ، فقام بعض من بقي في مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج ، فقبض أيك على عددٍ كبير ، منهم أيديكين الصالحي ، وسيرهم لقلعة الجبل لسجنهم في الحبِّ ، فلما وصلوا إلى قرب نافذه القصر السلطاني حيث سكنت شجرة الدرُّ ؛ أحنى الأمير أيديكين رأسه احتراماً ، وقال بالتركية : والله يا خوند ^(١) ما عملنا ذنباً وجب مسكناً ، ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ؛ ما هان علينا لأجلك ، فإننا تربية نعمتك ، ونعمة الشهيد المرحوم « الصالح أيوب » ، فلمّا عتبناه تغيّر علينا ، وفعل بنا ما ترين ! فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه : « قد سمعت كلامك » .

وعندما نزلوا بهم إلى الحب ؛ قال أيديكين ؛ إن كان قد حبسنا ؛ فقد قتلناه ^(٢) ! ومعنى هذا : أن شجرة الدر كانت قد بيتت هي الأخرى لأبيك جزاءً وفاقاً ، وأن قبضه على أولئك لم يكن مجرد معارضتهم في الزواج ، بل لأنه علم بمؤامرتهم ، فأراد

(١) الخوند : السيد ، أو الأمير ، ويخاطب به الذكور والإناث .

(٢) السلوك (١ / ٤٠١ - ٤٠٢) .

أن يقضي على الحركة كلّها بالفصل بين أمراء المماليك ، وزعيمتهم ، غير أنّ شجرة الدر كانت قد دبّرت ما لم يكن في الحسبان ؛ إذ أرسلت سرّاً أحد المماليك العزيزية إلى الملك الناصر يوسف بهدية ، ورسالة تخبره فيها : أنها عازمت على قتل أيبك ، والتزوج منه ، وتمليكه عرش مصر ، ولكن الناصر أعرض عنها خوفاً أن يكون في الأمر خدعة ، ولم يجبهها بشيء .

وعلم بدر الدين لؤلؤ بأخبار هذه المفاوضات السرية ، فبعث بها إلى أيبك ينصحه أن يأخذ حذره ، وخاف أيبك على حياته ، فترك القلعة ، وأقام بمنابر اللوتي ، وصمم على قتل زوجته قبل أن تقضي عليه ، وأخذ الزوجان يتسابقان في نسج المؤامرات بعد القبض على البحرية في القاهرة ، وانتهى السباق بانتصار المرأة في ميدانها ؛ إذ أرسلت شجرة الدر إلى أيبك رسالة رقيقة تتلطف به ، وتدعوه بالحضور إليها بالقلعة ، فاستجاب لدعوتها ، وصعد إلى القصر السلطاني بالقلعة حيث أعدت له شجرة الدر خمسة من الغلمان الأشداء لاغتياله ، منهم : محسن الجوجري ، ونصر العزيزي ، وسنجر ، وكان آخرهم من مماليك أقطاي^(١) ، وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمروا به ، وقتلوه في الحمام في أبريل سنة ١٢٥٧ م ، ٦٥٥ هـ^(٢) ، قال الذهبي عن

(١) قيام دولة المماليك الأولى للعبادي ص : ١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٣٩ .

السلطان المعز : كان ديناً عاقلاً ، كريماً ، تاركاً للشرب ^(١) .

حاولت شجرة الدر إخفاء واقعة القتل ، وأمرت بتجهيز جثمان عز الدين أيبك بملابس لائقة ، ووضعه على فراشه ، والادّعاء بأنه سقط من فوق جواده أثناء عدّوه ، وتسبب ذلك في إصابات أنهت حياته ، وسرعان ما انتشر نبأ وفاة السلطان ، وبدأ أمراء المماليك يتوافدون على القصر ، وكانت شجرة الدر ما تفتأ تروي واقعة سقوطه وهو على ظهر جواده ، لكنهم استمعوا إليها في ريبة ، فقد شهد أيبك معارك كثيرة خاضها ؛ وهو يحارب على ظهر جواده ، لكنها في كل مرة كانت تصرُّ ، وتؤكد الواقعة ^(٢) . وأحيط بشجرة الدر ، وواجهها أمراء المماليك ، فلم يكن أمامها إلا أن تعترف بأنها أرادت الانتقام ، لكن لم يخطر ببالها أبداً : أن ذلك سيؤدي إلى وفاته .

وتشاور أمراء المماليك فيما يصنعون ، لقد وقفوا مع شجرة الدر بادئ الأمر ، وصنعوا منها ملكة ، وسلطانة ، وأحاطوها برعايتهم ، وحمائتهم حتى في أصعب الأوقات ، وباركوا زواجها من عز الدين أيبك ، وساعدوها على أن تصبح زوجة السلطان ، فكيف ترتكب هذه الفعلة النكراء ، وتتنكر على هذا النحو البغيض ؟! على أنهم انقسموا على أمرهم ، وانحاز بعض الأمراء

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣ / ١٩٨) .

(٢) شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر ص : ٨٥ .

إلى جانبها ، وأعادوا ما كان لأبيك من قسوة ، وغلظة ، وجبروت ، فضلاً عن أن وجود شجرة الدر يعتبر ضرورياً كرمز للشرعية ، فهي أرملة نجم الدين أيوب ، وأم ابنه خليل ، ولها من الأيادي على مصر ، وعلى المماليك أنفسهم الشيء الكثير البادي للعيان . ورأى البعض الآخر : أنها قد ارتكبت جريمة مرعبة ، وكاد الأمر أن يتطور إلى حرب بين الفريقين ، وأخيراً انتصر أعداؤها ، وحُبست في أحد أبراج القلعة ، ونودي بعليّ بن عز الدين أيبك السلطان الراحل سلطاناً جديداً ليخلف والده الراحل .

ويحدثنا أحد المؤرخين : أن شجرة الدر كانت قوية في مواجهة الموت ، كما كانت قوية في مواجهة المدلهمات ، فلما ايقنت من نهايتها أسرع إلى خزانها ، واستخرجت حليها ، ومجوهراتها جميعاً ، وسحقها سحقاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم عليّ زوجة السلطان الأولى . وفي هذه الرواية شك كبير كذلك ؛ فكيف لشجرة الدر ؛ وهي سجين في برج بالقلعة أن تسرع إلى خزانها ، وتستخرج حليها ، ثم تسحقها جميعاً ؛ حتى لا تتزين بها غريمتها أم عليّ كما يقول المؤرخ ^(١) ؟ !

وفي خارج القصر هدأت الجموع التي أثارها انتشار النبأ ، ورضي الجيش بالسلطان الجديد بعد أن كان قد انقسم على نفسه بين مؤيد لشجرة الدر ، ومنكر لها ، وتوقفت أعمال الشغب التي

(١) شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر ص : ٨٦ .

كانت قد انتشرت في القاهرة ، وتجنَّب أمراء المماليك شبح الفتنة التي كانت تتهدَّدُهم ، واقتيدت شجرة الدر إلى بلاط السلطان الجديد ؛ حيث كانت غريمتها أم عليّ زوجة أيك الأولى قد أصبحت منها أمُّ السلطان الجديد ، وتمايلت أم عليّ فرحاً فكانت تنتظر فرصة كهذه منذ سبع سنوات ، منذ أن هجرها زوجها أيك ، وهجر معها ابنها علي . إنّ ساعة الانتقام قد أزفت ، وأمرت خادמות القصر بالدخول على شجرة الدرّ ، وضربها بالقبايب حتى تفارق الحياة ^(١) . يقول المقرئزي : فضربها الجوّاري بالقبايب إلى أن ماتت ، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق ، وليس عليها ، سوى سروال ، وقميص ، فبقيت في الخندق أياماً ، وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها ، ثم دفنت بعد أيام - وقد تننت ، وحملت في قفة - بتربتها ^(٢) .

قال عنها الذهبي : ودفنت بتربتها بقرب قبر السيدة نفيسة . وقيل : إنها أودعت أموالاً كثيرة فذهبت ، وكانت حسنة السيرة هناك ، لكن هلكت بالغيرة ^(٣) . وقال ابن العماد فيها : كانت بارعة الحسن ، ذات ذكاء ، وعقل ، ودهاء . . . نالت من السعادة أعلى المراتب ، بحيث إنها حُطِبَ لها على المنابر ، وملَّكوها

(١) وسير أعلام النبلاء (٢٣ / ١٩٩) .

(٢) السلوك (١ / ٤٩٤) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٣ / ٢٠٠) .

عليهم أياماً ، فلم يتم ذلك ، وتملك المعز أيبك ، فتزوج بها ، وكانت ربما تحكم عليه . وكانت تركية ذات شهامة ، وإقدام ، وجرأة ، وآل أمرها إلى أن قتلت ^(١) .

وأما غريمتها أم السلطان الجديد أم علي ، فكانت قد نذرت أن تدعو كل سكان القاهرة إلى وجبة من الحلوى في نفس اليوم الذي تتخلص فيه من غريمتها ، وعندما ماتت شجرة الدر ؛ أمرت طهارة القصر بإعداد تلك الوجبة ، لكن الوقت لا يسمح بالانتهاء في نفس اليوم ، فجاءتهم بوصفة طهي بسيطة للغاية ، كما كميات ضخمة الخبز ، يجري تسخينها إلى درجة الاحمرار ، وتغمر في اللبن ، والعسل ، ثم تغطى بطبقة سمكية من اللوز ، والزبيب ، والصنوبر ، وهي وجبة الحلوى اللذيذة التي تقدّم في المطاعم في أيامنا هذه ، وقد سميت باسم أول من صنعها : أم علي ^(٢) .

٨ - سلطنة علي بن المعز ثم تولي سيف الدين

قطز :

صمم المماليك المعزية ، وعلى رأسهم سيف الدين قطز ، على أن يقيموا على العرش الذي بات شاغراً بمصرع أيبك صبيّاً في الخامسة عشر من عمره هو « نور الدين علي » ابن سيدهم المعز

(١) شذرات الذهب (٧ / ٤٦٤) .

(٢) شجرة الدر ، القاهرة الملوك ومنقذة مصر ص : ٨٧ .

أيك ، وتمّ ذلك في ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ولقبوه الملك المنصور علي ، وقد رفض المماليك الاعتراف بالسلطان الصبي ، وتجسّد رفضهم في عدة اضطرابات عاصفة ، استنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في بلاد الشام ، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك - في الأردن حالياً - غزو مصر مرّتين ، لكن الفشل كان من نصيبه ^(١) .

بيد : أن هذه الاضطرابات كانت فرصة جديدة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز ، فقد قام قطز بالقبض على الأتابك سنجر الحلبي ، وحبسه في الجب بقلعة الجبل ؛ لأنه كان يطمع في السلطنة بعد مقتل المعز أيك ، ولأنه كان يتحين الفرصة للوثوب على العرش ، وأدّى ذلك إلى مزيد من الاضطرابات ، والفوضى ، فقد هرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام ، وطاردهم المماليك المعزّية ، وقبضوا على عددٍ منهم ، وأودعهم سجون القلعة ، وخلا الجو لسيف الدين قطز ، فصار نائب السلطان : . وصار مدبر دولة الملك المنصور علي ^(٢) .

وكان جلوس السلطان الصبي على العرش مسألة قصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من كبار المماليك الطامعين في عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه ، وكان هذا المشهد

(١) السلطان المظفر سيف الدين قطز ص : ٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٨١ ، السلوك (١ / ٤٠٥) .

يتكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه كانت ممارسة سياسية حظيت باعتراف الجميع طوال ذلك العصر . ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثته العرش ؛ إذ طبعتهم العسكرية من ناحية ، وشعورهم بأنهم جميعاً سواء في ناحية أخرى ؛ جعل كبار أمرائهم يعتقدون : أنهم جميعاً يستحقون العرش الذي يفوز به أقواهم ، وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين تحقيقاً لمبدأ (الحكم لمن غلب) ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظلَّ عرش السلطنة على الدوام محل التنافس ، والمنازعات بين كبار الأمراء ، لا سيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان ، وكان هذا هو الحال عندما مات عز الدين أيبك ولم يشأ « سيف الدين قطز » أن يتعجل الأمور ، ويواجه المنافسين ، فأمسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركاً للسلطان الصبي شعار السلطنة ، ولقبها .. ولا شيء أكثر من ذلك ، وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى . ثم جاءت الفرصة تسعى إلى قطز ، وكان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع السياسية الداخلية لصالحه ^(١) ، على حين كانت الإشاعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصبي يريد خلع قطز مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء في توليه عرش البلاد ، واجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم ، وتكلموا إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين

(١) المصدر نفسه ص : ٨١ .

الملك المنصور علي ، وبين مملوك أبيه الأمير قطز . . . وخلع عليه ، وطيب قلبه . وهكذا توطدت مكانة سيف الدين في الدولة ^(١) .

وفي الوقت نفسه كانت الأحوال متردية تماماً بسبب الفتن التي أثارتها طوائف المماليك في القاهرة ، كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التي قام بها المغيـث عمر في ذي القعدة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م وفي ربيع الأول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م يقلق باله ، بحيث خرج في المرتين للقاء المماليك البحرية وحليفهم الأيوبي ، وبفضل شجاعة « سيف قطز » تمّ القضاء عل هذا الخطر الأيوبي بيد أنه كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة في الداخل بعد أن واجه الخطر الخارجي ، فقد قبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى « الملك المغيـث عمر » في هذا الشهر نفسه ، وهم : الأمير « عز الدين آيـك الرومي الصالحي » ، والأمير « سيف بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي » ، والأمير « بدر الدين بكتوت الأشرفي » ، والأمير « بدر الدين بلقان الأشرفي » وغيرهم ، وضرب أعناقهم في السادس والعشرين من ربيع الأول ، واستولى على أموالهم كلها ^(٢) .

وبذلك ازدادت القامة السياسية لسيف الدين قطز طويلاً ،

(١) النجوم الزاهرة (٧ / ٤٣) .

(٢) السلوك (١ / ٤١١) ، و : السلطان المظفر سيف الدين قطز

ولكن الدولة التي يحكمها سلطان في سنّ الصِّبا بدت واهنةً ضعيفة ، وغير قادرة على تحمل مؤامرات الصغار ولعبهم بأقدار البلاد والعباد ، ثم بدا صدئ طبول الحرب التتارية يتردّد على حدود السلطنة الوليدة ، ولم يكن بوسع السلطان الصبي « نور الدين علي » أن يفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم ، فقد كان يقضي وقته في ركوب الحمير ، والتنزه في القلعة . . ويلعب بالحمام مع الخدم^(١) . ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد اضطراباً ، والقلق يفترس نفوس الناس^(٢) .

وتعين على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية ، وتدعيم نفوذه السياسي الداخلي من ناحية أخرى ، والاستعداد لمواجهة التتار من ناحية^(٣) . ومع اقتراب جحافل التتار من الشام أرسل الملك الناصر المؤرّخ ، والفقيه المعروف كمال بن العديم إلى مصر يستنجد بعساكرها ، وهكذا بدأت الحرب تطل بوجهها المرعب على الساحة السياسية في مصر ، وكان النجم الساطع في تلك الساحة هو الأمير « سيف الدين قطز » ، ولما قدم ابن العديم إلى القاهرة ؛ عقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبي الملك المنصور نور

(١) السلطان المظفر سيف الدين قطز ص : ٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٨٣ .

(٣) السلطان المظفر سيف الدين قطز ص : ٨٤ .

الدين علي ، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء ، والقضاة ، مثل : قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين ، وسألهم الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لانفاقها على الجنود ، فأفتى الشيخ عز الدين بفتواه المشهورة التي يأتي تفصيلها عند الحديث عن عين جالوت بإذن الله تعالى ، وكان هذا الاجتماع من الأدوات السياسية التي أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائي : عرش مصر ، وقتال التتار . وكان ذلك الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان الصبي آخر خطوات قطز صوب عرش مصر ، وقتال التتار ^(١) .

وبينما كان هولاء يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعاً ، وتزداد قامته السياسية طولاً ، وكأنه على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته الكبرى في هزيمة الجحافل التتارية الظالمة . لقد استغلّ قطز اجتماع القلعة لخلع السلطان الصبي ، وأخذ يتحدث عن مساوئ المنصور علي ، وقال : لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير الملك ^(٢) . وساعده على الوصول لهدفه :

(١) المصدر نفسه ص : ٨٨ .

(٢) السلطان المظفر سيف الدين قطز ص : ٨٩ ، و : النجوم الزاهرة (٧ / ٥٥) .

أن مفاسد الملك المنصور علي كانت قد زادت ؛ حتى انفضَّ الجميع من حوله ، واستهتر في اللعب ، وتحكَّمت أمُّه ، فاضطربت الأمور ، وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمراء المماليك المعزية ، والبحرية إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية ، وفي غزة ، وعلى رأسهم سيف الدين بهادر ، والأمير علم الدين سنجر الغتمي ، في يوم السبت ٢٤ ذو القعدة سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م ، وقبض قطز على الملك المنصور ، وعلى أخيه قاقان ، وأمهما ، واعتقلهم في أحد أبراج القلعة . فكانت مدة حكم المنصور سنتين ، وثمانية أشهر ، وثلاثة أيام^(١) .

وهكذا اكتملت رحلة المملوك صوب العرش ، وصار سلطاناً على الديار المصرية ، وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل في نفس اليوم ، واتفق الحاضرون على توليته ؛ لأنه كبير البيت ، ونائب الملك ، وزعيم الجيش ، وهو معروف بالشجاعة ، والفروسية ، ورضي به الأمراء الكبار والخوشداشية ، وأجلسوه على سرير الملك ، ولقبوه بالمظفر^(٢) .

٩ - ترتيب سيف الدين قطز للأمور الداخلية :

لم يكن جلوس قطز على عرش السلطنة نهاية لرحلة المملوك

(١) السلوك (١ / ٤١٧) ، النجوم (٧ / ٥٥) .

(٢) السلطان المظفر سيف الدين قطز ص : ٩٠ .

إلى عرش السلطان ؛ إذ كان على السلطان المظفر سيف الدين قطز أن يوطد دعائم حكمه في الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه في الخارج ، فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز ، وولى بدلاً منه زين الدين يعقوب عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير ، ثم كان عليه أن يواجه معارضة كبار الأمراء الذين قدموا إلى قلعة الجبل ، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور ، ووثبه على الملك ، فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة مصر^(١) والشام . وقال سيف الدين قطز في سياق تبريره لما حدث : وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا ، وكسرنا هذا العدو ، فالأمر لكم ، أقيموا في السلطنة من شئتم^(٢) ، وأخذ يرضي أمراء الممالك حتى تمكّن - على حد تعبير المقرئ - وما أن شعر : أنَّ سلطته قد رسخت ؛ حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه ، فأرسل المنصور عليّاً ، وأخاه ، وأمه إلى دمياط ، واعتقلهم في برج بناه هناك ، وأطلق عليه اسم برج السلسلة ، ثم نفاهم جميعاً إلى القسطنطينية .

بعد ذلك قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير علم

(١) السلوك (١ / ٤١٧ ، ٤١٨) ، و : السلطان المظفر سيف الدين قطز ص : ٩٢ .

(٢) السلوك (١ / ٤١٨) ، و : السلطان المظفر ص : ٩٢ .

الدين سنجر الغتمي ، والأمير عز الدين أيدمر النجيبى الصغير ،
والأمير شرف الدين قيران المعزي ، والأمير سيف الدين بهادر ،
والأمير شمس الدين قراسنقر ، والأمير عز الدين أيبك النجمي
الصغير ، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور عليّ بن
المعز ، والطواشي شبل الدولة كافور لا لا الملك المنصور^(١) ،
والطواشي حسام الدين بلال المغيثي الجمدار ، واعتقلهم .
وهكذا تمكّن من التخلص من رؤوس المعارضة ، ومن ناحية
أخرى ، بدأ السلطان المظفر سيف الدين قطز يختار أركان دولته ،
ويوطد دعائم حكمه ، فحلّف الأمراء ، والعسكر لنفسه ،
واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيح ، وأقرّ الأمير
فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي المعروف بالمستغرب
أتابكاً ، وفوّض إليه وإلى الصاحب زين الدين تدبير العساكر ،
واستخدام الأجناد ، وسائر أمور الجهاد ، والاستعداد للحرب ضد
التتار .

لقد ضمن سيف الدين قطز هدوء الأحوال داخل دولته ، بيد
أنه كان ما يزال متوجساً من ملوك الأيوبيين في بلاد الشام ، خاصة
الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق ، وحلب ، وعندما علم

(١) « لا لا » : لفظ فارسي ، معناه : الشخص المكلف بالعناية بالأطفال .

وكان هذا الطواشي هو المسؤول عن تربية المنصور « عليّ » في
طفولته .

بخبير قدوم نجدة من عند هولاءكو إلى الملك الناصر بدمشق ؛ خاف من عاقبة ذلك ، وكتب إليه خطاباً رقيقاً يحاول فيه تجنب المواجهة ، وأقسم قطز بالأيمان : أنه لا ينازع الملك الناصر في الملك ، ولا يقاومه ، وأكد له : أنه نائب عنه بديار مصر ، ومتى حلّ بها ؛ أقعده على الكرسي . وقال قطز أيضاً : . . . وإن اخترتني ؛ خدمتك ، وإن اخترت ؛ قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فإن كنت لا تأمن حضوري ؛ سيرت لك العساكر صحبة من تختاره ^(١) .

وهكذا ظهرت من قطز معاني من التضحية ، والتواضع ، والحرص على وحدة الصف ساعدته للتصدي للمشروع المغولي ، وكسره في عين جالوت ، وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً بإذن الله في الفصل القادم .



(١) السلطان المظفر سيف الدين قطز ص : ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

الفصل الثاني

معركة عين جالوت الخالدة

انكسار المغول

المبحث الأول

احتلال المغول لبلاد الشام والجزيرة

أولاً : صمود ميّافارقين :

انتهى التتار من غارات الاستطلاع في الجزيرة ، ومن جمع المعلومات عن أرضها ، وشعبها ، وملوكها ، وكانوا قد فرغوا من أمر بغداد ، فوجّهوا جيوشهم بثقلها صوب الجزيرة ، وعلى رأسهم القائد العام للعمليات في المنطقة هولاكو خان ، لم يضع التتار الوقت في عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م بعد سقوط بغداد ، توجّه هولاكو مباشرة إلى الجزيرة ، وكان هدفه دينسمر ، ونصيبين ، ومن ثم حرّان ، وكلّف ابنه يشموط بقيادة فرقة أخرى من جيش التتار ، والسير باتجاه ميّافارقين ، وكلّف معه القائدين : إيلكا

نويان ، وسونتاي نويان ، ووجّه فرقة أخرى بقيادة الصالح ابن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ إلى آمد^(١) .

١ - آمد بمواجهة التتار :

في عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م كان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر شهاب الدين صاحب ميّافارقين قد عاد من زيارة منكوقآن التتار الأعظم ، بعد أن قدم له فروض الطاعة ، فعلم أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يكتب أهل آمد لتسليمه المدينة ، فطلب نجدة الملك السعيد صاحب ماردين ، وأرسل عسكره ، فطردوا عسكر سلاجقة الروم ، واحتلوا آمد^(٢) . وفي عام ٥٥٧ هـ وبينما كان التتار يحاصرون ميّافارقين وصل هولاكو إلى آمد ، واستدعى سيف الدين بن محلي نائب الكامل فيها ، فخرج إليه ، وطلب منهم هولاكو تسليم المدينة ، فلم يمانع ، وقام هولاكو بتسليمها إلى ابني كيخسرو سلطان سلاجقة الروم المتوفى ، وهما : ركن الدين ، وعز الدين ، ولما اقتسما البلاد ؛ أصبحت آمد مع ركن الدين قليج أرسلان ، وفيها نوابه مع نواب التتار ، ثم انتقلت بعد مقتله إلى ابنه غياث الدين^(٣) .

(١) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ / ٤٧) .

(٢) المصدر نفسه (٢ / ٤٨) .

(٣) المصدر نفسه (٢ / ٤٨) .

٢ - تحدي ميافارقين للتتار :

وبعد عودة الملك الكامل من خان التتار إلى ميافارقين أعلن العصيان على التتار ، وحبس نوابهم ، وخرج باتجاه دمشق لمقابلة الملك الناصر يوسف ، وقال له : إن هؤلاء التتار لا تفيد معهم مُدارة ، ولا تنجح فيهم خدمة ، وليس لهم غرض إلا في ذهاب الأنفس ، والاستيلاء على البلاد ، ومولانا السلطان قد بذل لهم الأموال من سنة اثنتين وأربعين ، إلى اليوم (٦٥٦ هـ) ، فما الذي أثرت فيهم من خلوص المودة ؟ ! فلا يغترّ مولانا بكلام بدر الدين - صاحب الموصل ، ولا بكلام رسولك - الزين الحافظي ، فإنهما جعلاك خبزاً ، ومعيشة ، وأحذرك كلّ الحذر من رسولك ، فإنه لا يناصرك ، ولا يختارك عليهم ، وغرضه إخراج ملكك من يدك ، وأما أنا ؛ فقد علمت : أنني مقتول ، سواء أكنت لهم ، أو عليهم ، فاخترت بأن أكون باذلاً مهجتي في سبيل الله ، ولم الانتظار ؛ وقد نزلوا على بغداد ؟ ! والمصلحة خروج السلطان - الناصر - بعساكره لإنجاد المسلمين ، وأنا بين يديه ، فإن أدركناه عليها ؛ فيها ، ونعمت ، وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء وإن لم ندركه ؛ أخذنا بثأره ^(١) .

٣ - مشروع الكامل لمواجهة التتار :

كانت لدى الكامل رؤية واضحة لموضوع الصراع مع التتار ،

(١) العلاقات الدولية (٢ / ٥٠) .

وقد تجلّت في المشروع الذي قدمه للملك الناصر الأيوبي عند زيارته له في دمشق ، وهو مشروع هجومي ، وليس دفاعي :

أ - أدرك الناصر أن نزول هولاكو على بغداد لحصارها هو الهدف الأكبر للتتار ، وإنّهم بعده سيتوجهون إلى الجزيرة ، والشام .

ب - تأكد الكامل : أن سقوط بغداد سيكون نهاية للدولة الإسلامية بكل رموزها ، ومعانيها ، وممالكها ، وإماراتها .

ج - لكلّ ذلك كان مشروعه يبدأ من بغداد ، فقد طلب من الناصر يوسف التوجه بجيشه ، وسيكون الكامل معه إلى بغداد لنجدها ، فمعركة بغداد هي التي ستحسم الصراع مع التتار .

د - كان يبدو من كلام الكامل ثقته - إلى حدّ ما - بالنصر ، فإن لم يمكن نجدة الخليفة ، وإنقاذه ؛ فالتأثر له .

هـ - قام الكامل بتحذير الناصر من تضليل بدر الدين لؤلؤ المتعامل مع التتار ، ومن خيانة رسول الناصر إلى التتار وزيره الزين الحافظي « فقد جعلوك خبزاً ، ومعيشة » ^(١) .

لقد كان الكامل واحداً من الملوك القلّة الذين تجرّؤوا على

(١) الأغلاق الخطيرة لابن شداد نقلاً عن العلاقات الدولية (٢ / ٥١) .

مجرد التفكير بالمقاومة ، وربما كان ذلك لتقديره الصحيح للموقف ، فقد قتل التتار الملوك المستسلمين ، والخاضعين ، والمقاومين على السواء . وهذا ما أثبتت الأيام صحته ^(١) .

٤ - ردُّ الناصر على مشروع الكامل :

ما إن علم الملك الناصر بتوجه الكامل المتمرد على التتار نحوه حتى جمع أرباب دولته ، واستشارهم ، فكان رأي الأغلبية منهم استقبال الكامل ، والاستماع إلى ما جاء من أجله ، بينما عارض ذلك الزين الحافظي ، والصالح نور الدين بن المجاهد ، والملك الأشرف بن المنصور صاحب حمص ، فإنهم كانوا متفقين مع التتار ، وقال الزين الحافظي للناصر : متى بلغ هولاء خروجك إليه جعله سبباً إلى قصد بلادك ، والمصلحة اعتذارك إليه ، وردّه . فلم يمكن الناصر إلا موافقة الجمّ الغفير ، فخرج إليه ، وتلقّاه ، وأنزله بدار السعادة ^(٢) .

إن ما نستنتجه ممّا دار في مجلس الملك الناصر هو : أن أعوان التتار يشكلون حزباً له وجوده حتى في حاشية الملوك ، ولكنهم قلة ، وأنّ معظم الناس كانت مشاعرهم ضدّ التتار ، وتميل للمقاومة مهما كانت النتائج .

(١) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ / ٥١) .

(٢) الأغلاق الخطيرة لابن شداد نقلاً عن العلاقات الدولية (٢ / ٥٢) .

لقد استمع الملك الناصر ، ولم يوافق على مشروع الكامل ، فبعد أن عرض الكامل مشروعه للمسير إلى بغداد أيد جميع الحاضرين في المجلس هذا المشروع ، ما عدا حزب التتار ، فقد كانت لهم جرأة في المعارضة ، أما الملك الناصر ؛ فكان ردّه متخاذلاً أكثر من تخاذله على الأرض ؛ إذ عرض على الكامل أن يرسل من طرفه رسولاً ؛ ليشفع له عند هولاكو ، فأجابه الكامل قائلاً : جئتك في أمر ديني تُعوّضني عنه بأمر دنيوي ؟ ! فقال : متى نزلوا عليك ؛ أرسلت لك عسكرياً . فأجاب الكامل : هذا لا ينفعني حينئذٍ ، إذ لا وصول له إليّ ^(١) .

لقد مثّل الكامل إرادة الجهاد ، والمقاومة مهما كلف الثمن ، واختار الشهادة بعزّة إن لم يكن النصر ، أما الملك الناصر ، فقد عبّر عن جنبه ، وتخاذله ، وحيرته ، وتردّده ، وانعدام قدرته على اتخاذ قرارٍ ناجح في لحظةٍ تحتاج إلى قرار ، وبقي الكامل في دمشق ؛ حتى سمع سقوط بغداد ، فرجع إلى بلاده عن طريق حلب ، حيث التقى به ابن شداد ، وقال له : أصبت في قصدك الملك الناصر ، وما أصبت في رجوعك ، هلا قصدت مصر ؟ ! فإرد الكامل : لقد خفت على قلب الملك الناصر ، فيشير عليه ابن شداد أن يخرج حريمه من ميّافارقين ، ويستخلف نواباً ، ويعود للملك الناصر ، لعلّه تنهض عزيمته .

(١) الأغلاق الخطيرة (٢ / ٥٢) .

ويتضح لنا من هذا الحديث بين الكامل ، وابن شداد : أن فكرة قصد مصر كأمل أخير للوقوف في وجه التتار قد خطرت على بال الكامل ، لكنّه لم ينفذها حتى لا يغضب الناصر في وقت هو بأمرّ الحاجة إليه ، كما نتيين : أن ابن شداد كان مطلعاً على الوضع العام ، فقد عرف : أن وضع الجزيرة ميؤوس منه ، فنصح الكامل بإخراج حريمه من ميّافارقين ، وعرف : أن الناصر متخاذلاً خائفاً ، يحتاج لاستنهاض عزيمته ^(١) .

٥ - سقوط ميّافارقين واستشهاد الكامل :

بعد أن تمّ للمغول الاستيلاء على إربل ؛ أمر هولاكو الأمراء : يشموت ، وإيلكا نويان ، وسونتاي بالتوجّه إلى مدينة ميّافارقين ، ولما بلغوا حدودها ؛ أرسلوا رسولاً من قبلهم إلى الملك الكامل الأيوبي صاحبها يدعونه إلى الخضوع ، والطاعة لهم ، ويتوعدونه بالهلاك والدمار في حالة عصيانه لهم ، إلا أن الملك الكامل قابل ذلك التهديد بالرفض الشديد ، وذلك لما كان يعرفه عن المغول من الخيانة ، ونكث العهود ؛ حيث رد عليهم قائلاً : إنني لن أنخدع بكلامكم المعسول ، ولن أخشى جيش المغول ، وسأضرب بالسيف ما دمت حيّاً ^(٢) .

ونتيجة لهذا الردّ الحاسم من الملك الكامل اتفق الأمراء

(١) جهاد المماليك ص : ٥٣ .

(٢) جامع التواريخ نقلاً عن جهاد المماليك ص : ٧٥ .

المغول على مهاجمة ميّافارقين ، وانتزاعها بالقوّة من يد حكامها ، وفي الوقت نفسه أخذ الملك الكامل يعدّ نفسه ، وقواته لمواجهة ذلك الخطر ، حيث عمد إلى تطييب خواطر سكان مدينته ، ورفع روحهم المعنوية بإعطائهم وعداً ببذل كل ما يملك من الذهب ، والفضة ، والغلال الموجودة بالمخازن في سبيل الدفاع عن مدينتهم ، فاتّحد معه سكان المدينة جميعاً ، وأعلنوا له : أنهم رهن إشارته ، وعلى استعداد للجهاد ضدّ العدوان المغولي الذي بات يهدّد مدينتهم بالخراب ، والدمار ، واستطاع مسلمو ميّافارقين أن يصمدوا ، واستبسّلوا في القتال ^(١) ، وصمدت المدينة الباسلة ، وظهرت فيها مقاومة ضارية ، وقام الأمير الكامل محمد في شجاعة نادرة يشجع شعبه على الثبات ، والجهاد .

وكان من المفروض في هذا الحصار البشع الذي ضرب على ميّافارقين أن يأتيها المدد من الإمارات الإسلامية الملاصقة لها ، ولكن هذا لم يحدث ، ولم تتسرب إليها أيّ أسلحة ، ولا أطعمه ، ولا أدوية ، لقد احترم الأمراء المسلمون النظام الدولي الجديد الذي فرضته القوة الأولى في العالم - التتار - على إخوانهم ، وأخواتهم ، وأبنائهم ، وبناتهم ، وآبائهم ، وأمهاتهم المسلمين ! والواقع : إنني أتعجب من ردّ فعل الشعوب ، أين كانت الشعوب ؟ !

(١) جهاد المماليك ص : ٧٦ .

- لم تكن الشعوب تملك حريتها ، وقرارها ، بل كانت خاضعة لإرادة حكامها .

- كانت هناك عمليات « غسيل مخ » مستمرة لكل شعوب المنطقة ، فلا شك : أنَّ الحكام ووزراءهم ، وعلماءهم كانوا يقنعون الناس بحسن سياستهم ، وبحكمة إدارتهم .

- من لم يقنعه العلماء ، والخطب ، والحجج ؛ فإقناعه يكون بالسيف . لقد تعودت الشعوب على القهر ، والبطش ، والظلم من الولاة ^(١) .

أقبل المغول على فرض حصار شديد على مدينة ميافارقين ، اشتركت فيه فرق أرمينية ، ومسيحية شرقية ، وقابله المسلمون داخل المدينة بصمود هائل عجز أمامه المغول على اقتحامها مدةً طويلة ، وكان في جيش الملك الكامل فارسان بارعان أذهلا قادة المغول ، ودوخاهم ، وأوقعاهم في الدهشة ، والحيرة ؛ إذ كان لبسألتهما ، وإحكامهما الرماية سبباً في إنزال أفدح الخسائر في الجيش المغولي ؛ حتى اضطر هولاء الذي أدرك عجز قواته عن اقتحام المدينة إلى إرسال مدد جديد بقيادة الأمير أرقطو ، وانضم لهذا القائد الجديد بجموعه إلى الجهة التي فيها جيش الأمير المغولي إيلكا نويان ، ونظراً لطول الحصار الذي فرضه المغول

على المدينة ؛ نفذت الأرزاق من داخلها ، وعمّ القحط ، وانتشر الوباء ، وتهدّمت الأسوار من شدّة ضرب المنجنقات ، حتى هلك أكثر سكان المدينة ^(١) .

فقد وقعت المجاعة فيها بسبب الحصار الطويل . وفي عام ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م سقط آخر معقل للمقاومة في الجزيرة ، ودخل التتار ميّافارقين « فوجدوا جميع سُكّانها موتى » ، ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء ، وقبضوا على الكامل الأيوبي ؛ فعنّفه هولاءكو ، وأمر بتقطيعه ^(٢) ، وأخذوا يقطعون لحمه قطعاً صغيرة ، ويدفعون بها إلى فمه حتى مات ، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح ، وطافوا به في البلاد ، وذلك في سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م ^(٣) ، حتى وصل دمشق ، فعلقوه على باب الفراديس ؛ حتى أنزله الأهالي ، ودفنوه .

وقتل المغول كلّ من وجدوه في ميّافارقين ، وهدموها . وهذا يدلّ على شدة حنق المغول من الملك الكامل ، ومن مقاومته لهم ، وربما كان أيسر ما كلفتهم إياه هو الخسائر البشرية ، والمادية فهي - بلا شك - ساهمت في تحطيم سُمعتهم الحربية المرعبة ؛ لأن مقاومة الكامل أصبحت رمزاً لإرادة المقاومة ضدّ

(١) جهاد المماليك ص : ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٧٦ .

التَّار ، وأصبح الكامل بموته قدوةً ، ومثالاً للتضحية ، والشهادة^(١) . وكذلك مدينة ميّافارقين التي تقع الآن في شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة « وان » فقد كانت جيوش الكامل الأيوبي تسيطر على شرق تركيا ، بالإضافة إلى منطقة الجزيرة ، وهي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات من جهة الشمال ؛ أي : إنه يسيطر على الشمال الغربي من العراق ، وعلى الشمال الشرقي من سوريا^(٢) .

٦ - ماردین :

بعد أن تمكن هولاكو من إنهاء الأمر في ميّافارقين ؛ أشار على امرائه بالزحف على مدينة ماردین ، التي كانت تتمتع الأخرى بحصانة كبيرة ؛ إذ تعجب المغول من ارتفاع قلعتها ، واستحكاماتها ، لذلك عمد هؤلاء القادة إلى اتباع نهجهم التقليدي بإرسال الرسل إلى صاحبها الملك السعيد بالتهديد ، والوعيد ؛ إلا أن الملك السعيد نجم الدين إيلغازي الأرتقي أبى الانصياع إلى أوامرهم ، وردّ عليهم قائلاً : كنت قد عذمت على الطاعة ، والحضور إلى الملك ، ولكن حيث إنكم قد عاهدتم الآخرين ، ثم قتلتموهم بعد أن اطمأنوا إلى عهدكم ، وأمانكم ، فإني الآن لا أثق بكم ، وأن القلعة بحمد الله تعالى مشحونة

(١) العلاقات الدولية (٢ / ٥٤) .

(٢) جامع التواريخ نقلاً عن جهاد المماليك ص : ٧٧ .

بالذخائر ، والأسلحة ، ومليئةً برجال الترك ، وشجعان الكرد^(١) . وضرب الحصار الشديد على ماردین .

وعلى كلِّ فإن هولاکو استطاع خلال تلك الفترة أن يستولي على آمد ، وحران ، والرُّها ، وسروج ، وعددٍ كبير من مدن ، وحصون إقليم الجزيرة ، ومن ثم قرر هولاکو إرجاء أمر ماردین ريثما يصفي حساباه مع الشام ، فعبر الفرات على رأس قواته قاصداً حلب ، فاستولى عليها في المحرم من عام ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م وعاد الحصار من جديد ، وأثناء الحصار توفي الملك السعيد بسبب وباء انتشر بين سكان القلعة ، فهلك أكثرهم ، فتولى الحكم ابنه الملك المظفر ، وتمت مفاوضات بين الملك المظفر ، والمغول ، وتمّ الصلح مع المغول .

وكان هولاکو قد أرسل بـ : « كوهداي » أحد كبار أمراء المغول إلى ماردین ، وأعلن كوهداي إسلامه على يد الملك المظفر ، وزوجه الأخير أخته ، وأعقب ذلك مسير الملك المظفر بنفسه إلى هولاکو في رمضان من السنة نفسها يحمل الهدايا إليه ، فاجتمع به هولاکو ، وأكرمه ، ثم قال له : بلغني : أن أولاد صاحب الموصل هربوا إلى مصر ، وأنا أعلم : أن أصحابهم كانوا سبب ذلك ، فاترك أصحابك الذين رافقوك عندي ، فإني لا آمن أن

(١) الأغلاق الخطيرة (٣ / ٥٦٦ - ٥٦٨) ، و : جهاد المماليك

يحفرك عني ، ويرغبوك في النزوح عن بلادك إلى مصر ، وإذا ما دخلت البلاد فاصطحبهم معي ^(١) .

فأجابه الملك المظفر إلى ذلك ، ثم قفل عائداً إلى بلاده ، وفي الطريق أرسل هولاءكو في طلبه يأمره بالعودة إليه ثانية ، فعاد إليه يرتجف خوفاً ، فلما اجتمع به ؛ قال له هولاءكو : إن اصحابك أخبروني : أن لك باطناً مع صاحب مصر ، وقد رأيت أن يكون عندك من جهتي من يمنعك من التسلل إليهم ، ثم عيّن لذلك أميراً يدعى « أحمد بغا » وأعادهما إلى ماردين ، بعد أن أضاف إلى الملك المظفر نصيبين ، والخابور ، ومنطقة لا يستهان بها من ديار بكر ، ضمت إلى آمد ، وميافارقين ، كما ألحق بإمارته بعض المدن التي سيطر عليها المغول في الجزيرة كقرقيسيا حيث أبقى المغول قوة لحفظ المعابر ^(٢) .

وفي الوقت نفسه أمر هولاءكو الملك المظفر بهدم أبراج قلعة ماردين ، وما أن غادر الملك المظفر معسكر هولاءكو حتى أقدم الأخير على ضرب رقاب أصحاب الملك السعيد ، وكان عددهم سبعين رجلاً من كبار أمراء ماردين ، ولم يكن لأيّ من هؤلاء ذنب يذكر ، ولكن قصد بقتلهم أن يقصّ جناح الملك المظفر ^(٣) .

(١) جهاد المماليك ص : ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٨٤ .

وغدت مدينة ماردين ولاية مغولية ، ينفذ حكامها ما يأمرهم به قادة المغول ، ويلتزمون بالخطوط العامة لسياستهم الخارجية ، وتحركاتهم العسكرية ، ويقدمون لهم المال ، والإمدادات العسكرية ، ويضربون السكة باسمهم ، ويخطبون لهم ، وحقق المغول بإدخالهم إمارة ماردين ، وغيرها تحت سيطرتهم هدفهم المنشود ، وهو السيطرة على منطقة ديار بكر ، واتخاذها مركزاً لتنظيم الهجمات على الجهات الغربية من العالم الإسلامي ^(١) .

ثانياً : السلطان الناصر بين المقاومة والاستسلام :

أقدم الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ، ودمشق الذي يُعَدُّ أعلى الأمراء الأيوبيين شأنًا في بلاد الشام على إعلان الخضوع لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة ، فقد استجاب لأمر هولاكو ، فأنفذ إليه ابنه الملك العزيز يحمل الهدايا ، والتحف ومعه عدد من الأمراء ، فلما وصل العزيز إلى معسكر هولاكو ، وسلمه ما معه من الهدايا ، والتحف التي تعبّر عن الولاء ، والتبعية لهولاكو ، طلب منه العزيز على لسان والده أن يرسل إليهم نجدة لمساعدتهم في استعادة الأراضي المصرية من أيدي المماليك ^(٢) .

(١) المصدر نفسه ص : ٨٧ .

(٢) السلوك نقلاً عن جهاد المماليك ص : ٦٩ .

١ - ردُّ هولاءكو على الملك الناصر :

رأى هولاءكو أن عدم استجابة الملك الناصر يوسف لأوامره بالخروج إليه بنفسه يعدُّ تمرداً على أوامره ، وأن الوفد الذي أرسله الملك الناصر إليه لا يناسب مقامه ، ولم يكتف بعدم الاستجابة لطلبه هذا ، بل أصر هذه المرة على خروج الملك الناصر إليه بنفسه لتقديم الولاء ، والطاعة ، ومعه قوة قوامها عشرون ألف فارس ، حيث أعاد هولاءكو الملك العزيز إلى أبيه ، ومعه رسالة ذكّر فيها من صنوف العذاب ، والدمار ، والهلاك ما ذكر ^(١) ، وجاء فيها :

الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب : أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنيانها ، وأسروا سكانها ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] ، واستحضرنا خليفتها ، وسألناه عن كلمات ، فكذب ، فواقعه الندم ، واستوجب منا العدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة ، وكانت نفسه خسيصة ، فجمع المال ، ولم يعبأ بالرجال ، وكان قد نما ذكره ، وعظم قدره ، ونحن نعوذ بالله من التمام ، والكمال :

إِذَا تَمَّ أَمْرُ دُنَا نَقْصِهِ تَوَقَّ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ
 إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإِنَّ الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ
 وَكَمْ مِنْ فَتًى بَاتَ فِي نِعْمَةٍ فَلَمْ يَدْرِ بِالمَوْتِ حَتَّى هَجَمَ
 إِذَا وَقَعْتَ عَلَى كِتَابِي هَذَا ؛ فَسَارِعْ بِرَجَالِكَ ، وَأَمْوَالِكَ ،
 وَفِرْسَانِكَ إِلَى طَاعَةِ سُلْطَانِ الْأَرْضِ (شاهنشاه روي زمين) أَي :
 مَلِكِ الْمُلُوكِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ؛ تَأْمِنْ شِرَّهُ ، وَتَتَلَّ خَيْرَهُ ، كَمَا
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (٣٩) وَأَنَّ
 سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى ﴾ [النجم : ٣٩ - ٤١] ،
 وَلَا تَعَوَّقْ رِسْلَنَا عِنْدَكَ كَمَا عَوَّقْتَ رِسْلَنَا مِنْ قَبْلِ ﴿ فَأَمْسَاكُمُ بِمَعْرُوفٍ
 أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ ﴾ ، وَقَدْ بَلَّغْنَا : أَنْ تَجَارَ الشَّامَ ، وَغَيْرَهُمْ أَنْهَزْمُوا
 بِحَرِيمِهِمْ إِلَى كِرْوَانِ سَرَايِ (١) ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْجِبَالِ ؛ نَسَفْنَاهَا ،
 وَإِنْ كَانُوا فِي الْأَرْضِ ؛ خَسَفْنَاهَا (٢) .

أَيْنَ النِّجَاةُ وَلَا مَنَاصَ لِهَارِبٍ وَلِي الْبَسِيطَانِ الثَّرَى وَالْمَاءُ
 ذَلَّتْ لِهَيْبَتِنَا الْأَسْوَدُ وَأَصْبَحَتْ فِي قَبْضَتِي الْأَمْرُ وَالْوَزَارُ (٣)
 هَذَا طَرَفٌ مِنَ الْحَرْبِ النَّفْسِيَةِ الَّتِي كَانَتْ التَّتَارُ يَشْتُونُهَا ضَدَّ
 أَعْدَائِهِمْ (٤) .

(١) كَانَ هَذَا هُوَ الْأَسْمُ التَّتَارِي لِمَصْرَ .

(٢) السُّلُوكُ (١ / ٥٠٦) .

(٣) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ (١ / ٥٠٦) .

(٤) سَيْفُ الدِّينِ قَطْزُ ص : ٨٦ ، قَاسَمُ عِبْدِهِ .

٢ - استنجد الناصر بالمماليك :

رفض الملك الناصر دعوة هولاكو ، وأرسل إليه رداً مليئاً بالسباب ، وقلب سياسته تجاه المغول رأساً على عقب ؛ حيث أقدم عندما بلغه عبور القوات المغولية نهر الفرات على إرسال رسول من قبله هو صاحب كمال الدين بن العديم إلى المماليك في مصر يستنجد بهم ضد جيوش هولاكو ؛ التي بات هجومها وشيكاً على بلاد الشام ، وأمام هذا التصرف الجريء للملك الناصر يوسف ؛ أدرك هولاكو - على ما يبدو - فشل سياسة التشدد التي اتبعتها مع الملك الناصر ، والتي أدت به إلى الارتقاء في أحضان المماليك في مصر ، وبدأ هولاكو يفكر في تلافي ذلك الخطأ ؛ حيث سارع بإرسال نجدة سريعة إلى الملك الناصر في دمشق ، ولكن هذه النجدة لم تؤت ثمارها بالنسبة لهولاكو ، بل زادت فكرة التصالح بين المماليك ، والأيوبيين ؛ إذ يذكر المقرئزي : أن السلطان المملوكي المظفر قطز عندما علم بوصول تلك النجدة المغولية إلى الملك الناصر بدمشق ؛ بعث إليه كتاباً أقسم له فيه بالأيمن : أنه لا ينازعه في الملك ، ولا يقاومه ، وأنه نائب عنه بديار مصر ، وختم كتابه بهذا بقوله :

وإن اخترتني ؛ خدمتك ، وإن اخترت ؛ قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فإن كنت لا تأمن حضوري ؛

سَيَّرَتْ إِلَيْكَ الْعَسَاكِرَ صَحْبَةً مَنْ تَخْتَارُ ^(١) .

٣ - سقوط حلب :

كانت مدينة حلب أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية ، فقد أصدر هولاكو أوامره لقوّاته بعبور نهر الفرات ، ومهاجمة بلاد الشام ، ووصل الخبر بذلك إلى حلب ، وكان يحكمها الملك المعظم تورانشاه نائباً عن الملك الناصر ، فانجفل الناس خوفاً من المغول إلى دمشق ، وعظم الخطب على من بداخلها ، وقبل وصول القوات المغولية إلى حلب ، أرسل هولاكو كعادته إنذاراً إلى صاحبها ، إلا أن الملك المعظم الأيوبي ردّ عليه بقوله : ليس لكم عندنا إلا السيف ^(٢) .

ثمّ احترز على حلب ؛ حتى صارت في غاية الحصانة ، والمنعة بأسوارها المحكمة البناء ، وقلعتها المنيعة ، وبما نصبه عليها من آلات دفاعية ^(٣) . وفي العشرة الأخيرة من ذي الحجة سنة ٦٥٧ هـ نوفمبر ١٢٥٩ م قصد المغول مدينة حلب ، ونزلوا على قرية يقال لها سلمية ، وامتدّوا إلى قريتي : حيلان ، والحاري ، وهما من قرى حلب ، ثم سيروا فرقة من عسكرهم

(١) جهاد المماليك ص : ٧٠ .

(٢) المختصر في أخبار البشر (٣ / ٢٠١) ، و : جهاد المماليك ص : ٨٩ .

(٣) النجوم الزاهرة (٣ / ٢٠١) ، و : جهاد المماليك ص : ٨٩ .

باتجاه حلب ، فخرج عسكر المسلمين ومعهم جمع غفير من العوام ، والسوقة ، وأشرفوا على المغول ، وهم نازلون على تلك الأماكن ، وقد ركبوا جميعهم لانتظار عسكر حلب ، فلما تحقق المسلمون كثرتهم ؛ كروا راجعين إلى المدينة ، وأصبح الملك المعظم تورانشاه بعد ذلك يصدر أوامره إلى قواته بالتحصن داخل حلب ، وعدم الخروج منها ^(١) .

وفي اليوم التالي تحرّكت القوات المغولية طالبةً حلب ، ولما وصلت جموع المغول إلى أسفل الجبل ؛ نزلت إليهم فرقة من جيش المسلمين لمقاتلتهم ، فلمّا شاهد المغول ذلك تراجعوا أمام الجيش الإسلامي مكرراً ، وخديعة لاجتذابهم بعيداً عن البلد ، فتبعهم عسكر حلب ساعةً من النهار ، ثم كرّ الجيش المغولي ، وخرج من مكانه ، فاندفع المسلمون أمامه إلى جهة البلد ، والعدو في أثرهم ، ولمّا حازوا جبل بانقوسا وعليه بقية الجيش الإسلامي ؛ اندفعوا جميعاً نحو المدينة ، والعدو مستمرّ في مطاردتهم ، فقتل من المسلمين جمعٌ كثير من الجند ، والعوام ، ونازل المغول حلب ذلك اليوم إلى آخره ، ثم رحلوا عنها إلى إغزاز ، فتسلّموها بالأمان ^(٢) .

(١) جهاد الماليك ص : ٨٩ .

(٢) النجوم الزاهرة (٧ / ٧٥ - ٧٧) ، و : جهاد الماليك ص : ٩٠ .

أ - الاضطرار إلى التسليم :

عاود المغول هجومهم على حلب في ثاني صفر من ٦٥٨ هـ / يناير ١٢٦٠ م ، وأحكموا حصارها بحفر خندق حولها عمقه قامة ، وعرضه أربعة أذرع ، وبنوا حائطاً بارتفاع خمسة أذرع ، ثم نصبوا عليها عشرين منجنيقاً ، وشرعوا في رميها بالحجارة ، ونقب أسوارها ، ومهاجمتها من كل الجهات ، حتى اضطرت إلى التسليم في التاسع صفر من ٦٥٨ هـ / يناير ١٢٦٠ م ، ولمّا ملكوها ؛ غدروا بأهلها ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ونهبوا الدور ، وسبوا النساء ، والأطفال ، ثم استباحوا المدينة خمسة أيام ، عاثوا فيها فساداً حتى امتلأت الطرقات بجثث القتلى . ويقال : إنه أسر من حلب زيادة على مئة ألف من النساء ، والصبيان ، ولم يسلم من أهل حلب إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون ، ودار نجم الدين أخي مردكين ، ودار البازيد ، ودار علم الدين قيصر الموصلية ، والخانقاه التي لزين الدين الصوفي ، وكنيسة اليهود بفرمانات كانت بأيديهم . وقيل إنه سلم بهذه الأماكن من القتل ما يزيد عن خمسين ألف نفس ^(١) .

ب - هدم أسوار المدينة وقلعتها ومساجدها :

لجأ الملك المعظم تورانشاه إلى القلعة ، ومع جمع كثير من

(١) السلوك للمقريزي نقلاً عن جهاد المماليك ص : ٩٠ .

حلب ، واستمرَّ الحصار على القلعة ، وشدَّد المغول مضايقتهم لها نحو شهر ^(١) ، ويبدو : أنَّ خيانة حدثت في جيش الملك المعظم سهلت للمغول مهمتهم في تشديد حصارهم للقلعة ، ومعرفة مواطن الضعف فيها ، ومن ثم تثبيط همم المقاتلين داخلها ، الأمر الذي ترتب عليه تسليم القلعة إلى المغول رغم حصانتها بكلِّ سهولة ، ودخل هولاء بعد ذلك إلى القلعة ، وخربها ، وهدم أسوار المدينة ، وجوامعها ، ومساجدها ، وبساتينها ، وعقَّ آثارها ؛ حتى غدت بلدةً موحشةً ، بعد أن كانت تعدُّ من أزهى مدن الشام ، وخرج إليهم الملك المعظم تورانشاه . ويذكر المقرئ : أن هولاء لم يتعرضوا بسوء لكبر سنه ^(٢) ، ولا يستبعد أن يكون الملك المعظم قد أصيب خلال حصار المغول للمدينة والقلعة بجراح بالغة ، أو بمرض لم يعد يرجى برؤه ، أو أن هولاء قد دبَّر قتلَه سرّاً ، بدليل ما ذكره المقرئ نفسه من أن الملك المعظم توفي بعد ذلك بأيامٍ قلائل ^(٣) .

ج - غنائم لحلفاء هولاء من النصاري :

لم يشأ هولاء أن تمرَّ فرصة ستيلائه على حلب دون أن

(١) المختصر في أخبار البشر ص : ٢٠١ ، و : جهاد المماليك ص : ٩١ .

(٢) المقرئ السلوك نقلاً عن جهاد المماليك ص : ٩١ .

(٣) السلوك نقلاً عن جهاد المماليك ص : ٩١ .

يكافئ حليفه ، هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى ، وبوهيمند السادس الصليبي أمير أنطاكيا اللذين ساعدها في ذلك العمل ، حيث قام بإعطاء ملك الأرمن جزءاً من الأنفال ، وأعاد إليه الأقاليم ، والقصور التي كان مسلمو حلب قد استولوا عليها منهم ، كما ردَّ إلى بوهيمند جميع الأراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها من إمارته ، وعبر هيثوم عن ابتهاجه بذلك بإحراق الجامع الكبير في حلب بنفسه انتقاماً من المسلمين^(١) .

وهكذا سقطت مدينة حلب في يد المغول ، وحقق هولاکو بذلك ما لم يستطع تحقيقه الأمراء الصليبيون ، والأباطرة البيزنطيون ، وحطم حصناً عظيماً من حصون الإسلام ، وغدت هذه المدينة ، التي كانت تعتبر بحق من أروع ، وأزهى مدن الشام خربة يائسة ، وعين عليها هولاکو حاكماً من قبله^(٢) ، وقد أثار سقوط هذه المدينة التي كانت موطن حركة الجهاد ضد الصليبيين الفزع ، والوجل في نفوس المسلمين ببلاد الشام ، فوصل إلى هولاکو بحلب كثير من أمراء المسلمين ؛ ليعلنوا ولاءهم ، وخضوعهم ، ومنهم الملك الأشرف موسى الأيوبي ، صاحب حمص ، الذي سبق أن انتزع منه الناصر إمارته ، فأعادها إليه هولاکو ، على أن تكون إقطاعاً وراثياً له من قبل هولاکو ، ولما

(١) تاريخ الدولة المغولية في إيران ص : ١٤١ عبد السلام فهمي .

(٢) جهاد المماليك ص : ٩٢ .

رفض رجال حامية مدينة حارم الاستسلام إلا لقائد حامية حلب ؛ اعتبر هولاكو ذلك إهانة له ، وانتقاصاً من مكانته ، فأمر بقتل أهل حارم عن آخرهم ، وسبي نسائهم ، وأطفالهم ، ثم ألحق بهم رجال الحامية جميعاً^(١) .

٤ - دمشق :

بعد سقوط حلب أرسل هولاكو رسلاً من قبله إلى دمشق دخلوها ليلة الإثنين السابع عشر من صفر سنة ٦٥٨ هـ / فبراير ١٢٦٠ م وهم يحملون فرماناً منه بتأمين المدينة ، وأهلها مقابل تسليمها ، وقرئ هذا المرسوم على الناس بدمشق بعد صلاة الظهر^(٢) .

أ - موقف بيبرس البندقداري :

وفي هذا الموقف الحرج أشار بعض كبار أهل دمشق - وعلى رأسهم الأمير زين الدين الحافظي - بمدارة المغول ، والدخول في طاعة هولاكو ؛ لتجنب دمشق ، وأهلها ما حلّ بحلب من الهلاك ، والدمار ، والخراب ، ولكن ذلك الرأي لم يجد التأييد الكامل من أهل دمشق ، حيث رفضه البعض^(٣) ، وعلى رأسهم

(١) المصدر نفسه ص : ٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٩٣ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٩٤ .

ركن الدين بيبرس ، وصاح في وجه زين الدين قائلاً : أنتم سبب هلاك المسلمين ، ويبدو : أن الملك الناصر كان على رأي زين الدين الحافظي ، فحاول بعض أتباع بيبرس من طائفة المماليك البحرية قتل الملك الناصر ، وتولية حاكم آخر عالي الهمة ، نافذ الرأي ، يستطيع جمع الناس للجهاد في سبيل الله ، وقيادتهم في ميدان القتال لصدّ العدوان المغولي ، والدفاع عن الإسلام وأهله ، إلا أن بيبرس تخلى عن دمشق ، وذهب مع جماعة من المماليك البحرية إلى غزّة ، حيث استقبله أميرها أحسن استقبال ، وفيها سبّر بيبرس رسولاً من قبله إلى السلطان المظفر قطز ليحلفه على إعطائه الأمان ، ونجح في المصالحة مع قطز الذي وعده الوعود الجميلة ، ثم سافر إلى بيبرس إلى مصر ، وانضم إلى قيادة قطز ، وأصبح من أكبر أعوانه الذين ساهموا للتخطيط لمعركة عين جالوت وقيادة الجيوش الإسلامية وتحقيق ذلك النصر المؤزر الذي بدّد أحلام المغول بكاملها ^(١) .

ب - تسليم دمشق :

خرج الملك الناصر من دمشق ، ومعه جمعٌ من أتباعه يريد غزّة ، وترك دمشق في حالة يرثى لها ، وقصد جمعٌ من أكابر دمشق ، وأعيانها حضرة هولاكو ، ومعهم التحف ، والهدايا ، ومفاتيح بوابات دمشق ، وأظهروا الطاعة ، والخضوع له ،

(١) جهاد المماليك ص : ٩٥ .

وسلّموا المدينة ، وأرسل هولاء القائد كيتوبوقا إلى دمشق لاختبار أهلها ، فاستقبله أهل المدينة ، وطلبوا منه الأمان ، ثم أرسل أعيانهم إلى بلاط هولاء . وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ، ولا قتال ، وولّى عليها هولاء جماعة من المغول ، وعين ثلاثة من أهلها لمساعدتهم في تصريف الأمور بها ^(١) .

وأما قلعة دمشق فقد استعصت على المغول ، ورفض من بداخلها التسليم لهم ، وفي هذا الوقت وصل إلى دمشق الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاء ومعه مرسوم بأنّه نائب السلطنة لدمشق ، والشام كلها ، وتمّ حصار القلعة ، وضربها بالمنجنيقات ، وخرب من القلعة مواضع ، وطلب من بداخلها الأمان ، ودخلها المغول ، ونهبوا ما كان فيها من الكنوز ، والدفائن ، وأحرقوا مواضع كثيرة منها ، وهدموا عدداً كبيراً من أبراجها ، وأتلفوا سائر ما بها من الآلات ، والعدد ^(٢) .

ج - تسليم حماة :

أما مدينة حماة ؛ فإن صاحبها الملك المنصور الثاني كان قد حضر إلى برزة ليتجهز مع الملك الناصر ، فلما سمع أهل البلد في غيبته بأخذ حلب ؛ أرسلوا رسولاً من قبلهم إلى هولاء ، يسألونه العطف ، وسلّموا له البلد ، فأعطاهم الأمان ، وجعل عندهم

(١) جمع التواريخ (٢ / ٣٠٧ - ٣٠٨) ، و : جهاد المماليك ص : ٩٦ .

(٢) دول الإسلام للذهبي نقلاً عن جهاد المماليك ص : ٩٧ .

شحنة من قبله ، أما قلعة حماة ؛ فيبدو أن ما حلَّ بحلب ، وأهلها ، وقلعتها من الأهوال فضلاً عن هروب الملك المنصور صاحبها قد دفع متوليها إلى المسارعة بالتسليم للمغول^(١) . وبعد أن تمَّ للمغول السيطرة على حلب ، ودمشق ، وحماة ، وغيرها من البلدان المجاورة ؛ أصبح استيلاؤهم على بقية مدن الشام مسألة وقت ، كان على القائد المغولي أن يختاره متى شاء ، وذلك بسبب ما حل ببلاد الشام من الأهوال ، والفرع ، والخوف ، فضلاً عن تفرق كلمة الأمراء الأيوبيين . ففي الأسابيع القليلة التالية أتم القائد المغولي كيتوبوقا - الذي أوكل إليه هولاء مهمة إتمام الاستيلاء على بلاد الشام بعد عودته من حلب إلى مدينة مراغة للمشاركة في انتخاب الخان الجديد^(٢) - السيطرة على بلاد الشام ؛ حيث توجه إلى نابلس ، وحينما حاول أهلها المقاومة ؛ جرى قتل عددٍ كبير منهم ، ثم أغارت جموع المغول على سائر بلاد الشام ، حتى وصلت إلى أطراف غزّة ، وبيت جبريل ، والصلط ، وبعلبك ، وبانياس ، وغيرها ، واستولوا عليها ، وقتلوا ، وسبوا ما قدروا عليه ، ثم عادوا إلى دمشق ، فباعوا بها ما غنموه من هذه المدن^(٣) .

(١) المختصر (٣ / ٢٠١) ، و : جهاد المماليك ص : ٩٧ .

(٢) جهاد المماليك ص : ٩٧ .

(٣) أخبار البشر (٣ / ٢٠٢) ، و : جهاد المماليك ص : ٩٨ .

د - موقف النصاري في الشام :

جاءت سيطرت المغول شديدة الوطأة على المسلمين في بلاد الشام ؛ إذ إنهم بادروا قبل كل شيء إلى تدمير الاستحكامات ، والأسوار ، والقلاع في البلاد التي خضعت لهم ، مثل : حلب ، ودمشق ، وحمص ، وحماة ، وبلبك ، وبانياس ، وغيرها ، وحققوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل ^(١) .

ولقد مال المغول منذ اللحظة الأولى لغزوهم للشرق الأدنى إلى العنصر المسيحي السطوري ، ولعلّ وصية منكوك خان لأخيه هولاكوك التي نصّت على استشارة هولاكوك لزوجته دوقوز خاتون التي كانت مسيحية نسطورية خير دليل على ذلك ، وقد أدّى وجودها في ركاب زوجها هولاكوك إلى التفاف المسيحيين الشرقيين حول المغول ؛ إذ المعروف : أن النساطرة ازداد عددهم في الجيش المغولي ، ووصلوا إلى حدّ قيادة الجيوش المغولية ، ف : « كيتوبوكا » كان من عنصر النايمن النساطرة ، وكان من الطبيعي أن يتآخى هؤلاء النساطرة مع الجماعات الأرمنية ، واليعاقبة ، وغيرهم التي تكاثرت عددها في كبرى مدن الشام ^(٢) . وقد أدّى هذا التلاحم إلى مشاركة العنصر المسيحي على مستوى قيادة الجيوش في اقتحام مدن الشام ، وهولاكوك عندما اقتحمت جيوشه مدينة

(١) المغول للعربي ص : ٢٤٨ .

(٢) المغول للعربي ص : ٢٤٨ .

حلب كان بصحبته ملك أرمينية هيثوم الأول ، وصهره بوهمند السادس أمير إنطاكيا ، كما شهدت عاصمة الخلافة الأموية دمشق لأول مرة منذ ستة قرون ثلاث أمراء مسيحيين هم : كيتوبوقا ، وهيثوم ، وبوهمند ، يشقون بمواكبهم شوارعها ^(١) .

ويصح أن نؤكد : أنَّ غزو المغول لبلاد المسلمين في الشام اتخذ طابعاً صليبيّاً ، وقد ذكر : أن هولاكو عندما غزا بلاد الجزيرة قدم عليه جاشليق الأرمني ، ومنحه البركات ، ولما كان هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى في اتصاله مع المغول يتحدّث باسمهم واسم صهره بوهمند السادس أمير إنطاكيا الصليبي فإن هذه الحملة قد اتخذت صفة حملة صليبية أرمينية - مغولية ^(٢) .

والواقع : أن سقوط المدن الثلاث الكبرى ، بغداد ، وحلب ، ودمشق في أيدي المغول يعتبر من الكوارث الفاجعة التي هزّت العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، وترتب على سقوط دمشق في أيدي المغول أن أعلن المسيحيون بها التمرد ، والشموخ ، ولم يخفوا فرحتهم بما حلّ بالمسلمين من نكبة ، ولم يخف القائد المغولي « كيتوبوقا » نفسه ما يكنه من الميل نحو هؤلاء المسيحيين ، وتردّده إلى كنائسهم ، وذهب بعضهم إلى هولاكو ، وأحضروا من عنده « فرماناً » ينصّ على الاعتناء بأمرهم ، ودخلوا

(١) المصدر نفسه ص : ٢٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٢٤٢ .

به البلد ، وصلبانهم مرتفعة ، وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم وأنّضاع دين الإسلام ، ورشّوا الخمر على ثياب المسلمين ، وأبواب المساجد ، وألزموا المسلمين في حوانيتهم بالقيام للصليب ، ومن لم يفعل ذلك ؛ أهانوه ، وأقاموه غضباً ، وطافوا وهم يحملون الصلبان ، ويدقّون النواقيس في الشوارع إلى كنيسة مريم ، وقام بعضهم أثناء المسيرة بإلقاء الخطب ، فبجّل دين المسيح ، وانتقص دين الإسلام .

وضجر المسلمون من ذلك ، وصعدوا مع قضاتهم ، وشهودهم إلى نائب هولاء بالقلعة ، فلم يستجب لشكواهم ، وأخرجهم من القلعة بالضرب ، والإهانة ، وأخذت نائب هولاء موجة من الاهتمام بالنصارى - فجعل يزور الكنائس ، ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم ، فاشتدّت ثائرة المسلمين للانتقام لمقدساتهم ، فقاموا بإحراق كنيسة مريم ، وخرّبوا جزءاً من كنيسة اليعاقبة ^(١) .

ويمكن القول : إن هذا التلاحم بين القوى المغولية ، والقوى المسيحية الشرقية ، الذي أثمر استيلاءهم على بلاد الشام ، وتحطيم استحكاماتها ، ومن ثمّ التطاول على المسلمين بها ، والاعتداء على مقدساتهم كان أحد العوامل التي دفعت المسلمين في الأراضي المصرية إلى تدارك الأمر ، واستنفار كامل

(١) جهاد المماليك ص : ١٠٢ ، و : البداية والنهاية (١٧ / ٣٩٨) .

قواهم ، ومن ثمّ إعلان حركة الجهاد الإسلامي المقدّس ضدّ المغول ، وحلفائهم ؛ حتى تحقق لهم ذلك النصر العظيم في معركة عين جالوت ^(١) .

٥ - نهاية السلطان الناصر الأيوبي :

أصبح الملك الناصر مسلوب الإرادة مرعوباً ، ليس له رأي ، وعندما شاهد جنده ، ومماليكه هذه الحال ؛ قرّروا تنحيته باغتياله ، أو القبض عليه ، وسلطنة أخيه الملك الظاهر غازي بن العزيز لشهامته ^(٢) ، وعلم الناصر بالأمر ، فترك المعسكر هارباً بالليل إلى قلعة دمشق ، فأسقط بيد مماليكه الناصرية ، وأعاناهم ، فهربوا ومعهم الظاهر غازي إلى غزّة ^(٣) ، وكان تسارع الأحداث في الشام أكبر من أن يترك صدىً أو ذيولاً لهذه المحاولة الفاشلة ، فالتار لا يهدؤون ، وقد انضم إليهم - علناً - الأشرف بن المجاهد ، فأعادوا له حمص ، وأعمالها ، وكذلك الملك السعيد بن عبد العزيز ، حيث أطلقه هولاءكو من سجن البيرة ، وأعاد له ولايته على بانياس ، وقلعتها التي تعرف بالصبيبة ^(٤) ، فقرر الملك الناصر الانسحاب جنوباً نحو مصر ،

(١) جهاد المماليك ص : ١٠٢ .

(٢) السلوك للمقريزي (١ / ٥١٢) ، و : جهاد المماليك ص : ٧٤ .

(٣) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ / ٧٤) .

(٤) المصدر نفسه (٢ / ٧٤) .

وقد تضرّلت العسكر ، وتصرّمت ، وقُلّت الحرمة ، وطمع كلُّ أحدٍ ، ولم يبق عند الناصر إلا قوم قلائل ، وسار الملك الناصر عن دمشق على أمل جمع الكلمة مع المظفر قطز للقاء التتار ، وأخذ ما بقي معه من الجيش ، وترك دمشق خالية من العسكر ، وأهلها على الأسوار يشتمونهم ، ويدعون عليهم ، ويقولون : تركتمونا طعمة للتتار ، لا كتب الله عليكم السلامة ^(١) ! وعبر الزين الحافظي إلى دمشق ، وأغلق أبوابها ، وسير الناصر طلبه ؛ ليجتمع به ، فامتنع عن الخروج إليه ، وجمع أكابر دمشق ، واتفق معهم على تسليم دمشق لنواب هولاءكو ^(٢) .

وسار الناصر ، ومعه المنصور محمد صاحب حماه ، فوصل نابلس ، حيث ترك بها حامية ، ولما وصل غزة ؛ انضم إليه مماليكه الفأزون ، وتصالح مع أخيه غازي ، وعلم الناصر في غزة : أن التتار قد احتلوا نابلسن ، فقصد العريش ، وأرسل يخبر قطز ، ويسأله الاجتماع لمواجهة التتار ، ويبدو : أنّ جواباً شافياً مطمئناً لم يصل من قطز إلى الناصر « فاستراب الناصر بأهل مصر » ^(٣) ، وكان قد بلغ قطية « فخاف الناصر دخول مصر ،

(١) المصدر نفسه (٢ / ٧٤) .

(٢) أخبار الأيوبيين ، ابن العميد ص : ٥١ ، و : العلاقات الدولية (٢ / ٧٤) .

(٣) العلاقات الدولية (٢ / ٧٥) نقلاً عن تاريخ ابن خلدون .

فُيَقْبَضُ عليه»^(١) ، فسمح الناصر لمن يريد من مرافقيه دخول مصر ، فحزم المنصور محمد أمره ، ودخل المنصور والعسكر مصر ، فالتقاهم قطز ، وأحسن للمنصور ، وأعطاه سنجقاً ، ودخلوا القاهرة^(٢) . وأما الملك الناصر ؛ فقد أعمته الحيرة فيما يفعل ؟ وأين يتوجه ؟ وأخذ يفكر بالتوجه نحو الحجاز ، ثم عدل إلى ناحية الكرك ، فتحصّن به ، ولكنه قلق ، فركب نحو البرية ، واستجار ببعض أمراء الأعراب^(٣) .

وربما بسبب الطمع ، أو نيل الخطوة لدى التتار قام واحد من مرافقيه ، وخدمه هو حسين الطبردار الكردي^(٤) ، بالتوجّه إلى إحدى سرايا التتار التي أخذت تنتشر جنوب الأردن ، وفلسطين ، وأعلمهم بمكان وجود الملك الناصر « فقصدته التتار ، وأتلفوا ما هنالك من الأموال ، وخربوا الديار ، وقتلوا الكبار ، والصغار ، وهجموا على الأعراب التي بتلك النواحي ، وقتلوا منهم خلقاً ، وسبوا نسلهم ، ونساءهم ، وقبضوا على الملك الناصر ، وأرسلوه مع أخيه الظاهر غازي بن محمد ، وابنه العزيز محمد بن يوسف ،

(١) المختصر (٢٠١ / ٣) ، و : العلاقات الدولية (٧٥ / ٢) .

(٢) عقدة الجمال للعيني (٢٣٢ / ١) ، و : العلاقات الدولية (٧٥ / ٢) .

(٣) البداية والنهاية (٢٣٣ / ١٣) ، و : العلاقات الدولية (٧٥ / ٢) .

(٤) هو الحارس الشخصي للسلطان .

وإسماعيل بن شيركوه إلى كتبغا نوين الذي سيّره بدوره إلى هولأكو ، وأقام الناصر عند هولأكو حتى بلغهم أخبار هزيمة التتار في عين جالوت ، فقام هولأكو بقتل الناصر ، ثم قتلوا بقية من كان معه ، ولم ينج من نقمة هولأكو إلا العزيز محمد بن الناصريوسف لصغر سنه ؛ حيث بقي عند التتار حتى مات « (١) .



(١) العلاقات الدولية (٢ / ٧٦) ، و : شفاء القلوب ص : ٤٢٠ .

المبحث الثاني

مقدمات معركة عين جالوت وسير أحداثها

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في أيدي المغول ، وحلفائهم أن عمَّ الرُّعب ، والخوف سائر أرجائها ، فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية ، وقد انغرس داخل نفوسهم نتيجة ما شاهدوه من الأهوال ، وبسبب ما حل بهم وبيلادهم من الدمار ، والخراب ، والهلاك ، وأن الشيء الذي سينقذ المسلمين ، وممتلكاتهم من الزحف المغولي المدمر هو البحث عن قيادة حكيمة قوية تترجم نواياهم تلك بإنهاء خلافاتهم ، وتوحيد كلمتهم ، وإعادة تنظيم جموعهم ، ومن ثم بعث روح الجهاد الإسلامي في نفوسهم لدرء ذلك العدوان الذي استشرى خطره ، وبات يهدّد ما تبقى من العالم الإسلامي بالدمار ، والهلاك ، والواقع : أن مصر في ذلك الوقت كان كل شيء فيها ينبىء بظهور قوة جديدة ^(١) .

(١) جهاد المماليك ص : ١٠٥ .

أولاً : احتلال مصر هدف استراتيجي للمغول :

إنَّ المتتبع لخط سير التتار سيدرك على وجه اليقين : أن مصر هدفاً استراتيجياً للمغول ، وذلك لعدة أسباب ، منها :

١ - سياسة التتار التوسعية الواضحة ، وهم لا ينتهون من بلدٍ إلا ويبحثون عن الذي يليه ، ومصر هي التي تلي فلسطين مباشرة .

٢ - لم يبق في العالم الإسلامي بأسره قوةٌ تستطيع أن تهدد أمن التتار إلا مصر ، فقد سقطت معظم الممالك ، والحصون ، والمدن الإسلامية تقريباً ، وبقيت هذه القلعة الصامدة .

٣ - الموقع الاستراتيجي لمصر في غاية الأهمية ، فهي في قلب العالم القديم ، ومتحكم في خطوط التجارة العالمية .

٤ - احتلال مصر بوابة شمال إفريقيا ، وفي ذلك الوقت كان المغرب الكبير ، قد تمزَّق إلى دويلات صغيرة بعد سقوط دولة الموحَّدين ، ولم تكن لها القدرة على الوقوف أمام الإمبراطورية المغولية .

٥ - القوة البشرية في مصر ، والطاقات الكامنة بها ، واستيعابها لفلول المسلمين الهاربين من المغول كان مصدر قلق بالنسبة للمغول .

٦ - مقوِّمات حركة الجهاد الناجحة كانت متوفرةً في مصر من

قيادة واعية ، وحمية دينية ، وتجمع للعلماء ، والفقهاء
الفارين من هول المغول ، فكان المغول يخشون أن تتحوّل
تلك المقومات إلى مشروع إسلامي لتحرير ديار المسلمين
من الاحتلال المغولي ^(١) .

٧ - رغبة المغول في الهيمنة على العالم كلّه تستدعي منهم القضاء
على دولة المماليك ، ثم إن القرار باحتلال مصر أخذه
إمبراطور المغول في عاصمتهم بحضور كبار مستشاري
الإمبراطورية المغولية .

ثانياً : خطوات سيف الدين قطز لتوحيد الصف الإسلامي :

بات سيف الدين قطز يدرك إدراكاً تاماً : أن بقاء دولته الفتية
يتوقّف على اجتياز ذلك الامتحان الصعب المتمثل في
الغزوالمغولي للممالك الإسلامية الذي استشرى خطره ، وأن
يثبت : أنه بحق أهل الثقة التي أولاها إياه الأمراء في مصر ،
ورجل الساعة بالفعل بعد إجماعهم على عزل الملك المنصور عليّ
ابن المعز أيبك ، وتنصيبه على دولة المماليك ^(٢) ، ولكي تتوحّد
الصفوف أمام الأزمة ؛ اتخذ سيف الدين قطز الخطوات التالية :

(١) جهاد المماليك ص : ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٢٠٧ .

الخطوة الأولى: جمع الأمراء ، وكبار القادة ، وكبار العلماء ، وأصحاب الرأي في مصر ، وتناقشوا في أمر القيادة التي تتصدى للمغول ، وأجمع الحاضرون على أن الملك المنصور علي بن المعز أيك الذي كان صغير السن ضعيف الشخصية لم يكن لديه من الطاقة والقدرة ما يستطيع به مواجهة الأخطار ، والتحديات التي باتت تهدد دولة المماليك في مصر ، لذا قرروا عزل السلطان الصغير ^(١) ، وقال للحاضرين : إني ما قصدت (أي : من السيطرة على الحكم) إلا أن نجتمع على قتال التتار ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا ، وكسرنا هذا العدو ؛ فالأمر لكم ، أقيموا في السلطة من شئتم ^(٢) . فاستطاع قطز أن يجمع الناس على فكرة الجهاد ، والتصدي للغزاة ، وفوق ذلك أعلن بوضوح : أنه سيجعل الأمر في الناس ، يختارون من يشاؤون دون التقييد بعائلة معينة ، أو ممالك بذاتهم ^(٣) .

وسيرة الرجل تدل على أنه صادق فيما قال ، وأن الانتصار لهذا الدين ، ورغبته في قتال التتار أعلى بكثير من رغبته في الملك ، وقد جعل الله نصر الأمة على يديه ، وليس من سنة الله - عز وجل - أن يكتب نصر الأمة على يد المنافقين ،

(١) المصدر نفسه ص : ١٠٥ .

(٢) قصة التتار ص : ٢٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٢٤٦ .

والفاسدين . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٨١] . ومع أن قطز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد استخدم الأخلاق الرفيعة ، والأهداف النبيلة في جميع القادة ، والعلماء حوله ، إلا أنه لم يتخلَّ عن حزمه في الإدارة ، وعن أخذه بأسباب النصر ، واختيار الفريق المساعد له ، وإبعاد من لا يراه مناسباً ، فعزل الوزير « ابن بنت الأعز » المعروف بولائه الشديد لشجرة الدر ، وولَّى بدلاً منه وزيراً آخر يثق في ولائه وقدراته وهو « زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع » وحفظ الأمانة ، ووسَّد الأمور إلى أهلها ، وأقر قائد الجيش في مكانه ، وهو « فارس الدين أقطاي الصغير الصالح » مع أنه من المماليك البحرية الصالحية ، إلا أنه وجد فيه كفاءة عسكرية ، وقدرة قيادية ، وأمانة ، وصدقاً ، وهي مؤهلات ضرورية لأي إمارة ، وهذا ذكاء سياسي من قطز ، فهو بذلك يستميل المماليك البحرية الذين فروا في أنحاء الشام ، وتركيا ، ويث الإطمئنان في نفوسهم ، وهذا - ولا شك - سيؤدي إلى استقرار الأوضاع في مصر ، كما أنه سيجعل للمسلمين الاستفادة من الخبرات العسكرية النادرة للمماليك البحرية ، كما قام قطز بالقبض على بعض رؤوس الفتنة الذين حاولوا أن يخرجوا على سلطته ، وحكمه ، وبذلك هدأت الأمور نسبياً في مصر .

وعلم قطز : أن الناس إن لم يشغلوا بالجهاد ؛ شغلوا بأنفسهم ، ولذلك فبمجرد أن اعتلى على عرش مصر أمر وزيره زين الدين ، وكذلك قائد الجيش فارس الدين أقطاي الصغير أن يجهزا

الجيش ، وبعداً العدة ، وينظما الصفوف ، فانشغل الناس بالإعداد لمواجهة العدو ، لقد ساهمت هذه الخطوة في تقوية الوضع الداخلي ، وانشغل الناس بالجهاد ، وقام السلطان بإقامة الشرع ، والدفاع عن البلاد ، والقيام بشؤون الرعية ، وحماية مصالح الناس ، فاستقرت الأحوال المحلية ، وتوحد الصف الداخلي ، وهذه خطوة في تحقيق النصر ^(١) .

الخطوة الثانية : العفو الحقيقي : أصدر السلطان قطز قراراً بالعفو العام (الحقيقي) عن كل المماليك البحرية . لقد مرّ بنا كيف : أنه قد حدثت فتنة بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزّية ، وكانت بدايات الفتنة من ست سنوات (٦٥٢ هـ) ، عندما قُتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية ، ثم بدأت الفتنة تتفاقم تدريجياً إلى أن وصلت إلى الذروة بعد مقتل الملك المعز عز الدين أيبك ، ثم شجرة الدرّ ، ووصل الأمر إلى أن معظم المماليك البحرية - وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس - فروا من مصر إلى مختلف إمارات الشام ، ومنهم من شجع أمراء الشام على غزو مصر ، ووصل الأمر إلى حدٍ خطير .

فلما اعتلى قطز عرش مصر ؛ أصدر قراره الحكيم بالعفو عن المماليك البحرية ، وبدعوتهم إلى العودة إلى دولتهم ^(٢) .

(١) جهاد المماليك ص : ٢٤٨ .

(٢) قصة التتار ص : ٢٤٩ .

واستطاع قطز أن يقنع خصومه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام ، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري بالعودة إلى الأراضي المصرية ، والانضواء تحت لوائه متناسين ما بينهم من الخلافات ، بعد أن ثبت لهم عجز أمراء الشام من البيت الأيوبي عن مقاومة المغول ^(١) ، وكان سيف الدين قطز قد أدرك أهمية كسب ركن الدين بيبرس لصف المقاومة لأمر ، منها :

أ - الكفاءة القتالية العالية جداً ، والمهارة القيادية رفيعة المستوى لركن الدين بيبرس ، والحمية الإسلامية لهذا القائد الفذ .

ب - الذكاء الحاد الذي يتميز به بيبرس ، والذي سيحاول قطز أن يوظفه لصالح معركة التتار بدلاً من أن يُوظَّف في معارك داخلية ضدَّ المماليك المعزية .

ج - ولاء المماليك البحرية لركن الدين بيبرس ، وأنه إن ظل هارباً ؛ فلا يأمن أحد أن ينقلب عليه المماليك البحرية في أيِّ وقت ، لذلك فمن الأحكم سياسياً أن يستقطب بيبرس في صفه ، ويعظم قدره ، ويستغل قدراته ، وإمكانياته ، وبذلك يضمن استقرار النفوس ، وتجميع الطاقات لحرب التتار بدلاً من الدخول في معارك جانبية لا معنى لها .

(١) جهاد المماليك ص : ١٠٦ .

لذلك لمّا قدم بيبرس إلى مصر بعد استقدام قطز له ؛ عظم قطز من شأنه جداً ، وأنزله دار الوزارة ، وعرف له قدره ، وقيّمته ، وأقطعه (قليوب) وما حولها من القرى ، وعامله كأمر من الأمراء المقدّمين ، وجعله على مقدّمة جيوشه فيما بعد . وهنا نلاحظ من صفات قطز القيادية : العفو عند المقدرة ، وإنزال الناس منازلهم ، والفقّه السياسي الحكيم ، والحرص على الوحدة . وقد استطاع سيف الدين قطز أن يستفيد من طاقات المماليك البحرية ، وإمكانياتهم ، وتقوية الجيش بهم^(١) . وفتح أبواب مصر أمام فلول المماليك الإسلامية في الشرق الإسلامي ؛ التي تعرضت للغزو المغولي ، فدخل جموع الخوارزمية الفارة من وجه المغول لمصر ، ورخّب بهم سيف الدين قطز ، وكذلك جموع الشام ، ومعه الملك المنصور صاحب حماة^(٢) ، وغيرهم .

الخطوة الثالثة : حرص على التواصل مع الدولة الأيوبية ، فقد كانت العلاقة بين المماليك ، والأيوبية متوترة إلى حدّ كبير ، بل إن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق ، وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر ، إلا أن سيف الدين قطز سعى لإذابة الخلافات بينه وبين أمراء الشام ، وكان

(١) قصة التتار ص : ٢٥٣ .

(٢) جهاد المماليك ص : ١٠٦ .

يسعى إلى الوحدة مع الشام ، أو على الأقل تحييد أمراء الشام ، ليخلوا بينه ، وبين التتار دون أن يطعنوه في ظهره ، فتواصل سيف الدين قطز مع الملك الناصر الأيوبي ، وعرض عليه أن يكون تابعاً للناصر ، ثم إن قطز رَضِيَ اللهُ عَلَيْهِ علم أن الناصر يوسف قد يتشكك في أمر الوحدة الكاملة ، أو في أمر القدوم إلى مصر ، فعرض عليه بإمداده بالمساعدة لحرب التتار ، فتحققت المصلحة المشتركة في هزيمة التتار وإن لم تتحقق الوحدة الكاملة بين مصر ، والشام . قال قطز في أدب جم ، وخلق رفيع : وإن اخترتني ؛ خدمتك ، وإن اخترت ؛ قدمت ، ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فإن كنت لا تأمن حضوري ؛ سيرت لك العساكر صحبة مَنْ تختاره ^(١) .

لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذه النداءات النبيلة من قطز ، وآثر التفرُّق على الوحدة ، فماذا كانت النتيجة ؟ سقوط حلب ، ودمشق ، ووقوع الملك الناصر في الأسر ، ثم قتله بعد عين جالوت ، ولم يكتف قطز بهذه الجهود الدبلوماسية مع الناصر بل راسل بقية أمراء الشام ، فاستجاب له الأمير المنصور صاحب حماة ، والتحق بعض جيشه بقطز ، وأما المغيـث عمر صاحب الكرك بالأردن ؛ فقد آثر أن يقف على الحياد ، وقد حاول مرّتين قبل ذلك أن يحتلّ مصر ، وصده قطز في المرتين ، وأما الأشرف

الأيوبي صاحب حمص ؛ فقد رفض الاستجابة تماماً لقطز ، وفضل التعاون المباشر مع التتار ، وبالفعل أعطاه هولاءكو إمارة الشام كلها ليحكم باسم التتار ، وأما الأخير ، وهو الملك السعيد « حسن بن عبد العزيز » صاحب بانياس ؛ فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً ، بل انضم بجيشه إلى قوات التتار يساعدهم في فتح بلاد المسلمين .

وهكذا استطاع قطز أن يكسب أمير حماة المنصور ، وانضم إليه جيش الناصر ، وحيد إلى حد كبير المغيث عمر صاحب الكرك ، وبذلك يكون قد انضم الكثير من الجنود الشاميين مع سيف الدين قطز ^(١) .

الخطوة الرابعة : أراد الملك سيف الدين قطز قبل الشروع في مواجهة المغول أن يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذي أصبح محاذياً لهم ، لتخوفه من انضمام هؤلاء الصليبيين إلى المغول عند نشوب الحرب ، وبناء عليه توجهت سفارة مصرية إلى عكا تطلب من الصليبيين السماح للجيش الإسلامي باجتياز بلادهم ، وشراء ما تحتاجه من المؤن ، والواقع : أن الصليبيين لم يخفوا مرارتهم ، وكرهيتهم ، وحقدهم للمغول بعد أن قام المغول بمهاجمة مدينة صيدا ، ونهبها ، كما أنه لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من

(١) قصة التتار ص : ٢٥٨ .

المذابح الجماعية ، على حين أن الصليبيين اتصلوا بالحضارة الإسلامية ، وألفوها ، بل ونتيجة لذلك أبدوا أول الأمر استعدادهم لبذل المساعدة العسكرية للسلطان قطز ، إلا أن السلطان سيف الدين شكرهم حينما عرضوا عليه أن يسيروا معه نجدةً ، واستحلفهم أن يكونوا لاه ، ولا عليه ^(١) .

واستطاع السلطان سيف الدين قطز أن يتحصل على موافقة الصليبيين بالسماح لقواته باجتياز الأراضي الساحلية التي تحت أيديهم ، وجعلته في مأمن من ذلك الجانب ، وتجنّب خطر اشتباكه في أكثر من جهة في تلك اللحظات الحرجة ^(٢) .

الخطوة الخامسة : تحكيم الشريعة في أموال الحرب :

كانت النفقات للإعداد كبيرة : من تجهيز الجيش ، وإعداد التموين اللازم له ، وإصلاح الجسور ، والقلاع ، والحصون ، وإعداد العدة اللازمة للحرب ، وتخزين ما يكفي للشعب في حال الحصار ، وكانت الأزمة الاقتصادية التي تمرّ بها البلاد طاحنة ، وليس هناك وقت لخطة خمسية ، أو عشرية ، والتتار على الأبواب ، وقد وصلوا غزة ، والدولة تحتاج للأموال ، فجمع سيف الدين قطز مجلسه الاستشاري ، ودعا إليه إلى جانب الأمراء ، والقادة العلماء ، والفقهاء ، وعلى رأسهم سلطان

(١) السلوك (١ / ٤٣٠) ، و : جهاد الماليك ص : ١٠٨ .

(٢) جهاد الماليك ص : ١٠٩ .

العلماء الشيخ العز بن عبد السلام ، وبدؤوا يبحثون عن حلّ لتجهيز كتائب المسلمين ، واقترح سيف الدين قطز ، أن تُفرض ضرائب لدعم الجيش ^(١) . إلا أن الشيخ العز بن عبد السلام تحفّظ على هذا المقترح ، ولم يوافق عليه إلا بشرطين ، وأصدر هذه الفتوى .

إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلّ قتالهم (أي : العالم الإسلامي) ، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم (أي : فوق الزكاة) ، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح ، والسروج ، والذهب ، والفضة ، والسيوف المحلاة بالذهب ، وأن تبيعوا مالكم من ممتلكات ، والآلات (أي : يبيع الحكام ، والأمراء ، والوزراء ما يمتلكون) ، ويقتصر كلّ منكم على فرسه ، وسلاحه ، وتتساووا في ذلك أنتم والعامّة ، وأما أخذ أموال العامّة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال ، والآلات ؛ فلا ^(٢) .

فقد بين الشيخ العز بن عبد السلام ، بأنه لا يجوز فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى الوزراء ، والأمراء مع العامّة في الممتلكات ، ويُجهّز الجيش بأموال الأمراء ، والوزراء ، فإن لم تكف هذه الأموال ؛ جاز هنا فرض الضرائب على الشعب بالقدر

(١) قصة التتار ص : ٢٨١ .

(٢) بدائع الزهور (١ / ٣٠٢) ، و : جهاد المماليك ص : ١١٠ .

الذي يكفي بتجهيز الجيش ليس أكثر من ذلك ^(١) .

لقد قبل سيف الدين قطز فتوى العز بن عبد السلام ببساطة ، وبدأ بنفسه ، وباع كل ما يملك ، وأمر الوزراء ، والأمراء أن يفعلوا ذلك ، فانصاع الجميع ، وامثلوا أمره ، فقد أحضر الأمراء كافة ما يملكون من مالٍ ، وحلّ نساءهم ، وأقسم كل واحدٍ منهم : أنه لا يملك شيئاً في الباطن .

ولمّا جمعت هذه الأموال ، وضربت سكاً ، ونقداً ، وأنفقت في تجهيز الجيش ، ولم تكف هذه الأموال نفقة الجيش ، فقرّر قطز على كل رأس من أهل مصر ، والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً ، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً ، وأخذ من أغنياء الناس ، والتجار زكاة أموالهم معجلاً ، وأخذ من الترك الأهلية ثلث المال ، وأخذ من الغيطان ، والسواقي أجرة شهر واحد ، وبلغ جملة ما جمعه من الأموال أكثر من ستمئة ألف دينار ^(٢) . فجمع بذلك الأسلوب الفريد المال الحلال الذي لا ظلم ، ولا عدوان فيه ^(٣) .

وكان هذا العمل الجليل من أسباب النصر في عين جالوت .

(١) قصة التتار ص : ٢٨٣ .

(٢) بدائع الزهور (١ / ٣٠٥) ، و : جهاد المماليك ص : ١١٠ .

(٣) الأيوبيون بعد صلاح الدين للصلاحي ص : ٤٣٩ .

قال تعالى : ﴿ إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧]
ونصر الله لا يكون إلا بتطبيق شرعه ، والجيش المسلم الذي يتبع
عن شرع الله يكون بعيداً عن نصر الله ، عز وجل .

إنَّ ما قام به سيف الدين قطز في الاستماع لرأي الشيخ العز بن
عبد السلام ، ثم تنفيذه ترتب عليه شحنة معنوية قوية شحذت همم
الناس للجهاد ، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله ؛ إذ يمكن
القول : إن تلك الفتوى التي أصدرها العز بن عبد السلام في ذلك
الوقت الذي كان الشرق الإسلامي بلا خلافة شرعية أدت الدور
نفسه الذي كانت الخلافة ستؤديه فيما لو كانت قائمة ؛ إذ كانت
فتواه تلك بمثابة سلطة روحية ساعدت المطفر في الحصول على
استجابة عامة المسلمين بدفع ما قُرِّر عليهم من أموال ، مستشعرين
بأن ذلك واجب يفرضه عليهم دينهم الحنيف ^(١) .

وكان الشيخ العز بن عبد السلام ، وعلماء مصر يحثون الناس
في سبيل الله تعالى ، ووعظ الأمراء ، والحكام ، وحرَّك قلوبهم ،
فتنبه فيها الإيمان ، فأخرجوا ما عندهم ، ورأى الناس ذلك ،
فتسابقوا إلى بذل الجود ، وكثرت الأموال ، فأعدُّوا العدة ،
وجمعوا السلاح ، وأقيمت معسكرات التدريب في كل مكان ،
واهترَّت البلدة بالهتاف ، والتكبير ، وصار كلُّ مسلم يشتهي
الوصول إلى المعركة ، وهذا درسٌ مهمٌّ في أهمية التكامل بين

(١) جهاد الممالك ص : ١١٠ .

أمراء المماليك ، والعلماء في مقاومة التتار ^(١) .

ثالثاً : رسالة هولاكو إلى سيف الدين قطز :

أرسل هولاكو رسالة إلى سلطان مصر كلها تهديد ، ووعيد ، قال فيها : من ملك الملوك شرقاً ، وغرباً القان الأعظم ، باسمك الله باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز ، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بإنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك ، يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر أمراء دولته ، وأهل مملكته بالديار المصرية ، وما حولها من الأعمال : أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حلّ به غضبه ، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكفئ الغطاء ، فتندموا ، ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى ، قد سمعتم : أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، فأئى أرض تأويكم ؟ وأي طريق تنجيكم ؟ وأي بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا مناص ، ولا من مهابتنا خلاص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتلنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا

(١) المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين ، الدكتور عبد الحليم

لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عن الكلام ، وختتم
العهود ، والأيمان ، وفشا فيكم العقوق ، والعصيان ، فأبشروا
بالمذلة ، والهوان : ﴿ فَأَلْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] ، ﴿ وَسِعِلُّ الَّذِينَ
ظَلَمُوا أَى مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] فمن طلب حربنا ندم ،
ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا ، ولأمرنا أطعتم ؛ فلکم
مالنا ، وعليکم ما علينا ، وإن خلفتم هلکتتم ، فلا تهلكوا نفوسکم
بأيديکم ، فقد أعذر من أنذر ، وقد ثبت عندکم : أنّا نحن
الکفرة ، وقد ثبت عندنا : أنکم الفجرة ، وقد سلطنا علیکم من له
الأمر المقدره ، والأحكام المدبره ، فکثیرکم عندنا قليل ،
وعزیزکم عندنا ذلیل ، وبغير المذلة ما لملوکم علينا من سبیل ،
فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا بردّ الجواب قبل أن تضرم الحرب
نارها ، وترمي نحوکم شرارها ، فلا تجدون منّا جاهاً ، ولا عزاً ،
ولا كافياً ، ولا حرازاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح
بلادکم منکم خالية ، فقد أنصفناکم إذ راسلناکم ، وأيقظناکم إذ
حذرناکم ، فما بقي لنا مقصد سواکم ، والسلام علينا وعليکم
وعلى من أطاع الهدى ، وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك
الأعلى .

ألا قل لمصرها هلاؤن^(١) قد أتى بحدّ سيوف تُنضى وبواتر

(١) السوك للمقريزي (١ / ٥١٤ ، ٥١٥) . هلاؤن : صيغة لاسم =

يصير أعزُّ القوم منا أذلةً ويُلحق أطفالاً لهم بالأكابر^(١)

١ - مجلس شوري حربي :

كانت الرسالة بمثابة التحدي النهائي لآخر قيادة إسلامية ، وعلى ضوء الموقف الذي ستقرّر هذه القيادة اتخاذه سيتوقف مصير عالم الإسلام وحضارته التي وضعها كدح القرون الطوال ، كلُّ المؤشرات كانت تقود إلى الاستلام للتحدي ، والإذعان لضروراته . . ولكنه الإيمان له منطق آخر ، إنه لا يمنح القدرة على الحركة في ظروف الشلل التام ، فحسب ، لكنه بصيرة تخرق حجب العمى ، والظلام ؛ لكي تطل على الأفق يشعُّ ضياءً ، وبالحركة القديرة ، والرؤية الصائبة تجابه القيادات الفذة تحدّيات التاريخ ، ومحنه ، وويلاته ، فتخرج منها ظافرة ، وتحقق بالاستجابة قفزة نوعية في مجرى الفعل ، والتحقق^(٢) .
قرأ سيف الدين قطز الرسالة ، واستدعى الأمراء ليعرض الأمر عليهم ، وجرى هذا الحوار :

قطز : ماذا ترتؤون ؟

ناصر الدين قميري : إنَّ هولاءَ فضلاً عن أنه حفيد جنكيز خان ؛ فإن شهرته ، وهيبته غنية عن الشرح ، والبيان ، وإن البلاد

= هو لاءو .

(١) المصدر نفسه (١ / ٥١٥) ، و : أبطال ومواقف ص : ٤٤١ .

(٢) دراسات تاريخية عماد الدين خليل ص : ٨٤ .

الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن ، فلو ذهبنا إليه نطلب الأمان ؛ فليس في ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السمّ بخداع النفس ، واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل ، إنّه ليس الإنسان الذي يُطمأن إليه ، فهو لا يتورع عن احتراز الرؤوس ، وهو لا يفي بعهده ، وميثاقه ، فإنه قتل فجأة الخليفة ، وعدداً من الأمراء بعد أن أعطاهم العهد ، والميثاق ، فإذا سرنا ؛ سيكون مصيرنا هذا السبيل .

قطز : والحالة هذه ؛ فإن كافة ديار بكر ، وربيعه ، والشام ممثلة بالمناحات ، والفجائع ، وأصبحت البلاد من بغداد ، وحتى الروم خراباً يباباً ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ، ونسل ، فلو أننا تقدّمنا لقتالهم ، وقمنا بمقاومتهم ؛ فسوف تخرب مصر خراباً كغيرها من البلاد ، وينبغي أن نختر مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من الثلاثة : الصلح ، أو القتال ، أو الجلاء عن الوطن ، أما الجلاء عن الوطن ؛ فأمر متعذر ذلك ؛ لأنه لا يمكن أن نجد مفراً إلا المغرب ، وبيننا وبينهم مسافات بعيدة ^(١) .

قميري : وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم ؛ إذ إنه لا يوثق بوعودهم ^(٢) .

(١) سيف الدين قطز قاهر المغول ، نور الدين خليل ص : ١١٢ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١١٤ .

عدد من الأمراء : ليس لنا طاقة ، ولا قدرة على مقاومتهم ، فَمُرْ بما يقضيه رأيك .

قطز : إنَّ الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال ، فإذا ظفرنا ؛ فهو المراد ، وإلا ؛ فلن نكون ملومين أمام الخلق .

الظاهر بيبرس : أرى أن نقتل الرسل ، ونقصد كيتبوقا - قائد المغول - متضامين ، فإذا انتصرنا ، أو هزمنا ؛ فسوف نكون في تلك الحاليتين معذورين .

أيَّدَ الأمراء المجتمعون كافةً هذا الرأي ، وكان على قطز أن يتَّخذ قراره ، وقد اتخذهُ فعلاً ^(١) .

٢ - التغيير العام :

وفي هذه الأثناء أراد المظفر أن يقطع كلَّ مجال للتردُّد في الخروج لمواجهة المغول ، فأصدر أوامره إلى ولاية الأقاليم المصرية بجمع الجيوش ، وحثَّ الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله ، ونصرة دين رسول الله ﷺ وطالب الولاية بإزعاج الأجناد للخروج للسفر ، وَمَنْ وُجِدَ منهم من اختفى يضرب بالمقارع ، وسار بنفسه حتى نزل الصالحية ، حيث تكامل عنده وصول العساكر المصرية ، ومن انضم إليهم من عساكر الشام ، والعرب ، والتركمان ، وغيرهم ، وذلك في يوم الإثنين الخامس

(١) دراسات تاريخية ص : ٨٥ .

عشر من شعبان سنة ٦٥٨ هـ / يوليو ١٢٦٠ م^(١) ، وفي هذه المنطقة طلب قطز الأمراء ، واجتمع بهم ، وتكلم معهم في المسير لقتال المغول .

وهنا يبدو : أنَّ بعض هؤلاء الأمراء عاودهم الخوف من مواجهة المغول ، وامتنعوا عن الخروج ، الأمر الذي أثار حماسة السلطان المظفر قطز ، فقال لهم : يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين^(٢) .

وأمام هذا التصميم الذي أبداه قطز لمواجهة المغول ، والذي أعقبه تحليف من وافقه من الأمراء على المسير ، ومن ثم إصدار أوامره إلى قواته بالمسير لملاقاة العدو مهما كانت الظروف حيث عبر عن ذلك بقوله : « أنا ألقى التتار بنفسي » لم يسع بقية الأمراء المعارضين إلا الموافقة ، وانقضى الجمع على الخروج صفاً واحداً لإنقاذ المسلمين من ويلات الغزو المغولي المدمر^(٣) .

(١) السلوك نقلاً عن جهاد الممالك ص : ١٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ص : ١٢٠ .

٣ - قتل سفراء هولاكو :

وكان أول إجراء قام به المظفر قطز ضدَّ المغول هو استدعاء رسل هولاكو ، واستقبالهم استقبالا جافاً إيذاناً لإعلان الحرب عليهم ، ومن ثم تمَّ القبض عليهم ، وضرب عنق كل منهم أمام باب من أبواب القاهرة ، وتعليق رؤوسهم على باب زويلة ، وأبقى على صبي من الرسل ، وجعله من مماليكه ، وكانت تلك الرؤوس أول ما علق على باب زويلة من المغول ^(١) . ويبدو : أن قطز اعتبر الرسل محاربين ، وأنهم ليس لهم الحصانة الكافية لمنع قتلهم ؛ حيث إن المغول قتلوا النساء ، والأطفال ، والشيخوخ غير المقاتلين ، وبأعداد لا تحصى في سمرقند ، وبخارى ، وبغداد ، وحلب ، ودمشق ، وغيرها من بلاد المسلمين ، كما أنَّ رسل التتار أغلظوا القول ، وأسأؤوا الأدب ، وتكبروا عليه .

وكان الهدف من تعليق رؤوس المغول على أبواب القاهرة الرئيسية رفع معنويات الناس ، وإعلان الحرب على التتار ، وإعلامهم بأنهم قادمون على قوم يختلفون كثيراً عن الأقوام الذين قابلوهم من قبل ، وهذا يؤثر سلباً على التتار ، فيلقي في قلوبهم ولو شيئاً من الرعب ، أو التردد ، ويبقى الهدف الأكبر لقتل الرسل

(١) تاريخ الدولة المغولية في إيران ص : ١٤٤ ، و : جهاد الممالك ص : ١٢٠ .

هو قطع التفكير في أيّ حلٍّ سلميٍّ للقضية ، والاستعداد الكامل الجاد للجهاد ، فبعد قتل رسل المغول لن يقبل التتار باستسلام مصر ، حتى لو قبل بذلك المسلمون .

كان هذا هو اجتهاد قطز ، والأمرءاء في قتل رسل المغول ، ولكن هذا يخالف الأصل في الإسلام ، حيث إن الرسل لا تقتل ، لا رسل المسلمين ، ولا رسل الكفار ، ولا حتى رسل المرتدّين عن الإسلام ^(١) . فقد بين رسول الله ﷺ ذلك . يقول عبد الله بن مسعود : جاء ابن التّوّاحة ، وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ فقال لهما : « أتشهدان أنني رسول الله ؟ » قال : نشهد : أنّ مسيلمة رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « آمنت بالله ورسوله ، لو كنت قاتلاً رسولاً ؛ لقتلتكما ^(٢) » . يعلق عبد الله بن مسعود على هذا الحديث ، فيقول : مضت السنة : أن الرسل لا تقتل ^(٣) . وهذا الحديث يدلُّ على تحريم قتل الرسل الواصلين من الكفار ، وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة الإمام ، أو سائر المسلمين ^(٤) . وما حدث من سيف الدين قطز ، مخالف لأحكام الشريعة ، والكمال لله وحده .

(١) قصة التتار ص : ٢٧٨ .

(٢) مسند أحمد ، وسنن أبي داود ، نقلاً عن قصة التتار ص : ٢٧٩ .

(٣) قصة التتار ص : ٢٧٩ .

(٤) نيل الأوطار للشوكاني نقلاً عن قصة التتار ص : ٢٧٩ .

رابعاً : اليوم الفصل :

١ - مقدمات الصدام :

لم يعد أمام المظفر قطز بعد إتمام تلك الاستعدادات سوى اختيار مكان ، وزمان المعركة التي كان ينوي منازلة المغول فيها ، وهنا تبدو لنا استراتيجية جديدة اتبعها قطز في هذه المواجهة الحاسمة ، ذلك : أنه إذا كان حكام المسلمين ابتداء من الدولة الخوارزمية حتى أرض فلسطين قد التزموا مبدأ التحصن داخل مدنها منتظراً لهجوم المغول عليهم ، ومحاولة صدّه فقط ؛ فإن السلطان قطز أدرك عدم جدوى الأساليب الدفاعية ، ورأى : أنَّ من الأفضل منازلة المغول قبل وصولهم إلى الأراضي المصرية ، واختار لذلك النزال مكاناً مناسباً خارج دولته هو منطقة عين جالوت بأرض فلسطين الذي يمتاز بقربه من المناطق الساحلية الذي كان يسيطر عليها الصليبيون ، الذين أبدوا استعدادهم الكامل لتسهيل مرور القوات الإسلامية إليه . لهذا بالإضافة إلى كون هذا الجزء من أرض فلسطين منطقة فسيحة يعلوها جبل^(١) ، الأمر الذي سيمكن قواته من مواجهة العدو في كل الظروف .

ففي حالة الاشتباك المباشر مع العدو في معارك مكشوفة ،

(١) الروض الزاهر لابن عبد الظاهر ص : ٦٤ ، جهاد المماليك ص : ١١٦ .

يكون القتال في منطقة منبسطة ، وفي حالة مناوشته من بعيد يكون الجبل مساعداً للرماة لأداء واجبهم على الوجه الأكمل ، كما أن اختيار هذا المكان في بلاد الشام لمنازلة المغول ، يعطي في حد ذاته دفعة قوية لتلك الجموع الشامية الهاربة منهم إلى مصر ، والتي انضمت إلى جيش المماليك ، للاستبسال والتفاني في الجهاد ، وطمعاً في العودة مرة أخرى إلى بلادها ، خاصة وأن هناك أمراء أيوبيين في ركاب هذه الجيوش ، كان الملك المظفر قطز قد وعدهم بإعادتهم إلى إماراتهم بعد طرد المغول من بلاد الشام . كما اختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر أغسطس الذي تكون فيه الحرارة مرتفعةً للتأثير على تلك الجموع المغولية القادمة من صحاري منغوليا الباردة ^(١) للتقليل من نشاطهم القتالي ؛ لكونهم لم يعتادوا على المناخ الحار الذي عادة ما يسود مناطق فلسطين في ذلك الوقت ^(٢) .

٢ - تحرك جيوش المسلمين :

طلب سيف الدين قطز من الأمراء الاجتماع العاجل ، وحثهم على القتال ، وذكّرهم بما وقع في أقاليم الإسلام ^(٣) ، وقال لهم :

(١) تاريخ الدولة المغولية في إيران ص : ١٢ ، و : جهاد المماليك ص : ١١٦ .

(٢) جهاد المماليك ص : ١١٦ .

(٣) المصدر نفسه ص : ١٢١ .

يا مسلمين ! قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل ، والسبي ، والحريق ، وما منكم أحد إلا وله مال ، وحريم ، وأولاد ، وقد علمتم : أن أيدي التتار تحكمت في الشام ، وقد أوهنوا قوى دين الإسلام ، وقد لحقني على نصره دين الإسلام الحمية ، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حق القيام . يا قوم ! جاهدوا في الله بصدق النية تجارتكم رابحة ، وأنا واحد منكم ، وها أنا وأنتم بين يدي رب لا ينام ، ولا يفوته فائت ، ولا يهرب منه هارب .

فعند ذلك ضجت الأمراء بالبكاء ، وتحالفوا : أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلى أن تنكشف هذه الغمة ، فعند ذلك جرّد السلطان الأمير ركن الدين بيبرس وبصحبه جماعة من العساكر ، وأرسله طليعة ^(١) .

٣ - معركة غزة :

تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري نحو فلسطين ، فسار حتى نزل غزة في شعبان ٦٥٨ هـ / يوليو ١٢٦٠ م ، واستطاع ركن الدين بيبرس أن يحقق انتصاراً ساحقاً على الحامية المغولية في غزّة ، وكانت هزيمة قاسية لهم ، واكتشف المغول : أن هناك من المسلمين من يتحرك من خلال خطط عسكرية ، وأبعاد استراتيجية ، وأنه لا زال من

(١) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص : ٢٦٣ .

المسلمين من يحمل السيوف للدفاع عن دينه ، وأرضه ، وشرفه ، وكرامته ، وكانت هذه المعركة من أهم المعارك بالنسبة للمسلمين ، فقد رأى المسلمون بأعينهم : أن التتار يفرون ، وسقطت المقولة التي انتشرت في تلك الآونة التي كانت تقول : من قال لك : إن التتار يهزمون ؛ فلا تصدقه ، وكان لهذه الموقعة أثر إيجابي على جيش المسلمين ، وكان لها أثر سلبي هائل على جيش التتار ^(١) .

وأصبحت غزة ملكاً للمسلمين ، وبهذا تعتبر معركة غزة هذه أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون على المغول ، كما يمكن القول : إن هذا الانتصار الذي تحقّق للمسلمين كان دافعاً قوياً لهم للتقدم إلى الشمال باتجاه عين جالوت للقاء المغول في موقع أفضل ؛ خاصة وأن تلك الهزيمة التي مُني بها جيش الأمير المغولي « بايدر » لم تقابل بأي اهتمام من القائد المغولي كيتوبوقا الذي بقي على جموده إلى أن وصلت الجيوش الإسلامية عين جالوت . وكان هذا الانتصار من الأسباب التي جعلت الصليبيين تحرص على خطب ودّ المسلمين بتقديم العون ، والمساعدة لهم ، والسماح لجيوش المماليك بعبور أراضيهم إلى داخل فلسطين ^(٢) .

(١) قصة التتار ص : ٣٠١ .

(٢) جهاد المماليك ص : ١٢١ .

ولما رحل سيف الدين قطز من غزة ؛ سلك طريق الساحل ، فاجتاز مدينة عكا ، وهي يومئذ بيد الفرنج ، فلما عاينوه ، أرسلوا له الهدايا ، والتحف ، والضيافات ، والتقاء ملوكها ، فعرضوا عليه أن يأخذ معه منهم نجدة ، فلاطفهم السلطان ، وأخلع عليهم ، واستحلفهم أن يكونوا لاه ، ولا عليه ، وما له حاجة بنصرتهم . وقال لهم : والله العظيم متى تبعهم منهم فارس أو راجل - يريد أذى عسكر المسلمين - قتلتم قبل ملتقاي التتار ، وقد عرفتم ذلك ! عند ذلك كتب الملوك إلى أتباعهم بما سمعوه ^(١) . ورفض السلطان قطز تلك المساعدة التي عرضها الصليبيون عليه ، فقد كان حريصاً كل الحرص على صبغ حروبه ضد المغول ، والصليبيين معاً بصبغة إسلامية خالصة ، كما أن هذا يشير إلى رغبة قطز ، ومشروعه الجهادي يستهدف دحر العدوان المغولي ، ومن ثم التوجه إلى الساحل الشامي لتطهيره من نير الاحتلال الصليبي ، وحرص في الوقت نفسه على ألا تكون للصليبيين عليه منة عند مهاجمتهم ^(٢) .

٤ - معلومات استخبارية مهمة :

قاد السلطان قطز جيشه ، واقترب من عين جالوت ، وبينما هو في الطريق جاء رجل من أهل الشام ، وقدم معلومات

(١) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص : ٢٦٣ .

(٢) جهاد الممالك ص : ١٢٢ .

استخبارية لسيف الدين قطز ، مرسله من قبل صارم الدين أيبك ، وهو أحد المسلمين الذين أسره هولاكو عند غزوه بلاد الشام ، ثم قبل الخدمة في صفوف جيش التتار ، واشترك معهم في مواقعهم المختلفة ، وجاء معهم إلى موقعة عين جالوت ، ولا ندري إن كان قد قبل التعاون مع التتار لرغبة في نفسه ، أم قبل ذلك مضطراً ؛ وهو يعد العدة لينفع المسلمين ، فهذا بينه وبين الله ، عز وجل ، ولكن في موقعة عين جالوت قرّر أن يخدم جيش المسلمين بقدر ما يستطيع ، وقد نقل هذا الرسول إلى قطز - المعلومات التالية :

أ - جيش التتار ليس بقوّته المعهودة ، فقد أخذ هولاكو معه عدداً من القادة ، والجند ، فلم يعد الجيش على الهيئة نفسها التي دخل بها الشام ، فلا تخافوهم .

ب - ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم ، فعلى جيش المسلمين أن يقوّي جداً ميسرته التي ستقاتل ميمنة التتار .

ج - إن الأشرف الأيوبي أمير حمص سيكون في جيش التتار بفرقته ، ومع صارم الدين أيبك ، ولكنهم سوف يهزمون بين يدي المسلمين . . أي : أن الرسالة تقول : إن الأشرف الأيوبي قد راجع نفسه ، وآثر أن يكون مع جيش قطز ، ولكنه خرج مع جيش التتار مكيدة لهم ، وتفكيكاً لصفهم ^(١) .

ومع ذلك أخذ المسلمون حذرهم ، واستفادوا من هذه الأمور دون تفريط في الإعداد ، أو تهاون في الاحتياط ، والحذر ، وبذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ ، وقضى المسلمون الليل في القيام ، والابتغال ، والدعاء ، والرجاء ^(١) .

٥ - الاشتباك مع المغول :

كان سيف الدين قطز قد بعث الأمير ركن الدين بيبرس على رأس فرقة من الكشافة لاستطلاع أخبار العدو ، وتحديد مكانه ، واشتبك بيبرس مع طلائع الجيش المغولي ، واستمر يناوشهم إلى أن وافاه السلطان قطز بالجيش الرئيسي عند عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ / سبتمبر ١٢٦٠ م حيث التقى الجمعان ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادي بالناس ، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء إيذاناً ببدء الهجوم ^(٢) .

كان الجيش المغولي بقيادة كيتوبوقا ، وكان قطز يعرف جيداً تفوق جيشه في العدد على العدو ، ولذا أخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس ،

(١) المصدر نفسه ص : ٣١٣ .

(٢) جهاد المماليك ص : ١٢٢ .

وما لبث كيتوبوقا أن وقع في الفخ ؛ إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه ، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كيتوبوقا له ، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة ، وجرت بين الطرفين معركة طاحنة ، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت ^(١) وانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر كسرة شنيعة ، فحمل الملك المظفر بنفسه في طائفة من عساكره ، وأردف الميسرة حتى جبر ضعفها ، ثم اقتحم القتال ، وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً ؛ وهو يشجع أصحابه ، ويحسن لهم الموت في سبيل الله ، ويكرّم بهم كرة بعد كرة ^(٢) ، وألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض ، وصرخ بأعلى صوته : « وا إسلاماه ! » وحمل بنفسه ، وبمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره .

ولم تنقُص سوى ساعات حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان ، وسحقت زهرة القوات المغولية ، ومزّ العسكر في إثر التتار إلى قرب بيسان ، فرجع التتار ، والتقوا بالمسلمين لقاءً ثانياً أعظم من الأول ، فهزمهم الله ، وقُتل أكابرهم ، وعدةٌ منهم ، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : « وا إسلاماه ! » ثلاث

(١) دراسات تاريخية ص : ٨٧ .

(٢) جهاد المماليك ص : ١٢٣ .

مرات : يا الله انصر عبدك قطز على التتار ! « فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ؛ نزل السلطان عن فرسه ، ومَرَّحَ وجهه على الأرض ، وقبلها ، وصلى ركعتين لله تعالى ، ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ^(١) .

واستمر ركن الدين بيبرس في مطاردة فلول المغول حتى أفامية ، فوجدهم قد تجمعوا بها ، ووَحَّدوا صفوفهم للمرة الثالثة استعداداً لمواجهتهم ، فهاجمهم بكل شجاعة ، وكسره كسرة شنيعة ، وغنم منهم أموالاً طائلة ، وخيولاً كثيرة ^(٢) .

٦ - شجاعة القائد المغولي :

ورغم الهزيمة القاسية التي مُني بها المغول في هذه المعركة ؛ فإن أحد المؤرخين المسلمين - وهو رشيد الدين فضل الله الهمذاني - لم ينكر ما كان للقائد المغولي كيتوبوقا من صفات بطولية في هذه المعركة ، فعندما اقترح عليه أحد أعوانه الانسحاب ؛ أجاب : علينا أن نموت هنا ، هذه هي النهاية ويعيش الخان ، ويسعد ^(٣) . وفي رواية : لا مفرّ من الموت هنا ، فالموت مع العزة ، والشرف خير من الهروب مع الذل ،

(١) دراسات تاريخية ص : ٨٨ .

(٢) جهاد المماليك ص : ١٢٤ .

(٣) سيف الدين قطز قاهر المغول ص : ١٣٨ .

والهوان ، وسيصل رجل واحد ، صغيراً ، أو كبيراً من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ، ويعرض عليه كلامي قائلاً : إن كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع ؛ وقد كَلَّه الخجل ، فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه ، وينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول ، وليتصور الملك : أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً ، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور ، فليدم إقبال الملك مادامت نفسه الشريفة آمنة سالمة ، فإنها تكون عوضاً لكل مفقود ؛ إذ إن وجودنا ، وعدمنا نحن العبيد ، والأتباع أمر سهل يسير ^(١) .

كما يذكر رشيد الدين نفسه رأياً مخالفاً في كيفية قتل القائد المغولي كيتوبوقا ، حيث يشير إلى أنه وقع في بداية الأمر في الأسر ، ثم أحضره قطز إلى مجلسه مكبلاً ، ودار بينهما حوارٌ بدأه قطز مخاطباً كيتوبوقا بقوله : أيها الرجل الناكث العهد ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة ، وقضيت على الأبطال ، والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمت البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة المزورة قد وقعت أخيراً في الشَّرْك .

وعندما سمع كيتوبوقا كلامه ؛ انتفض ؛ وهو مكبل اليدين كأنه الفيل الهائج ، فأجاب قائلاً : أيها الفخور المغتر ، لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا ، فأنا إذا قُتلت على يدك ؛ فإنني أعلم : أن ذلك من الله لا منك ، فلا تُخدع بهذه المصادفة العاجلة ،

(١) جامع التواريخ (٢ / ٣١٤) ، و : جهاد المماليك ص : ١٢٤ .

ولا بهذا الغرور العابر ، فإنه حين يبلغ حضرة هولوكو نبأ وفاتي سوف يغلي بحر غضبه ، وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من أذربيجان حتى ديار مصر ، وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم إلى هناك ، إنَّ لهولوكو خان ثلاثمئة ألف فارس مثل كيتوبوقا ، فافرض : أنه نقص واحدٌ منهم ! فقال له قطز : لا تفخر إلى هذا الحدِّ بفِرسان توران ، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر ، والخداع لا بالرجولة ، والشهامة ^(١) !

فرد عليه كيتوبوقا : إني كنت عبداً للملك ما حييت ، ولست مثلك ماکراً وغادراً . . . بادر بالقضاء عليّ بأسرع ما يمكن ؛ حتى لا أسمع تأنيبك . فأمر قطز بقتله ، ففصلوا رأسه عن جسده ، ولما بلغ هولوكو خان نبأ نعي كيتوبوقا ، وعلم بحديثه في ذلك الموقف ؛ أسف أسفاً شديداً على وفاته ، واشتعلت نيران غضبه ، وقال : أين أجد خادماً آخر مثله يبدي مثل هذه النوايا الطيبة ، ومثل هذه العبودية ساعة هلاكه ^(٢) .

وبالرغم مما يعرف به رشيد الدين من محاباةٍ للمغول ، فإنه لا يمكن أن ننكر ما كان عليه كيتوبوقا من مكانة عند المغول ، يعتمدون على رأيه ، وشجاعته ، وتدريبه وكان بطلاً شجاعاً

(١) جامع التواريخ (٢ / ٣١٥ - ٣١٦) ، و : جهاد المماليك ص : ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه (٢ / ٣١٥ - ٣١٦) ، و : المصدر نفسه ص : ١٢٥ .

مقدماً ، وخبيراً بالحروب ، وافتتاح الحصون ، وكان هولاء كويثق به ، ولا يخالفه فيما يشير به . وبموته استراح الإسلام منه ، حيث كان شرَّ عصابة على الإسلام ، وأهله ^(١) .

وعلق نور الدين خليل على شجاعة القائد المغولي ، والقصاص المنسوبة إليه ، فقال : وننظر إلى تلك الروايات ببالغ الريبة ، بل والإنكار ، فكيف حصل الهمداني على رسالة شفوية حملها مجهول بلغة مغولية ، بطبيعة الحال - هذا إن كانت هناك رسالة أصلاً - وكذلك الحال فيما يتعلق بالروايات الأخرى ، لا شك : أن تلك الروايات محض اختلاق ، وتصور ، وخيال ، حتى وإن ردّدها المؤرخون الواحد تلو الآخر ، سواء مؤرخو العرب ، أو الغرب ^(٢) .

٧ - تحرير دمشق وبلاد الشام :

لم تنته مهمة الملك المظفر ؛ لأنه ما زال هناك تثار في دمشق ، وحمص ، وحلب ، وغيرها من المدن الشامية ، فكانت دمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار ، وهي تقع على مسافة مئة وخمسين كيلو متراً تقريباً من عين جالوت إلى الشمال الشرقي منها ، فقبل وصوله إلى دمشق أرسل رسالة

(١) النجوم الزاهرة (٧ / ٩١) ، و : المغول للعريني ص : ٣٦١ .

(٢) سيف الدين قطز قاهر المغول ص : ١٤١ .

عظيمة تحمل بشريات النصر الكبير ، وكان مما جاء في هذه الرسالة :

أما النصر الذي شهد الضرب بصحته ، والطعن بنصيحته ، فهو أن التتار خذلهم الله ، استطالوا على الأيام ، وخاضعوا بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام ، وهذه عساكر الإسلام مستوطنة في مواطنها ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة ، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة ، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان ، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن ، ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار ، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين ، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل ، وصار اليوم كأمس ، ونُسخت آية الليل بسورة الشمس إلى أن تراءت العين بالعين ، وأضرمت نار الحرب بين الفريقين ، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً ، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً ، وقتل من المشركين كل جبار عنيد ، ذلك بما قدمت أيديهم ﴿وَمَارَبُكَ بَطَلَمٍ لِلْعِيدِ﴾ [فصلت : ٤٦] ^(١) .

وصل الخبر لأهالي دمشق . قال ابن كثير : وتابع الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ، وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان ، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب ، وهرب من بدمشق منهم ، وكان هربهم منها يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان

(١) قصة التتار ص : ٣٣٨ صبح الأعشى (٧ / ٢٦٠ - ٢٦٢) .

صبيحة النصر الذي جاءت فيه البشارة بالنصر على عين جالوت ، فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون ، ويأسرون ، وينهبون الأموال منهم ، ويستفكُّون الاسارى من أيديهم قهراً ، والله الحمد والمنن على جبره الإسلام ، ومعاملته إياهم بلطفه الحسن ، وجاءت بذلك البشارة السارة ، فجاءتها البشائر من القلعة المنصورة ، وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله فرحاً شديداً ، وأيد الله الإسلام ، وأهله تأييداً ، وكُتِبَ أعداء الله النصارى ، واليهود ، والمنافقون ، وظهر دين الله وهم كارهون ، ونصر الله دينه ، ونبهه ولو كره الكافرون ، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب ، فانتهبوا ما فيها ، وأحرقوها ، وألقوا النار فيما حولها ، فأحترقت دور كثيرة للنصارى ، وملاً الله بيوتهم ، وقبورهم ناراً ، وأُحْرِقَ بعض كنيسة اليعاقبة ، وهمت طائفة بنهب اليهود ، فقليل لهم : إنهم لم يكن منهم فيما ظهر من الطغيان ، كما كان من عبدة الصُّلْبَانِ . وقتلت العامة في وسط الجامع شيخاً رافضياً ، كان مصانعاً للتتار على أموال الناس ، يقال له : الفخر محمد بن يوسف الكنجي ، كان خبيث الطوية ممالئاً لهم على أموال المسلمين ، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين الممالئين على المسلمين : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٥] (١) .

٨ - وصول سيف الدين قطز إلى دمشق :

في اليوم الثلاثين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ وصل البطل سيف الدين قطز إلى دمشق ، واستقبله الناس استقبال الفاتحين ، وعُلِّقت الزينات في الشوارع ، وخرج الرجال ، والنساء ، والأطفال ، يستقبلون البطل المظفر وهذه هي الفرحة الحقيقية قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] ، فرحة النصر لدين الله ، والرفعة للإسلام ، والعزة للمسلمين ، لا تقارن هذه الفرحة بفرحة الطعام ، والشراب ، والمال ، والجاه ، والسلطان .

ودخل الجيش المملوكي المسلم دمشق ، واستتبَّ الأمن الحقيقي بسرعة عجيبة ، لم يحدث شيء مما يقع عند دخول المستعمرين البلاد ، واستقرَّ الوضع بسرعة وحفظ الأعراض ، والنفوس ، والأموال لكل الساكنين من نصارى ، ويهود ، وقام قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه التتار ، وكان مواليا لهم ، وعين مكانه نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين بن سنيّ الدولة ، وبدأ يفصل في القضايا ، ويحكم في المخالفات التي تمت بين المسلمين ، والنصارى ؛ حتى لا يظلم نصراني في بلاد المسلمين ، لهذا مع كل ما فعله النصارى بالمسلمين أثناء احتلال التتار للمدينة .

وفي اليوم التالي لدخول قطز إلى دمشق كان عيد الفطر وهو

له طعمه الخاص ، ومكانته المتميزة ؛ لأنه كان أيضاً عيداً للنصر والتمكين . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

لم يضيع قطز وقتاً ، بل ارسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس تتبع الفارين من التتار وتطهير مدن الشام الأخرى من الحاميات التتارية ^(١) ، وطارد المغول في أعالي بلاد الشام ؛ حتى لحق بهم في حمص ، وفرّ المغول بحياتهم ، وألقوا ما كان معهم من متاع ، وغيره ، وأطلقوا الأسرى وعرجّوا نحو طريق الساحل ، فتخطف المسلمون منهم ، وقتلوا خلقاً كثيراً ، وأسروا أكثر ، فلما بلغ هولاء كسرة عسكره ، وقتل نائبه كيتوبوقا ؛ عظم عليه ، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ، ورحل من يومه ^(٢) .

واستطاع المسلمون تطهير بلاد الشام بكاملها في بضعة أسابيع ، وأعلن قطز توحيد مصر ، والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته بعد عشر سنوات من الفرقة ، وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب رَحِمَهُ اللهُ فِي سنة ٦٤٨ هـ وخُطب لقطز على المنابر في كل المدن المصرية ، والفلسطينية ، والشامية ؛ حتى خطب له في أعالي بلاد الشام ، والمدن حول نهر

(١) قصة التتار ص : ٣٤٠ .

(٢) السلوك (١ / ٥١٨) .

الفرات ، وعاش المسلمون أياماً من أسعد أيامهم ^(١) .

٩ - ترتيب أمور الولايات الشامية :

شرع السلطان سيف الدين قطز على ترتيب أحوال الشام بسرعة ؛ حتى يتمكن من العودة إلى مصر ، فأقطع الأمراء الصالحية ، والمعزية ، وأصحابه إقطاعات الشام ، وجعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي ، ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشترا الأركشي الكردي ^(٢) ، وأعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكاً تابعين لسلطان مصر المملوكي ، وبعث إليه الأشرف موسى حاكم حمص ، والذي كان هولاء قد عينه نائباً له في حكمها ، وفي بلاد الشام يطلب الأمان ، فاستجاب له قطز ، وأمنه على عرشه ، كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب ، ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له .

كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة في بلاد الشام ، فأقر الملك المنصور على حماة ، وبارين ، وأعاد

(١) قصة التتار ص : ٣٤١ .

(٢) السلوك (١ / ٥١٨) .

له المعركة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة ٦٣٥ هـ ومن ناحية أخرى أخذ منه سلمية ، وأعطاه الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب ، وعين الأمير شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل ، وغزة ، ومعه عدد من أمراء العزيزية ، وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف ، صاحب دمشق ، وحلب ، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة ، ثم خرج في جيش السلطان ، وحارب معه في عين جالوت ، وأمر بشنق حسين الكردي الطبرادار ، فشنق من أجل : أنه دل على الملك الناصر ^(١) .

وهكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام ، وأعاد إلى ربوعها الأمن ، والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاها المغول ، وفي اليوم السادس والعشرين من شوال ٦٥٨ هـ توجه السلطان سيف الدين قطز بجيشه الظافر صوب مصر ، وبينما كانت القاهرة تتزيّن لاستقبال القائد المنتصر ^(٢) كان أجّل سيف الدين قطز قد حان ، واقترب الرحيل من هذه الحياة . وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً بإذن الله تعالى .

(١) السلوك (١ / ٥١٨) ، و : مملكة حماة الأيوبية ، عدنان سعد الدين ص : ١٠٠ .

(٢) السلطان المظفر سيف الدين قطز ، قاسم عبده ص : ١٤١ .

١٠ - موقف هولاكو من الهزيمة :

رغم أن هذه الهزيمة لم تلحق بشخص هولاكو نفسه ؛ فإن تلك الهزيمة الثقيلة التي مني بها جيشه ، وقتل فيها قائده العظيم كيتوبوقا تُعدُّ صدمة عنيفة ، هزت كيانه وهو بعيد عن مسرح الحوادث ، فتأثر لذلك ، وحاول أن يمحو ذلك العار الذي لحق بجيوشه بإرسال حملة جديدة إلى الشام في محاولة يائسة للانتقام من المسلمين ، غير أن الظروف في ذلك الوقت لم تمكِّنه من ذلك ^(١) ؛ إذ لم يستطع التقدم غرباً لمساعدة جيوشه المهزومة في عين جالوت لانشغاله في حروبه مع منافسيه من أهل بيته وعلى رأسهم ابن عمه زعيم القبيلة الذهبية .

واكتفى هولاكو بأن عمل على مراسلة الخان الأعظم في قراقورم أخبره بما حلَّ بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر ، فما كان من الخان الأعظم إلا أن أصدر مرسوماً يقضي بإعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام ، قاصداً بذلك - على ما يبدو - رفع معنويات هولاكو ، وجيوشه ، وتشجيعه على معاودة حرب المماليك ، وبدأ هولاكو يستعدُّ لحرب المسلمين ، لكن الموت عاجله في سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م فتوفي دون أن يحقق حلمه بضم مصر ،

(١) جهاد المماليك ص : ١٣١ .

والشام إلى ممتلكاته^(١) .

١١ - ما قيل من شعر في عين جالوت :

نظم شهاب الدين محمود قصيدة مدح فيها الأمير الظاهر
بيبرس بسبب انتصار المسلمين في عين جالوت ، فقال :

واحكم فطوح مرادك الأقدار	سر حيث شئت لك المهيمن جار
ياؤكنه عند الأعادي ثار	لم يبق للدين الذي أظهرته
من مطربات قسيك الأوتار	لما تراقصت الرؤوس وحركت
بحرا سواك تقله الأنهار	حملتك أمواج الفرات ومن رأى
طودها إذ ذاك إلا جيشك الجرار	وتقطعت فرقا ولم يك
منهم على الجيش السعيد غبار	رشت دماؤهم الصعيد فلم يطر
والثرب والآساد والأطيار	شكرت مساعيك المعادل والورى
وسقيت تلك وعمم ذا الإيسار	هذي منعت وهؤلاء حميتهم
تبقى ما بقيت وتذهب الأعصار ^(٢)	فلأملأن الدهر فيك مدائحا

وقال شرف الدين الأنصاري من قصيدة يمدح فيها الملك
المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماة الذي كان مع جنده إلى جانب
المظفر قطز في معركة عين جالوت :

رعت العدى فضمنت شل عروشها ولقيتها فأخذت فل جيوشها

(١) جهاد المماليك ص : ١٣٢ ، و : جامع التواريخ (٢ / ٣٣٦) .

(٢) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ص : ١٦٦ .

نازلت أملاك التتار فأنزلت
فعدا لسيفك في رقاب كُماتها
رؤيت أكباد القنا بدمائهم
أقدمت مقتحماً على نُسَابها
دارت رحي الحرب الرّبون عليهم
وطويت عن مصر فسيح مراحل
حتى حفظت على العباد بلادها
فرشت حماة لوطء نعلك خذها
وكذا المعرّة إذ ملكت قيادها
لا زلت تُنْعش بالتّوال فقيرها
عن فحلها قسراً وعن إكديشها
حصد المناجل في يبيس حشيشها
لَمَّا أطال سواك في تعطيشها
تكسو الجياد رِياشها من ريشها
فغدت رؤوسُهم حطام جريشها
ما بين بركتها وبين عريشها
من رُومها الأقصى إلى أحبوشها
فوطئت عين الشمس من مفروشها
دَهشتُ سروراً سار في مدهوشها
وتنال أقصى الأجر من منعوشها^(١)

وقال بعض الشعراء في عين جالوت :

هلك الكفر في الشام جميعاً
بالمليك المظفر الملك الأروع
ملكٌ جاء بعزم وحزم
أوجب الله شكر ذاك علينا
واستجدّ الإسلام بعد دحوضه
سيف الإسلام عند نهوضه
فاعتزنّا بسمره وبيضه
دائماً مثل واجبات فروضه^(٢)

خامساً : مقتل سيف الدين قطز :

كان لانتصار قطز في عين جالوت أجمل الوقع على العالم

(١) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ص : ١٥٧ .

(٢) الملك المظفر قطز بن عبد الله المعزي ، رحاب عكاوي ص : ١١٤ .

الإسلامي وخصوصاً مصر ، فقد استعدت لاستقباله ، ودُقَّت البشائر بالقلعة ، وأقيمت الزينات بالقاهرة ، وأخذت البلاد تنتظر قدوم المظفر سيف الدين قطز^(١) ، وعندما وصل السلطان إلى بلدة القصير^(٢) ، بقي السلطان بهذه البلدة مع عدد من خواصه ، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية بإقليم الشرقية بمصر ، وهناك أقيم الدهليز السلطاني « الخيمة السلطانية » ، وفي الوقت نفسه بلغ توتر العلاقات بين سيف الدين قطز ، وبين ركن الدين بيبرس أوجهُ ، وتجدد الخلاف القديم ، وأخذ كل واحد منهم حذره ، وحيطته ، وبات الغريمان يترَبَّص كلُّ منهما بالآخر . ولكن بيبرس البندقداري بما عرف عنه من جسارة ، ودهاء بادر إلى العمل ضدَّ السلطان^(٣) ، فاتفق مع الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي ، والأمير سيف الدين بهادر المُعزِّي ، والأمير بدر الدين بكتوت الجُكنداري المعزي ، والأمير سيف الدين بيدغان الرُّكني ، والأمير سيف الدين بلبان الهاروني ، والأمير بدر الدين أنس الأصبهاني .

فلما قرب إلى القصير بين الغرابي ، والصالحية ؛ انحرف عن الدرب للصيد ، فلما قضى وطره^(٤) ، عاد قاصداً إلى الدهليز ؛

(١) مصر والشام في عصر الأيوبيين ، سعيد عاشور ص : ١٨٦ .

(٢) بلدة القصير : هي قرية الجعافرة بمحافظة الشرقية .

(٣) في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص : ٢٠٣ .

(٤) وطره : حاجته .

سايره الأمير ركن الدين ، وأصحابه ، وطلب من سيف الدين قطز امرأة من سبي التتار ، فأنعم له بها ، فأخذ الظاهر يده ليقبلها ، وكانت تلك إشارة بينه وبين من اتفق معه ، فلما رأوه قد قبض على يده ، بادره الأمير بدر الدين بكتوت ، وضربه بالسيف على عاتقه ، فأبانه ، ثم اختطفه الأمير بدر الدين أنس ، وألقاه عن فرسه ، ثم رماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روحه . وقيل : إن أول من ضربه الأمير ركن الدين ببيرس . وهو الصحيح ، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذي القعدة ، ثم ساروا إلى الدهليز للمشورة بينهم على من يملكوه ، ويسلموا إليه قيادتهم ، فوقع اتفاقهم على الأمير ركن الدين ببيرس البندقاري ، فتقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ، المعروف بالأتابك^(١) ، فبايعه ، وحلف له ، ثم بلبان الرشيدي ، ثم الأمراء على طبقاتهم ، ولقب بالملك الظاهر .

ثم في الساعة الراهنة قال له الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك : لا يتم الملك إلا بدخولك إلى قلعة الجبل ، فركب هو والأمير فارس الدين ، والأمير بدر الدين بيسري ، وبلبان الرشيدي ، وقلاوون الألفي ، وبيليك الخازندار ، وجماعة من خواصه ، وقصدوا القلعة ، فلقي في طريقه الأمير عز الدين أيدير الحلبي نائب السلطنة عند الملك المظفر ، وكان خارجاً للقاء

(١) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص : ٢٦٧ .

أستاذه ، فأعلموه بصورة الحال ، وحلّفوه ، فحلف ، وتقدم بين يديه إلى القلعة ، فلم يزل على بابها ينتظره حتى وصل إليها ، فدخلها ، وتسلمها ، وكانت القاهرة قد تزينت لقدوم الملك المظفر ، والناس في فرح وسرور بعوده ، وكسر التتار ، فلما أسفر الصبح ، وطلع النهار ، وإذا منادٍ ينادي : معاشر الناس ! ترخّموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ^(١) .

١ - أسباب مقتل قطز :

تنوّعت روايات المؤرخين المعاصرين حول الأسباب التي أدت إلى مقتل سيف الدين قطز ، ونحاول أن نناقش هذه الأسباب ، ونبين الأقوى منها :

أ - يقول ابن أيبك الدواداري : وحكى لي والدي عن مخدمه سيف الدين بلبان الدوادار الرومي ؛ قال : إن يوم المصاف هربت جماعة من الأمراء من خشدأشيه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ، فلما انتصر الإسلام ، تنمّر عليهم السلطان المظفر ، ووبّخهم ، وشتّمهم ، وتوعّدهم ، فأضمرّوا له سوء ، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم ، ولم تزل الأحقاد ، والضغائن تتراءى في صفحات الوجوه ،

(١) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص : ١٦٨ .

وغمزات العيون ، وكلّ منهم يترقب من صاحبه الفرصة ^(١) .

ب - أما المؤرخ تقي الدين المقرئ : فيقول : إن سبب ذلك : أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر قطز أن يوليه نيابة حلب ، فلم يرض ، فأضمرها في نفسه ، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً ^(٢) .

ج - أما بيبرس الدواداري : وهو أقربهم إلى الأحداث ؛ فيقول : وذلك : أنه « قطز » رحل من دمشق عائداً إلى الديار المصرية ، وفي نفوس البحرية منه ومن أستاذه ما فيها لقتلهما الفارس أقطاي ، واستبادهما بالملك ، وإجائهم إلى الهرب ، والهجاج ، والتنقل في الفجاج ، إلى غير ذلك من أنواع الهوان التي قاسوها ، والمشقات التي لبسوها ، وإنما انحازوا إليه لما تعذر عليهم المقام بالشام ، والتناصر على صيانة الإسلام ، لا لأنهم أخلصوا له الولاء ، أو رضوا له الاستيلاء .

(١) كنز الدرر (٨ / ٦٠) ، و : في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص : ٢٠٤ .

(٢) السلوك (١ / ٥١٩) ، و : في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص : ٢٠٤ ، و : الظاهر بيبرس ، بترتوراوص : ٨٨ .

وقد بنيت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هي^(١)

وقد رجّح الدكتور قاسم عبده قاسم السبب الذي ذكره المؤرخ بيبرس الدواداري ، واعتبره السبب الرئيسي لما حدث ، فقد كان سيف الدين قطز أكبر ممالك السلطان عز الدين أيبك ، وكان من أهم الذين شاركوا في قتل فارس الدين أقطاي ، ومطاردة المماليك البحرية من خشداشية ، كما أن البحرية عاشوا سنوات منفين في بلاد الشام ، ولم يمرّ عليهم الوقت دون مشكلات ، وحروب ، وسجن ، ومطاردات ، ساهم في بعضها سيف الدين قطز بشكل مباشر ، أو غير مباشر .

ومن المهم أن نتذكر : أن رابطة الخشداشية التي كانت تجمع المماليك ، كانت رابطة قوية للغاية ، ومن ثمّ فإن بيبرس ، ورفاقه من المماليك البحرية كانوا يحملون رغبة الثأر لزميلهم أقطاي من ناحية ، ولزملائهم الآخرين الذين قتلوا على يد قطز ، أو بسببه من ناحية أخرى ، فضلاً عما نالهم من الهوان ، والمذلة في منافعهم من ناحيةٍ ثالثة^(٢) .

وقال الدكتور أحمد مختار العبادي : أما أسباب مصرع

(١) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (٩ / ٧٣) ، و : في تاريخ الأيوبيين

والمماليك ، قاسم عبده قاسم ص : ٢٠٥ .

(٢) في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص : ٢٠٦ .

قطز ؛ فلا شك : أنها أعمق بكثير من قصة رفضه نيابة حلب لبيبرس ، وأن هذا الرفض لم يَعُدْ أن يكون سبباً مباشراً لمقتله عند الحدود المصرية ، والواقع : أن تلك الأسباب قديمة ترجع إلى أيام السلطان أيبك ، وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحة ، وقتله زعيمهم أقطاي ؛ إذ صار ممالكك أيبك وهم المُعْرِية . ومنهم قطز أصحاب النفوذ والسلطان في مصر ، واستمرَّ العداء بين المعزية ، والبحرية قائماً حتى أغار المغول على مصر ، فاضطر المماليك جميعاً إلى الاتحاد بدليل قول العيني : إن المماليك البحرية انحازوا إلى قطز المعزي لما تعذر عليهم المقام بالشام ، وللتناصر على صيانة الإسلام ، لا لأنهم أخلصوا الولاء له ^(١) . فلما انتصر المماليك على المغول في عين جالوت ، ولم تبق هناك ضرورة للاتحاد ؛ ظهر العداء القديم بين الطائفتين من جديد ، وكان من نتائج ذلك مقتل قطز المعزي على يد بيبرس الصالحي .

وهذا هو المعنى الحقيقي لما أورده ابن أبي الفضائل تعقيباً على مقتل قطز حين قال : فلحق الناس خوفٌ عظيم من عودة البحرية إلى ما كانوا عليه من الفساد ^(٢) . وروى ابن أياس في هذا الصدد : ولما تم أمر بيبرس في السلطنة ؛ رسم باحضار المماليك

(١) عقدة الجمان ، نقلاً عن : « في التاريخ الأيوبي والمملوكي » للعبادي

ص : ١٦٢ .

(٢) السلوك (١ / ٥٢١) .

البحرية الذين كانوا منفيين في البلاد . كما روى في موضع آخر ، وكذلك المقريري : أن المماليك المعزية حاولوا اغتيال بيبرس عقب عودته إلى القاهرة ، فقتل بعضهم ، وسجن ، ونفي البعض الآخر ^(١) . وهذه النصوص وأن دلت على شيء ؛ فإنما تدلُّ على أن مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم مستحكم بين المماليك البحرية الصالحة ، والمماليك المعزية ^(٢) .

٢ - الطريق إلى عرش المماليك :

كان الطريق إلى عرش سلطنة المماليك منذ البداية القتل ، وسفك الدماء ، فقد اعتلت شجرة الدر العرش بعد اغتيال تورانشاه آخر سلاطين الأيوبيين في مصر ، كما أنها هي وزوجها عز الدين أيك لقيتا حتفهما بسبب الصراع على السلطة ، وبسبب طبيعة الحكم العسكري في دولة سلاطين المماليك ، وتطبيقاً لمبدأ : « الحكم لمن غلب » الذي قام عليه البناء السياسي لهذه الدولة ؛ كان طبيعياً أن يفكر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في إزاحة السلطان سيف الدين قطز من طريقه صوب عرش سلطنة المماليك . ورجَّح الدكتور قاسم عبده قاسم : أن بيبرس ظنَّ : أنه أحق بالعرش من قطز ، لا سيما وأنه صاحب دور كبير في هزيمة

(١) بدائع الزهور (١ / ٩٩ - ١٠٠) ، و : في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص : ١٦٣ .

(٢) في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص : ١٦٣ .

الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع قبل عشر سنوات في المنصورة ، كما أنه لعب دوراً كبيراً في هزيمة المغول في عين جالوت ، كما أنه كان أول من ألحق بهم هزيمة عندما دمر طليعة الجيش المغولي ، ثم طارد فلوله المنسحبة حتى أعالي بلاد الشام . لقد كان بيبرس ابن عصره ، وكانت تلك هي الأفكار السياسية السائدة آنذاك ^(١) .

لم تكن هناك مؤسسات شورية قوية في اختيار الحاكم ، وغاب الفقه السياسي في الإسلام المتعلق باختيار السلطان ، أو الملك ، أو الحاكم ، لقد حاول السلطان قطز ارجاع الأمر إلى نصابه ، ولكنه قتل قبل تحقيق ذلك ، وبعد أن استطاع أن يدحر المغول ، ويحرر بلاد الشام .

٣ - نتائج مقتل قطز :

انتقلت السلطة إلى القاتل قبل أن تجفّ دماء المقتول ودون أن يرى كبار أمراء المماليك غضاضة في ذلك ، بل إن أتابك العسكر سأل عن القاتل ، وحينما علم : أنه بيبرس ؛ قال له : « يا خوند اجلس أنت في مرتبة السلطنة » وكأن عرش الدولة مكافأة لمن تخلص من السلطان القتل . وهكذا مرة أخرى ترسخ مبدأ : « الحكم لمن غلب » ^(٢) ، ويبدو : أن هناك إجماع من المماليك

(١) في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، قاسم عبده ص : ٢٠٦ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٢٠٨ .

البحرية على زعامة ركن الدين بيبرس . وأما النتائج التي ترتبت على هذه المأساة ؛ فهي :

أ - كانت من الناحية السياسية تكريساً للقوة والدماء :

وسبيلاً إلى السلطة والعرش ، وكانت تلك هي « سنة المماليك في دولتهم » ولم يحدث طوال مئتي وسبعين عاماً - هي عمر دولة سلاطين المماليك - أن وجدنا لهذه السنة تبديلاً ، لقد كانت المفاهيم السياسية للدولة المملوكية نتاجاً للظروف التاريخية التي خرجت هذه الدولة من رحمها إلى الوجود ، ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية في أن أمراء المماليك اعتقدوا منذ البداية : أن عرش البلاد حقٌّ لهم جميعاً ، يفوز به أقواهم ، وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ، وهو الأمر الذي ظهر واضحاً منذ بداية الدولة سواء في مصرع تورانشاه ، أو عز الدين أيبك ، وشجرة الدرّ ، ثم تأكد فيما قام به بيبرس عندما اغتال قطز ، كما تكرر في سلسلة انقلابات القصر ، ومؤامرات الحكم طوال سنوات حكم دولة سلاطين المماليك ^(١) .

ب - مرحلة جديدة في تاريخ المماليك :

وأما النتيجة الثانية الهامة ؛ فتتمثل في الحقيقة التاريخية

(١) المصدر نفسه ص : ٢٠٩ .

القائلة بأن صعود بيبرس على عرش سلطنة المماليك كان بداية مرحلة مهمة في تاريخ الدولة الناشئة جعلت من هذا الأمير الداهية بقسوته ، وجبروته ، وحنكته السياسية ، وبراعته العسكرية المؤسس الحقيقي لهذه الدولة « بفضل الله » ، ثم إنجازاته السياسية ، والإدارية ، والعسكرية ، فقد كانت السنوات العشر السابقة ، مرحلة سيولة سياسية ، حكم خلالها خمسة من السلاطين ، ثم اغتيال ثلاثة منهم ، ونجا الاثنان الآخران بسبب صغر سنهما ، وانعدام خطورتهما ، ولكن بيبرس استمر يحكم سبعة عشر عاماً .

ومن ناحية أخرى : كانت دولة سلاطين المماليك في السنوات العشر الأولى من عمرها تفتقر إلى الشرعية ، وتبحث عن الأمن في مواجهة تهديدات الأيوبيين ، وجاء إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بمثابة الحلّ السعيد لمشكلة الشرعية على حين كانت معركة عين جالوت هي الحل النافع لمشكلة الأمن ، وتهديدات الأيوبيين ^(١) .

ج - زيادة الاعتماد على المماليك :

وكانت النتيجة الثالثة لاغتيال قطز في ازدياد اعتماد أمراء المماليك على مماليكهم بحيث يكوّنون عدّتهم في الصراع الذي

(١) في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص : ٢٠٩ .

يمكن أن يحدث في أيّ وقت ، فقد كان الأمراء الكبار ، وولاة الأقاليم يمتلكون جيوشاً صغيرة من المماليك ، تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمئة ، وستمئة مملوك ، وربما زادت الأعداد لتصل إلى ثمانمئة مملوك ، وأما السلاطين ؛ فصاروا يهتمون بشراء أكبر عدد ممكن منهم ، وبعد عصر بيبرس كان من الممكن أن تصل مشتريات السلطان من المماليك إلى ثمانمئة مملوك بخلاف المماليك الذين ينتقلون إلى خدمته وراثته عن السلطان السابق ، أو من ممالك كبار الأمراء الذين يتركون الخدمة بالوفاة ، أو غيرها^(١) . وهكذا تركزت الطائفية بين العناصر المملوكية بالشكل الذي ترك آثاره السلبية على البناء السياسي لدولتهم على المدى الطويل ، وربما كانت بذرة هذه الطائفية العسكرية الخطرة قد بذرت في حوادث الاغتيال الأولى التي شهدتها الدولة ، ومنها بطبيعة الحال حادث اغتيال السلطان سيف الدين قطز^(٢) .

٤ - قبر سيف الدين قطز وثناء العز بن عبد السلام عليه :

يروى أبو المحاسن : أن قطز : بقي ملقىً بالعراء ، فدفنه بعض من كان في خدمته بالقصير ، وكان قبره يقصد للزيارة دائماً . . . وكان الزائرون كثيرون الترحم عليه ، والدعاء على من

(١) المصدر نفسه ص : ٢٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٢١٠ .

قتله ، فلما بلغ بيبرس ذلك ؛ أمر بنبشه ، ونقله إلى غير ذلك المكان ، وعقّى أثره ، ولم يعفّ خبره ^(١) . وقال المقرئزي : ودفن بالقصير ، فكانت مدّة ملكه أحد عشر شهراً ، وسبعة عشر يوماً ، وحمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة ، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل أن تعمّر ، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة ، ودفن قريباً من زاوية ابن عبود ، ويقال : إن اسمه : محمود بن ممدوح ، وإنّ أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، وإن أباه ابن عمّ السلطان جلال الدين ، وإنما سبي عند غلبة التتار ، فبيع في دمشق ، ثم انتقل إلى القاهرة ^(٢) .

إنّ قيمة الرجال ، وعظمتهم لا تقاس بطول العمر ، ولا بكثرة المال ، ولا بأبهة السُلطان ، إنما تقاس بالأعمال الخالدة التي تغيّر من وجه التاريخ ، فَمَنْ قطز لو لم يتمسك بالإسلام ، ويدافع عنه ؟ ! ولا شك : أن التاريخ كان سيُغفل اسمه كما أغفل أسماء الكثيرين الذين كانوا كغثاء السيل ، بل كانوا وبالاً على شعوبهم ، وأوطانهم مع حكمهم الفترات الطويلة ، والأعمار المديدة ، ولا شك : أن حفر الاسم في سجل التاريخ يحتاج إلى رجال عظماء ، وليس بالضرورة أن يحتاج إلى وقت طويل ^(٣) ،

(١) النجوم الزاهرة (٧ / ٨٦ - ٨٧) .

(٢) السلوك (١ / ٥٢٠) .

(٣) قصة التتار ص : ٣٦٦ .

فالتغيير يعتمد على نوعية الرجال المغيّرين مع مراعاة السنن ، وفقه المصالح ، والمفاسد ، والسياسية الشرعية ، وفقه قيام الدول وسقوطها ، ومعرفة مسار حركة التاريخ في منحنياته المتعددة .

لقد كان الشيخ العز بن عبد السلام يخشى أن يضيع النصر الكبير ، وتنهار الأمة من جديد ، لقد قال بعد موت قطز ؛ وهو يبكي بشدة : رحم الله شبابه ، لو عاش طويلاً ؛ لجدد للإسلام شبابه ^(١) ، وقال : ما ولي أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز - من يعادل قطز رَحِمَهُ اللهُ صلاحاً ، وعدلاً ^(٢) . إلا أنني مع محبتي لسيف الدين قطز ، واعترافي بجهوده العظيمة في خدمة الإسلام ، ودخوله نادي عظماء الأمة ، فإنني أخالف شيخنا العز بن عبد السلام ، وأرى : أن نور الدين محمود الشهيد فاقه صلاحاً ، وإصلاحاً ، وعدلاً ، وجهاداً . ومن أراد التوسع فليراجع كتابي عن عصر الدولة الزنكية . لقد كان سيف الدين قطز من خيار ملوك الترك ، وله اليد البيضاء في القيام لدفع العدو عن ديار المسلمين ^(٣) الشامية ، والمصرية .

٥ - ردة فعل المغول لمقتل قطز :

لَمَّا بلغ المغول نبأ مقتل قطز بتلك الصورة توقعوا حدوث

(١) المصدر نفسه ص : ٣٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٦٧ .

(٣) جواهر السُّلوك في أمر الخلفاء والملوك لابن إياس ص : ١١٥ .

انقسام داخل دولة المماليك ، ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم لمحاولة فرض سيطرتهم على بلاد الشام مرةً أخرى ، فتجمّع المغول الذين كانوا بحرّان ، وغيرها من مدن أقليم الجزيرة ، وانضم إليهم من سلم من معركة عين جالوت ، وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا أسوارها ، وأبراج قلعتها ، وأضحت مكشوفة فادرك الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ الذي كان والياً على حلب خطورة الموقف فيها ، وأرسل نجدةً من عنده لمساعدة أهل البيرة في الدفاع عن مدينتهم ، إلا أنّ هذه القوة الإسلامية لم تستطع الصمود أمام الجموع المغولية ، وتراجعت إلى داخل المدينة حيث بعث قوادها إلى الملك السعيد يخبرونه بتفاقم خطر المغول ، وأنهم اتّجهوا إلى منبج .

ويبدو : أن المغول أرادوا عدم إضاعة الوقت في الهجوم على المدن الصغيرة ، وعقدوا العزم على مهاجمة مدينة حلب التي وصلوها في يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ / نوفمبر ١٢٦٠ م وبدؤوا في مهاجمتها بقيادة الأمير المغولي « بايدر » الذي استطاع اقتحام المدينة ، وإخراج من بها من المسلمين إلى قرية قرنبيا شرقي حلب ، وفيها حاول المسلمون توحيد صفوفهم مرة أخرى للوقوف في وجه المغول ، وإيقاف زحفهم إلا أن ذلك التجمع لم يجد نفعاً أمام كثافة الجموع المغولية .

واضطر المسلمون بقيادة حسام الدين الجوكندار الذي خلف

الملك السعيد على حلب إلى التراجع إلى الخلف لاستدراج المغول إلى مكان أفضل لمنازلتهم ، فتراجع إلى حماة التي فيها الملك المنصور صاحبها ، وفيها رأى توسيع الرقعة على المغول بالتراجع إلى حمص متظاهراً بالضعف أمامهم بهدف اعطاء نفسه فرصة كافية لحشد أكبر عدد من الجيوش الإسلامية فوصله بـحمص الملك المنصور صاحب حماة ومعه أخوه الملك الأفضل علي ، ومعهما عساكر حماة ، كما انضم إليه في الوقت نفسه الملك الأشرف صاحب حمص ، وفي حمص أعاد الجوكندار تنظيم جيوش الإسلام مرة أخرى ، وجعلها بالعدة ، والعتاد استعداداً لمنازلة المغول ، الذين وصلوا إلى حمص في المحرم من سنة ٦٥٩ هـ / ديسمبر ١٢٦٠ م حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس عند قبر خالد بن الوليد - رضي الله عنه ^(١) - بالقرب من الرستن ، وأبلى فيها المسلمون بلاءً حسناً رغم قلة عددهم ، وكثرة عدد المغول ؛ حتى كتب الله لهم النصر على عدوهم ، وفرَّ «بايدر» من المعركة فيمن سلم من جنده ، وتبعهم المسلمون يقتلون ، ويأسرون .

وسارع الملك المنصور عقب ذلك الانتصار بالاتجاه إلى سلمية حيث انضموا إلى جموع مغولية كانت نازلة بها ، وحاولوا عبثاً مهاجمة حماة مرة ثانية وأقاموا عليها يوماً واحداً ، ثم رحلوا

(١) جهاد المماليك ص : ١٢٩ .

عنها إلى أفامية ، التي كان قد سبقتهم إليها فرقة من جيش المسلمين أقامت بالقلعة ، وقامت بتنظيم الهجمات على المغول داخل المدينة التي اضطر العدو إلى ترك أفامية ، والاتجاه إلى حلب التي ظلوا يحاصرونها مدّة من الزمن حتى تمكن الملك الظاهر بيبرس من تثبيت نفسه على عرش الدولة المملوكية في مصر ، والشام ؛ حيث سارع بإرسال جيش كبير أوكل إليه مهمة طرد المغول من بلاد الشام . ولما سمع المغول بمقدم ذلك الجيش ؛ دخلهم الهلع ، والخوف ، فولوا الأدبار هاربين باتجاه الشرق ، وظهرت بلاد الشام مرة أخرى من نير الاحتلال المغولي ^(١) .

واستطاع المسلمون أن يتجاوزوا هذه المحن العظيمة ، وأثبت التاريخ بوقائعه ، وشواهدة : أن هذه الأمة أصلب ما تكون عوداً ، وأشدّ ما تكون قوة ، وأعلى ما تكون همة عندما تحيط بها الشدائد ، وتحل بساحتها الأزمات ، وتتلبّد في سمائها الغيوم ، فهي حينئذ تستجمع قواها ، وتستثير كوامنها ، وتظهر ذخائرها ، وتقف في مواجهة الهجمات الغازية ، والمحن القاسية ، بإيمان صلب ، وصبر جميل ، وثبات نبيل ، وتوكل على الله ؛ حتى يجعل الله لها من عسرها يسراً ، ومن ضيقها فرجاً ، ومن مأزقها مخرجاً ، ومن ظلام ليلها صباحاً مشرقاً ، ونهاراً مضيئاً . وبهذا أثبتت الأمة عراقتها ، وأصالتها ، وأنها قادرة على امتصاص

(١) النجوم الزاهرة (٧ / ١٠٤ - ١٠٦) .

الهزائم ، واجتياز المحن ، والشدائد العظام ، والوصول إلى برّ الأمان في النهاية بسلام ^(١) .

سادساً : أسباب انتصار المسلمين في عين جالوت :

١ - القيادة الحكيمة :

أكرم الله الأمة في تلك الفترة التاريخية الحرجة بالسلطان سيف الدين قطز ، وكان رجلاً صالحاً ، كثير الصلاة في الجماعة ، ولا يتعاطى الشرب ، ولا شيئاً ممّا يتعاطاه الملوك ^(٢) . وكان شجاعاً وبطلاً ، كثير الخير ، ممالئاً للإسلام وأهله ، وهم يحبّونه ^(٣) . وكان مقداماً حازماً حسن التدبير ، وكانت الأمة في أشد الحاجة لقيادة حكيمة ، تتصف بصفات فدّة ، فقد جاءت مواهبه موافقةً لحاجات الأمة ^(٤) . شهد معارك كثيرة مع الأيوبيين مما أتيح له خبرة في الحروب ، وكان مهياً نفسياً منذ نعومة أظفاره في أن يكون قائداً فذاً ، يشار إليه بالبنان ، ويكون صاحب شأن في مجريات الأحداث في مصر ، والشام ، وكان يعتزّ بعقيدته الإسلامية ، ويفخر بها ، وكان يحمل الضغينة والحقّد على

(١) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي ص : ٢١٠ .

(٢) البداية والنهاية (١٧ / ٤٠٥) .

(٣) المصدر نفسه (١٧ / ٤١١) .

(٤) سيف الدين قطز ، قاسم عبده ص : ١٦٤ .

المغول الذين أذاقوا خوارزمشاه ومن معه شراً ، ووطؤوا بلادهم ، وساموهم سوء العذاب .

وكان له من الصفات الجسمية ما يؤهله لأن يكون قائداً ، فهو قوي البنية ، مستدير الوجه ، عريض الكفين ، ممتلئ الجسم ، أشقر ، كث اللحية ، وكان من البارزين في الفروسية ، والحادقين في استخدام الرمح ، فإذا أتاه الخصم من الخلف رمى الرمح أمامه بقدر ثلثه ؛ حتى إذا كان الرمح بين كتفي قطز أبطله ، وغرز رمحه في صدره لا محالة ^(١) .

ولما داهم الخطر الأرض الشامية ، والمصرية ، وتحرك المغول بجيوشهم لكي يقضوا على المماليك ؛ اتخذ قطز حينذاك عدة إجراءات دفاعية ، منها :

الترحيب بالهاريين من المماليك ، وتناسيه الضغائن ، والأحقاد ، والخلافات التي كانت بينه وبينهم ، وعزل الملك المنصور علي لصغر سنه ، وعدم قدرته على ترتيب الأوضاع التي تحتاج إلى حزم ، ووحدة ، وقيادة قادرة على محاربة المغول ، وذلك سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م ، وتحضير الإمكانات ، وحشد الطاقات البشرية ، والاقتصادية ، ومحاولة التحالف مع الملك

(١) معركة عين جالوت ص : ١٢٤ .

الناصر صاحب الشام ، وتوحيد القوّتين ؛ ليكون الجيش أقوى في مواجهة أعدائه ^(١) .

لقد كان سياسياً استراتيجياً مخططاً أكثر منه مقاتلاً ؛ إذ إستطاع في مدة بسيطة أن يسوس بلاد الشام ، وأن يحسن إلى الشعب ، ويقدم له الأمن ، والسلامة ، والاستقرار ، وأن يهيئ له سبل العيش الكريم ، وأن ينظم الأمور الإدارية ، ويعين الحكام الإداريين للمدن التي احتلّها ، واستردها من التتار ^(٢) .

إنما يتميز به هذا السلطان هو الإيمان بالله عز وجل ، الذي لا يرقى إليه ريب ، ولا شك ، والفطرة السليمة التي جبل عليها ، وتربى في ظلّها ، والعيش الصعب الذي أهّله للصبر ، والوقوف أمام الشدائد ، وتقلبه في البلاد ، والحرمان الذي قاساه في صغره ، والتربية التي خضع لها ، وتمّت عقيدته ، ورسخ إيمانه ، وهذب نفسه ، وأصلح باله ، وقوّى من عزيمة الجهاد ، ومن الاستهانة بالموت ، ومن الإقدام ، والعزيمة على قتال المغول ، ومن الوثوق الكامل في الله بالنصر عليهم ^(٣) .

وقد دلت حروب قطز التي خاضها مع الأيوبيين وضدّ الأمراء

(١) المصدر نفسه ص : ١٢٦ .

(٢) فوات الوفيات (٢ / ٢٦٨) و : معركة عين جالوت ص : ١٢٦ .

(٣) شذرات الذهب نقلاً عن معركة عين جالوت ص : ١٢٧ .

الهاربين إلى الكرك ، وضدَّ الأمراء الذين حاولوا اغتصاب السلطة ، وفي معركة عين جالوت على أنه قائد حرب استراتيجي من الطراز الأول ، فهو خفيف الحركة على حصانه ، وهو الذي أجاد في القتال بالأسلحة المستخدمة آنذاك ، وكان صاحب قرار تميّز بالوضوح والدقة ، والنظر الثاقب ، وجلاء الهدف ، وبيان الحقيقة خاصة فيما يتعلق بمعركته هذه مع المغول ، وهو حازم وقت الشدة ، ومصمّم على بلوغ النصر مهما كانت العقبات أمامه ، ومتفهمٌ لقدرة عدوه ، ومقدّر لقوة الصديق ، وكان يحسب لكل شيء حسابه ، ويدقّق المعلومات ، ويحافظ على رؤوسه ، ويستميلهم بأسلوبه الجذاب ، ويتعاون مع أركانه ، ويعطيهم الثقة ، ويمنحهم المساعدة ، والعطاء .

وكان منظماً ، قاد الكتلة الرئيسية من الجيش في معركة عين جالوت ، فنظم الميمنة ، والميسرة ، والقلب ، وأناط لكل جناح قائداً شجاعاً ، ونسّق الصفوف إلى عدة تراتيب ، وجعل الميمنة تتقدّم بالإحاطة ، والميسرة بالالتفاف ، والقلب بالتقدم البطيء الزاحف ، كما بث الحرس المتحرك على الأجانب ، والكمائن في المواقع التي لا يتوقعها العدو ، مما جعله يتمكن من عدوه ، ويقضي عليه بعد أن استدرجه للوقوع في النقطة الميتة التي وقع فيها عددٌ كبير من قتلى المغول .

ولقد حدد قطز قواعد وأسس الشؤون الإدارية في الجيش المملوكي ؛ إذ استطاع أن ينظمها ، ويحدّد خطوطها العريضة

بخاصة فيما يتعلق بحركتها ، وخفتها ، وقد ظهر ذلك جلياً عندما حدد لصاحب حماة كيفية ، ونوع الإمداد ، وعندما أكد على أن الجندي يجب أن يكون خفيف الحركة لا يثقله الطعام الكثير المتنوع ، فأمر بوضع قطعة من اللحم في كلّ مخلّاة عسكرية ^(١) .

ومما يشار إليه أن قطز كان متديناً عفيفاً ، صاحب تقوى وورع ، وهذه الصفة أكسبته الشجاعة ، والإقدام في الحروب ، وجعلته يستبسل ، ويقدم روحه رخيصة ، ويستهن بالموت وبخاصة عندما قتل حصانه ، واستمرّ في القتال دون جواد ، وكان في مقدمة الجيش يقاتل عن حمية ، وعقيدة ^(٢) .

وكانت له مواقف إيمانية متميزة منها :

أ - وضوح الرؤية ونقاء الهوية :

كان على اعتقاد جازم بأن النصر لا يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى ، ولذلك اهتم قطز بالناحية الإيمانية عند الجيش ، وعند الأمة ، وعظم دور العلماء ، وحفّز شعبه لحرب التتار من منطلق إسلامي ، وليس من منطلق قومي ، أو عنصري ، ولخصّ ذلك في عين جالوت في كلمته العظيمة « وإسلاماه ! » ولم يقل : « وإصراه » ، أو « وإملكاه » ، أو « وإعروبتاه » ، لقد كانت

(١) عين جالوت ص : ١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ص : ١٢٨ .

الغاية واضحة ، والهوية إسلامية تماماً ، ووضوح الرؤية ، ونقاء الهوية كان سبباً من أسباب النصر ، بل هو أعظمها على الإطلاق^(١) .

ب - الدعاء سلاح فتاك :

حرص سيف الدين قطز قبل بدء المعركة أن يتأخر الناس في مواجهة الأعداء ، كما قال : حتى تدور الشمس ، وتفيء الظلال ، وتهب الرياح ، ويدعو لنا الخطباء ، والناس في صلاتهم^(٢) . وكان هذا العمل تأسيّاً برسول الله ﷺ والصحابة من بعده ؛ حيث كانوا يحبون أن يكون القتال بعد الزوال ، وقد نشبت المعركة وكان القتال شديداً على المسلمين ، حتى إن الأعداء كادوا يزيلونهم عن مواقعهم ، وكان السلطان قطز يثبت الناس ، وينحاز إلى بعض نواح الجيش حينما يحسُّ ضعفاً منهم ؛ حتى يقوي من عزيمتهم ، ويشجعهم ، وكان له عدّة مواقف شجاعة أثناء المعركة^(٣) .

ج - الحرص على الشهادة :

في معركة عين جالوت ، قُتل جواده ، ولم يجد أحداً في

(١) قصة التتار ص : ٣٥٣ .

(٢) الفتوح الإسلامية عبر العصور ص : ٣٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٣٤٧ ، و : الطريق للقدس محسن محمد

ص : ١٧٥ .

الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب ، فترجل ، وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً ، والقتال على أشده في المعركة ، وهو في موضع السلطان من القلب ، فلما رآه أحد الأمراء ؛ ترجل عن فرسه ، وحلف على السلطان ليركبها ، فامتنع ، وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ! ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيول ، فركب ، فلامه بعض الأمراء ، وقال : يا خونت ! لم لا ركبت فرس فلان ، فلو أن بعض الأعداء رآك ؛ لقتلك ، وهلك الإسلام بسببك . فقال : أما أنا ؛ فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام ؛ فله رب لا يضيّعه ، قد قتل فلان ، وفلان ، وفلان (حتى عدّ خلقاً من الملوك) فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ، ولم يضع الإسلام ^(١) .

فهذا موقف جليل لهذا الأمير البطل دلّ على تواضعه ، وعدم اهتمامه بحفظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة ، كما يدل على تذكره عظمة الإسلام ، والهدف العالي الذي ينشده المؤمنون حقاً ، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ، والجنة ^(٢) .

د - رؤيا صادقة :

كان من أهم الحوافز للأمير سيف الدين قطز على الإقدام على

(١) الفتوح الإسلامية عبر التاريخ ص : ٣٤٨ .

(٢) التاريخ الإسلامي (١٦ / ٣٨٨) .

حرب التتار رؤيا صالحة رآها في صغره ، وكان يحدث بها أصحابه ؛ حيث قال : رأيت النبي ﷺ في المنام ، وقال لي : أنت تملك الديار المصرية ، وتكسر التتار ، وقول النبي ﷺ حق لا شك فيه ^(١) . فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يقدم على قتال التتار بعزم ، وقوة بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء ، أو قاتلوهم بضعف ، وخوف ، لقد دخل مظفر الدين تلك المعركة وهو على يقين قوي ، وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ، ولجنده ، كما كان الصحابة - رضي الله عنهم - يدخلون المعارك ؛ وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي ﷺ بالتمكين في الأرض ، وما دامت هذه الرؤيا قد انتشرت ؛ فإن الذين علموا بها من جنوده ، وقادته سيكونون على درجة عالية من الثقة ، واليقين بالنصر ، فكان ذلك دافعا قويا له إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى ^(٢) ، وذلك من أسباب النصر على أعدائهم .

هـ - القدوة :

كان سيف الدين قطز متواضعا ، وضرب أفضل الأمثلة لجنوده ، ولأتمته في كل الأعمال ، وتربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب ، والمقالات . كان سيف الدين قدوة في

(١) المصدر نفسه (١٦ / ٣٩١) .

(٢) المصدر نفسه (١٦ / ٣٩٢) .

أخلاقه ، وفي نظافة يده ، وفي جهاده ، وفي إيمانه ، وفي عفوه ، ولم يشعر الجنود أبداً بأنهم غرباء عن قطز ، لقد نزل رَحِمَهُ اللهُ بنفسه إلى خندق الجنود ، وقاتل معهم ، فكان حتماً أن يقاتلوا معه ^(١) .

و - عدم موالة أعداء الأمة :

لم يوال سيف الدين قطز التتار أبداً مع فارق القوة ، والإعداد بينهما ، كما لم يوال أمراء النصارى في الشام مع احتياجه لذلك ، لقد سقط الكثير من الزعماء قبل قطز في مستنقع الموالة للكفار ، وكان منطلقهم في ذلك : أنهم يجنبون أنفسهم أساساً ، ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك - كما يدعون - ويلات الحروب ، فارتكبوا خطأً شرعياً شنيعاً ، بل إرتكبوا أخطاء مركبة ، فتجنب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ ، وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر ، وموالة العدو ، واعتباره صديقاً خطأ ثالث ، لكن قطز كان واضح الرؤية بفضل الله ، ثم بفضل تمسكه بشرعه سبحانه وتعالى ^(٢) .

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

لقد كان سيف الدين قطز من القيادات الحكيمة التي

(١) قصة التتار ص : ٣٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٥٦ .

استطاعت أن تأخذ بعوامل النصر ، وتتعامل مع أسبابه ، وجمع بين الأسباب المادية والمعنوية ، وبعد المعركة قرّر المظفر قطز مواصلة الجهاد ، فجمع جيشه ، وأمراه ، ونزل إلى الأرض ، ومَرَّ وجهه بالتراب ، وصَلَّى ركعتين شكراً لله على هذا النصر ، ووقف فيهم خطيباً ، وقال : لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله فنصر قليلكم على كثير عدوكم ، إياكم والزهو بما صنعتم ! ولكن اشكروا الله ، واخلضعوا لقوله ، وجلاله ، إنه ذو القوة المتين ، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد ، وإنما بدأتموه ، وإن الله ، ورسوله لن يرضيا عنكم ؛ حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ^(١) .

٢ - توسيد الأمر إلى أهله :

قام سيف الدين قطز بتوسيد الأمور إلى أهلها ، واهتم بالكفاءة ، والأمانة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] ، روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ متى الساعة ؟ فقال ﷺ : « إذا ضُيعت الأمانة ؛ فانتظر الساعة » قال : كيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِدَ الأمر إلى غير أهله ؛ فانتظر الساعة ^(٢) » . فإذا تولى الأمور رجال لا يمتلكون كفاءة ،

(١) من أجل فلسطين ، حسني أدهم جرارص : ١٠٢ .

(٢) قصة التتارص : ٣٥٧ .

ولا يتصفون بأمانة ، ولم يصلوا إلى مكانهم إلا بواسطة ، أو قرابة ، أو رشوة ، إذا حدث ذلك ؛ فاعلم : أن النصر بعيد ^(١) . أما سيف الدين قطز ، فقد أسند الأمور إلى أهلها ، واختار قادة جيشه ، وأركانها ، وكان لهم الفضل بعد الله تعالى في الانتصار على المغول على المستوى التكتيكي ، والاستراتيجي ^(٢) .

ومن أشهر هولاء القادة الذين ساهموا في النصر :

أ - الظاهر ركن الدين بيبرس البندقاري :

كان في معركة عين جالوت رئيسَ أركان الجيش المملوكي ، وقائدَ الطليعة ، طارد بيدرا قائد طليعة الجيش المغولي إلى أرض أفامية . ظهرت عليه النجابة ، والفطنة في سنٍّ مبكرة من حياته التي كان فيها مملوكاً ، وقربه ، وقدمه الملك الصالح نجم الدين أيوب على الجمдарية الذين كانوا عنده ، وحضر معه معركة دمياط ، وأبلى فيها بلاءً حسناً ظهرت عبقريته العسكرية ، وشجاعته الفائقة ، لا يزال الكره يملأ قلبه ، والحقد الكبير على المغول الذين أهانوه ، وأسروه ، عندما كان عمره أربعة عشر عاماً ، وباعوه ، فشروه إلى أن وصل إلى البندقاري الذي سمّي الظاهر باسمه ، ثم انتقل إلى الملك الصالح ، وكان من أبطال معركة

(١) قصة التتار ص : ٣٥٧ .

(٢) عين جالوت ص : ١٢٣ .

المنصورة التي كانت من المعارك الحاسمة بين الصليبيين ، والأيوبيين ، والتي انتصر فيها الجيش الأيوبي الذي كان في أكثره من المماليك ، ورأى بنفسه : أنه يمكن الانتصار على هؤلاء ، وغيرهم ، وأنه بإمكان المماليك لو نظموا ، ودربوا ؛ أن ينتصروا على كل طامع ، وغاصب .

وقد تميز بثقافته العسكرية التي كان يتمتع بها ؛ إذ كان شغوفاً بدراسة تاريخ المعارك ، والحروب ، وكان يشجع ، ويحث العسكريين التركيز على هذه الدراسة ، وبنفس الوقت كان يحبُّ الأساتذة ، وخبراء الحرب ، ويميل إليهم ، ويكرمهم ، ويهيئ لهم الجو الملائم للتدريس ، وإعطاء مزيد من المعلومات التاريخية العسكرية وكان يقول : سماع التاريخ أعظم من التجارب .

وحافظ على التدريب العسكري المتواصل ، والاهتمام بكل صغيرة ، وكبيرة من الأمور المتعلقة بالسياسة ، والحرب ، وقد تمتع بصفات قيادية فذة ، وكان يأخذ بالحذر ، والحيطة لكل الأمور ، واتخاذ المناسب حيال كل حدث ، أو اعتداء ، والخبرة الطويلة والمدة الزمنية الكبيرة التي قضاها في الحروب الحقيقية ^(١) . كان من الشخصيات القيادية التي ساهمت في تحقيق النصر في عين جالوت .

(١) معركة عين جالوت ص : ١٢٨ - ١٣٦ .

ب - الأمير فارس أقطاي :

المستعرب ، أتابك الجيش ، والذي تولى تجهيزه ، وإعداده ، والإشراف على كل أموره ، وفوق كل ذلك ، فقد كان هو بنفسه من الرجال الموثوق بدينهم ، وأخلاقهم ، وشجاعتهم ، وكفاءتهم في الإعداد ، والتنظيم ، والتعبئة^(١) ، كان مقداماً شجاعاً ، وذا معرفة بالحروب ، وكان قطز يعول عليه كثيراً ، وكان هادئاً ، ورعاً ، محباً للخير ، مقرباً إلى الملك قطز ، ومحبوباً من قبل مرؤوسيه^(٢) .

ج - سنجر الحلبي :

كان أتابك العسكر في زمن الملك المنصور علي بن أبيك سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ، وكان نائب المظفر قطز في دمشق في أعقاب معركة عين جالوت ، ولمّا جاءه خبر مقتل قطز ، واستلام الملك الظاهر ، ومبايعته ؛ هرب إلى بعلبك وضيق عليه ، ثم ألقى القبض عليه ، وسجن ، ثم أطلق سراحه ، وكان على درجة كبيرة من البطولة ، والشجاعة ، وقد أبلى بلاءً حسناً في المعركة الفاصلة^(٣) .

(١) من أجل فلسطين ، حسني أدهم جرار ص : ٩٨ .

(٢) معركة عين جالوت ص : ١٣٦ .

(٣) الوافي في الوفيات (١٥ / ٤٧٣) و : معركة عين جالوت =

د - آقوشي الشمس الأمير جمال الدين :

كان جندياً قوياً ، وأميراً موصوفاً بالشجاعة ، والإقدام ، والجرأة في التنفيذ ، وقد كان خشداشيا عند الأمير بدر الدين البيسري ، كما خدم عند غيره ، وقد ظهرت عليه تطلعات الارتقاء إلى المناصب العالية ، حتى إذا كانت معركة عين جالوت ، شكل من وحداته العسكرية ، وقصد مقر قيادة المغول ، حتى إذا كان قاب قوسين ، أو أدنى من القائد العام للجيش المغولي ؛ انقض عليه ، وأصابه ، وطرحه أرضاً ، وأسر كيتوبوقا ، ولما رأى الجيش المغولي : أنه قد أسر قائده ؛ خارت قواه ، وضعفت معنوياته ، وبهذا فقد حقق آقوشي نصراً لجيشه ، بل كان منعطفاً تاريخياً ، ثم وُلِّي فيما بعد نيابة حلب ، وبقي فيها حتى توفي ^(١) .

هؤلاء كانوا من أهم قادة جيش المماليك الذين حققوا النصر الكبير في عين جالوت ، فكانوا من أسباب النصر ، لقد اهتم سيف الدين قطز بالكفاءات ، والقادة الآخرين ، فتعاطفوا معه ، والتفوا حوله ، وتولدت الثقة التي كانت المفتاح الرئيس لتحقيق التمكين في عين جالوت ، وكان سيف الدين قطز يملك مقومات الحصول على الثقة من الأمراء ، والعلماء ، وعامة الناس والتي من أهمها :

= ص : ١٣٧ .

(١) النجوم الزاهرة (٧ / ٩٧) و : معركة عين جالوت ص : ١٣٨ .

- التعاطف ، ويتحقق ذلك من خلال الاهتمام بالآخرين ،
والوقوف إلى صفهم فيما يحدث لهم من خير ، أو شر ،
ومشاركتهم همومهم ، ومشاكلهم ، ومن خلال ذلك تم كسب ثقة
القادة ، والعلماء ، وعموم الشعب .

- الصدق ، والصراحة ، والكفاءة ، والعمل الجماعي
المنظم ، والانتماء للإسلام ، والقدرة على الاتصال بالآخرين ،
وكل هذه المقومات ساهمت في كسب الثقة في سيف الدين
قطز^(١) .

٣ - الجيش القوي :

يعتبر الجيش المملوكي في ذلك الوقت من أقوى الجيوش
الإسلامية ، والفضل لله ، ثم للملك الصالح أيوب ؛ الذي قام
بإصلاح عسكري في الدولة الأيوبية ، ووضع سياسة جديدة تقوم
على استخدام الأتراك المماليك بشكل لم يسبق له مثيل من قبل
أسلافه الأيوبيين مكنته من متابعة حروبه الخارجية مع مملكة بيت
المقدس ، والتصدي للحملة الصليبية السابعة^(٢) ، ورافق ذلك

(١) انظر : إدارة الجودة الشاملة للشيخ فيصل بن جاسم بن محمد آل ثاني ،
حيث تم الحديث عن أساسيات إدارة الجودة الشاملة ومقومات الحصول
على الثقة ص : ٢١٣ .

(٢) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص : ١٥١ .

التطوير العسكري الاهتمام الديني به من حيث التربية ، والتعليم ؛ حتى أصبحت كتائب المماليك تدافع عن عقيدة الإسلام ، وأصبحت الدولة تحتفظ بجيش عقائدي ، ومنظم ، ومدرّب أحسن تدريب ، صناعته الحرب ، والقتال وأبدى من المهارة ، والبسالة في قتال القوات الصليبية برغم هزيمتهم في بداية الأمر . وتميّز القواد المسلمون بوضع الخطط الحربية الممزوجة بال المكر ، والخدع الحربية ^(١) .

وتسلم المماليك المؤسسة العسكرية الأيوية بعد وصولهم للحكم ، وحافظوا عليها ، وقاموا بتطويرها . لقد اشترك الجيش المملوكي في معركة عين جالوت بقياداته العسكرية ، والتشكيلات المقاتلة النظامية ، والجيش المركزي ، والجيش الإقليمية ، والجيش الاحتياطية بما فيها القبائل العربية ، والتركمان ، والأكراد ، وقدّر المؤرخون في ذلك العصر : أن حجم الجيش المملوكي بالكامل كان في حدود ٤٠ ألف مقاتل ^(٢) ، وكان عدد الفرسان في حدود عشرة آلاف فارس ، وأغلبهم من المماليك ، وقسم قليل من غيرهم من المشتركين في المعركة ، وكان عدد الجيش المغولي في عين جالوت ١٥ ألف مقاتل ، وذلك : أن القوة الرئيسية من هذا الجيش تحركت باتجاه فارس مع هولاكو ،

(١) الأيوبيون بعد صلاح الدين الصّالبي ص : ٣٦٠ .

(٢) النجوم الزاهرة (٧ / ١٩٧) ، و : معركة عين جالوت ص : ١٦٥ .

وتوزعت بعض القوى الأخرى في المناطق التي احتلها مروراً ببغداد وانتهاءً بالشام ، وكان في اعتقاد القادة المغول : أن هذا العدد قادر على تحطيم وتدمير الجيش المملوكي بكل سهولة طالما أن له الخبرة في الحروب ، وسبق أن انتصر على كل الجيوش التي اشتبك معها ، وقد أكد على هذا العدد مجموعة من المصادر التاريخية من أهمها ، جامع التواريخ ، وتاريخ مختصر الدول ، وتاريخ الشهابي ، وتاريخ الصليبيين ، وتاريخ الزمان ^(١) .

٤ - إحياء روح الجهاد :

كانت الغاية من التوجيه المعنوي في الجيش المملوكي التذكير بالجهاد ، والحث عليه ، والترغيب ، وشحن النفوس بمقارعة ، ومحاربة العدو ، وصون الديار ، والحرمة الإسلامية . إنَّ القوة المعنوية يُرَكِّز عليها في كل الجيوش ، فلا ينتصر جيش بدون معنويات ، ولهذا فإن القيادة تسعى دائماً إلى زيادة هذه القوة ، ورفعها ، فهي تحاول أن يكون السلاح حديثاً موثقاً به ، والشؤون الإدارية بحالة جيدة ، كالطعام ، واللباس ، والحاجيات الأخرى ، ولقد أكثر المماليك من الوسائل التي ترفع هذه القوة ، كالمكافآت ، والترقيات ، وإغداق الأموال ، ولكن هذه الوسائل كانت مؤقتة للسكن الذي لا يلبث أن يعود الجندي إلى حالته الطبيعية ، ولكن هناك وسيلة كبيرة هي العقيدة التي كانت

(١) معركة عين جالوت ص : ١٦٦ .

تأمر بالقتال ، وأن النتيجة مع المقاتلين في النصر ، أو الاستشهاد .

وقد أشعل هذه الناحية المشايخ في الجيش المملوكي ، فأججوها ، ورفعوا بها إلى المكان الذي يمكن أن يأخذوا من الجندي كامل طاقته ، وقدرته ^(١) . وإذا أردنا أن نجمل بواعث المعنويات عند الجيش المملوكي في معركة عين جالوت ؛ لخصناها كما يلي :

- زيادة حجم الجيش المملوكي ، وتفوقه على خصمه .
- الثقة في الله في تحقيق النصر .
- الانتقام من المغول الذين طغوا ، وبغوا في البلاد التي احتلوها ، والثأر لكلّ المظلومين ، والمقهورين .
- العقيدة التي أججت في المقاتلين روح التضحية ، والفداء ، وجعلتهم يقدمون على الموت ، وهو أحب إليهم من الحياة .
- الاستعداد الكامل ، والتحضير لهذه المعركة ، وحشد كل الطاقات والإمكانات لنجاحها .
- تراخي العدو وعدم اكتراثه ، وعدم تطبيقه الأسس

(١) معركة عين جالوت ص : ١٩١ .

والمبادئ الحربية ، وعدم أخذ الحيطة والحذر ^(١) .

إن الذي يلفت النظر في موضوع المعنويات هو العقيدة ، فيها اجتمعوا ، وتوحدوا على مستوى واحد ، وأرضية واحدة ، فالمملوكي مهما كانت طبقته ، وقوميته ؛ فهو عقائدي ، وبهذا الانتماء قدم الجهاد ، وبهذه المزية اندفع بمعنوية لا تقابلها معنوية في الجيش المغولي ، فذاك قطز نادي بأعلى صوته « وإسلاماه ! » فاجتمع له الجيش بفئاته المختلفة بمعنويات عالية ، ذلك لأن هذا النداء العقائدي أوجع في نفوس القادة ، والجنود كل إمكانات المقاتل القتالية ، وجعله يقدم الإرادة حباً ، وتضحية ، وفداء ، واستبسلاً . على هذا النداء قاتل الجيش المملوكي قتال رجل واحد ، فانتصروا على أكبر قوة في تلك الحقبة ^(٢) .

٥ - الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب :

إن انتصار المسلمين في معركة عين جالوت ؛ لأنهم عرفوا كيف يتعاملوا مع سنة الأخذ بالأسباب ، وكان سلاطين المماليك أصحاب فقه عميق بسنة الأخذ بالأسباب ، ويظهر ذلك من خلال حرصهم على العمل ، وقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

(١) معركة عين جالوت ص : ١٩١ .

(٢) معركة عين جالوت ص : ١٩٣ .

قُوَّةٍ وَمِنْ رَّبِّاطِ الْأَخِيلِ ﴿٦٠﴾ [الأنفال : ٦٠] ، لقد فهم قادة المماليك : أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى على اختلافها ، وتنوعها ، ولقد قاموا بشرح هذه الآية عملياً من خلال التدريب ، والتعليم ، والتخطيط ، والتنظيم ... إلخ .

لقد اهتم قادة المسلمين في مصر بتأهيل الفارس لكي يدخل الحرب وهو على أتم الاستعداد لها ، وكان أغلب الملوك ، والسلاطين ، والأمراء من الفرسان المعدودين ، ومن الأبطال الشجعان الذين على علم بالرمية ، ولعب الرمح ، وضرب السيف ، وخفة الحركة في ساحة الميدان ، وبفنون القتال ، وباستخدام الأسلحة المعروفة في ذلك العصر ، ولم تقتصر الفروسية على الوجهاء ، بل كان أغلب الجنود ، أو قل : جميعهم من الفوارس ، ومن المدربين على تلك الأعمال التي في نظرهم في مقدّمة كل أمر .

ومن أبرز الصفات عند الجيش المملوكي ^(١) ، والتي كان يركز عليها عند القادة في وقت الإعداد والتدريب والأخذ بالأسباب :

أ - العمومية والشمولية :

إنَّ التدريب كان يشمل المؤخرة ، كما يشمل المقدّمة ،

(١) المصدر نفسه ص : ٢٥٠ .

والتشكيلات كما في القطعات ، والوحدات ، والفرد كما في المجموعات ، والجندي كالقائد ، والبحرية كالقوات البرية ، ولا يستثنى أحد ، وكانت هذه التدريبات تتناول جميع أنواع التدريب ، وأشكاله ، وطرائقه ، كما تتناول جميع أنواع الأسلحة المستخدمة في القتال ، والتدريبات التي تحافظ على اللياقة البدنية ، وترفع من قدرة الجندي القتالية ، كألعاب السباق ، والمصارعة ، وبهذه العمومية ، والشمولية توصل الجيش المملوكي إلى توازن قتالي بين صفوف قواته ، واختصاصاتها المختلفة ، وإلى وحدة الجيش الحربية ، وإلى ثقل الضغط والخرق ، فإن ركز جهوده الرئيسية إلى قطاع من دفاعات العدو ؛ تراه يجمع كل الجهود لهذا القطاع ، كما حدث تماماً في معركة عين جالوت عندما خرق الدفاع ، واستطاع أن ينفذ من اليمين ، والشمال ، وأن يصل خلف القوات المغولية بالرغم من الصمود ، وثبات الدفاع^(١) .

ب - ملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي :

كان المماليك يُدَرَّبون على أصول العقيدة ، وأحكامها ، ونظرتها إلى الجهاد تحت إشراف مدربين اشتهروا بالتربية ، والتعليم ، وكانوا يعلمونهم القرآن الكريم ؛ حتى إن بعض المدربين كانوا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وكذلك

(١) معركة عين جالوت ص : ١٥١ .

كانت علوم شرعية متنوعة في التفسير ، والحديث ، والسلوك ، واللغة ، وبعد نجاحه في أمور العقيدة ، وإتمامه هذه المرحلة ، وبعد أن يكبر يُسَلَّم إلى مدرّبين في أمور الحرب ، والقتال ، فيتدربون على ركوب الخيل ، ويتدرّجون من السهولة إلى الصعوبة ، فيقاتل على ظهرها بسلاح واحد ، ثم يصل إلى جميع الأسلحة ، ويتدرب في حالة الركض ، والوثوب عنها ، ثم ينتقل إلى الرمي ، والدقة في الإصابة على القبق ، والضرب بالسيف ، والطعن بالرمح ، واستخدام الدبوس ، ولعب الصولجان ، ثم يتدرب على طرق القتال في الميدان ، وهذه هي أصعب مرحلة في التدريب يخرج من بعدها مقاتلاً قوياً في عقيدته ، قوياً في قتاله ، وهو بهذا لا ينقطع عن التدريب العقائدي ، أو القتالي ، بل يظلّ ينمّي تدريباته ، حتى يصل إلى أعلى مستوى من التدريب^(١) المتلازم .

ج - التدريب بشكل متواصل :

إن المقاتل المملوكي بعد أن ينهي هذه المراحل جميعها لا يتوقف عن التدريب أبداً ، وإنما هناك الميادين المتعدّدة التي يلتقي فيها المقاتلون ؛ ليقوموا بتدريباتهم المعتادة ، ويواصل العسكري المملوكي تدريبه على جميع أنواع القتال ، وعلى اختلاف الأسلحة في جميع الظروف ، والأحوال الصعبة ، ويبقى

(١) المصدر نفسه ص : ٢٥٢ ، و : الخطط للمقريزي (٤٨٩/٢) .

من الصباح حتى المساء ؛ حتى ولو كان الجو ماطرًا ، أو باردًا ، أو حارًا^(١) ، فالمهم عنده تنفيذ البرنامج التدريبي المقرر ، وكذلك كان التدريب العقائدي ، فقد كان الموجهون المشايخ كثيرين ، وكذلك فإن دور العلم للتدريب كانت كثيرة ، وهي لا تخلو من المقاتلين الذين يلزمون هذه الأماكن ؛ التي كانت منتشرة بشكل واسع^(٢) .

د - التخصص في التدريب :

لقد شاع التخصص في الوظائف العسكرية في الجيش المملوكي ، فكل مادة لها مدربون خاصون بها ، فالنشاب اختص به قادة عسكريون عرفوا به ، فهم يقومون بتدريبه ، وتعليمه للفوارس المبتدئين ، كما كانوا يؤلفون الكتب العديدة التي تبحث في هذا السلاح ، وقواعد رميهِ ، وأصوله ، وأجزائه التي يتألف منها ، وعمل كل جزء ، واستخدامه في الميادين ، وفي ساحات القتال التي تفرض عليه أن يتخذ أوضاعاً مناسبة لكل سلاح . على أن هذا التخصص زاد من المعارف ، وأكسب المدربين ، والمتدربين الدقة ، والسرعة ، وأداء الحركات بكل إتقان ، وفنية عالية^(٣) ، وكان المدرب يتدرج حسب خبرته ، وتحصيله للعلوم

(١) الخطط (٢ / ٤٨٩) و : معركة عين جالوت ص : ٢٥٢ .

(٢) معركة عين جالوت ص : ٢٥٢ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٢٥٣ .

إلى ثلاث درجات : الأولى يكون فيها معلماً ، والثانية أستاذاً ، والثالثة رئيساً ، ولا يرقى من درجة إلى درجة أعلى إلا إذا حصل على نجاح في الفحص ، وقدم شيئاً من مؤلفاته ، وخبرته في العلوم العسكرية ^(١) .

لقد دخل المماليك المعركة بعد الإعداد ، والأخذ بالأسباب ، وحققوا نصراً ساحقاً على المغول ، لقد اتخذ قادة المماليك مجموعة من الاجراءات والأعمال كان الهدف منها التأثير على القوات المغولية في عين جالوت ، وكان من أهم هذه الاجراءات :

أ - الردُّ الفوري على الإنذار :

درج المغول خلال حروبهم السابقة على توجيه إنذار قتالي إلى زعيم البلاد ، أو قادتها ، يحمله مراسلون يتضمّن الأعمال المجيدة التي قام بها الجيش المغولي ، والبطش الذي استخدمه ، والشدة التي عامل بها تلك الجيوش التي تصدّت له ، مذكراً ما حلّ بالمعاندین من دمارٍ ، وخراب ، ثم يدعوهم إلى الاستسلام ، والطاعة ، فإن أبى الخصم ذلك ؛ ابتدأت المعركة على أشدها ، لا تبقي ، ولا تذر ^(٢) . أما المماليك فقد كانوا يخشون لقاء

(١) المصدر نفسه ص : ٢٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٠١ .

المغول ، ويتوجَّسون شراً من الاقتتال معهم ، وقبل عين جالوت وصل رسل هولوكو ، وسلموا الإنذار إلى السلطان قطز زعيم البلاد ، وفي هذا الإنذار من الوعد ، والوعيد ما فيه ، وأهم ما يتضمنه : الاستسلام ، أو القتال ، أو الجلاء عن البلاد ^(١) ، إلا أن القيادة المملوكية ردَّت على هذا الإنذار بقتل الرسل ، وإعلان الحرب ، والاستعداد للمجابهة ^(٢) .

ب - مجلس الحرب :

انعقد مجلس الحرب في القوات المسلحة المملوكية مباشرة بعد الإنذار ، ويتألف من السلطان القائد الأعلى رئيساً ، وعضوية كل من أتاك العساكر ، وشيخ الإسلام ، وقضاة الإسلام ، وأمراء المئين - أي : قادة التشكيلات المقاتلة - وأعيان المشايخ ، ومن مهمته النظر في مشروعية الحرب ، وتعبئة الجنود ، وإعلان النفير العام ، والتدريب ، وتأمين الأسلحة ، والذخائر ، وتحضير الأموال اللازمة ، وتعيين أمير التجريدة العام ، والأمراء الذين بصحبته ، والذين يشكلون أركان الجيش ، وقادة التشكيلات ^(٣) ، ودارت المناقشة التي كان يرأسها قطز ، وكان كلُّ عضو يعبر عن رأيه بكلِّ صراحة ، ووضوح ، وكانت المناقشة جادة ،

(١) معركة عين جالوت ص : ٣٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٠٢ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٣٠٢ .

ومسؤولهً ، وانفضَّ المجلس على قرارٍ تاريخيٍّ ، وتحضير قتاليٍّ ، واستعدادٍ مع هذا اللقاء الحاسم^(١) .

ج - ومن الإجراءات التي تم العمل بها التحضير ، والإعداد للحرب : تحشيد الناس ، والتوجيهات العملية ، وتقسيم المحاور القتالية والاهتمام بالطليلة ، والتحديد ، والحرص على التفوق الكمّي ، والكيفي ، والاعتناء ، والإخفاء ، والتمويه ، واختيار مكان المعركة ، وزمانها ، ومنطقة التمرکز ، ومخادعة العدو ، ونصب الكمائن ، والمطاردة ، والتضليل الاستراتيجي ، والمحافظة على المقاتل ، والتقليل من الخسائر ، والترتيب القتالي ، والتشكيلات القتالية ، والقتال الاستراتيجي بالجيوش المتلاقية ، والبريد الحربي ، ووسائط الاتصال ، ومراعاة ميزان القوى ، والتصميم للوصول للهدف ، وتحقيق النصر السياسي الذي بدوره يقود إلى النصر العسكري^(٢) ، وغير ذلك من الخطوات المهمة التي ساهمت في تحقيق النصر .

٦ - عبقرية التخطيط :

اشتهر قادة الممالك بالقدرة على التخطيط ، والتنفيذ ، ومعرفة قوانين الحرب ، والمبادئ التي تلعب دوراً هاماً لبلوغ

(١) المصدر نفسه ص : ٣٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٠٣ - ٣٣١ .

النصر . وإذا أمعنا النظر في معركة عين جالوت بصورة خاصة ، والمعارك التي تلت بصورة عامة ؛ لأدركنا تماماً : أن قادة الجيش المملوكي كانوا يطبقون هذه المبادئ إلى أبعد الحدود ، ولا سيما الظاهر بيبرس الذي اشترك في هذه المعركة بالذات ، وفي المعارك التي شهدناها بنفسه فيما بعد :

أ - الاقتصاد في القوى :

لم يشأ قطز القائد الأعلى للجيش أن يشرك القوى جميعها في معركة عين جالوت ، ولكنه كان يقود القوى الرئيسية للجيش ، وبيبرس كان يقود الطليعة ، وقد اشتبكت الطليعة - وهي جزء من الجيش - مع حامية غزة ^(١) ، كما اشتبكت القوة الرئيسية هذه مع الجيش المغولي ، كما اشتبكت الميمنة مع ما يقابلها ، وكذلك الميسرة بأعداد تناسب القوة التي كانت تجاهها ^(٢) ، وكان قطز حريصاً كل الحرص على أن يوزع قواته بصورة تتناسب مع القوات التي تقاتل ضده من الجيش المغولي ، فقد أفرز قوة للمجنبات ، وأخرى للالتفاف القريب ، وثالثة للبعيد ، ورابعة للكمين ، وخامسة لإعاقة ، وجذب قوى العدو ^(٣) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٤ / ٣٦٣) ، و : معركة عين جالوت ص : ٢٨٣ .

(٢) معركة عين جالوت ص : ٢٨٣ .

(٣) ذيل الزمان اليونيني (١ / ٣٦١) ، معركة عين جالوت ص : ٢٨٣ .

وأما بيبرس ؛ فقد أظهر براعةً حربيةً في الاقتصاد في القوى في هذه المعركة عندما قاد الطليعة ، وقاتل وهو في طريقه إلى عين جالوت ، ثم في الكمين الذي نصبه للعدو ^(١) ، ثم في المطاردة التي كان فيها هذا المبدأ واضحاً كل الوضوح ؛ إذ أرسل القوى المناسبة على كل محور من المحاور ، وعلى كل اتجاه سلكته القوات المهزومة من الجيش المغولي ^(٢) .

ب - تجميع وحشد الجيوش على الاتجاهات الرئيسية :

لما أراد الجيش المملوكي مقابلة الجيش المغولي في معركة عين جالوت ؛ جمع سيف الدين قطز الجيش المصري ، وأرسل إلى الجيش الشامي ، وحشد الإمكانات المتاحة ، وأرسل في القرى ، والمدن ، والبادية يحث الميليشيات الشعبية ، والتقت هذه التشكيلات جميعاً في أمر المعركة ، وركزت الجهود الرئيسية نحو تجميع الجيش المملوكي الذي كان يتحرك باتجاه مرج بن عامر ، وسار باتجاه الساحل بكتلة واحدة ، فوحدة الجيش ، وقتاله ككتلة واحدة متماسكة يساعد الجيش على تحقيق النصر ^(٣) . وهو ما قد تمّ في عين جالوت .

(١) معركة عين جالوت ص : ٢٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٢٨٣ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٢٨٣ .

ج - الضغط على الأعداء :

كان ذلك واضحاً في معركة عين جالوت عندما تصدّى قادة الجيش لقادة الجيش المغولي ، وثبتوا ثبوت الرواسي أمامه ، وأمام كل عنجهيتهم ، وإنذارهم ، ولما تقابلا ؛ لم يصمد الجيش المغولي ، وخرقت جبهته ، وتعقّب الجيش المملوكي ، ولم ينفصل عنه أبداً حتى إذا أدركه ؛ وضع فيه السيف ، ولحقه إلى أطراف الشام ، والبادية ^(١) ، وبدأ الضغط واضحاً في عدة أمور ، أهمها :

رفض الإنذار ، وقتل الرسل ^(٢) ، والتفوّق العددي الذي أوجس منه خيفة قائد الجيش المغولي ، وتردد كثيراً في طلب المدد ليكون هناك توازن بين الجيشين ^(٣) ، وإجبار الجيش المغولي أن يفتح ، وأن يقاتل في مكان غير مناسب ، والسرعة في التحرك ، وحسم الأعمال القتالية ^(٤) ، والصمود القوي أثناء

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١ / ٢٩) ، و : معركة عين جالوت ص : ٢٨٥ .

(٢) جامع التواريخ (٢ / ٣١٣) ، و : معركة عين جالوت ص : ٢٨٥ .

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور (١ / ٣٠٥) ، و : معركة عين جالوت ص : ٢٨٥ .

(٤) معركة عين جالوت ص : ٢٨٥ .

القتال ، فما كانت تفتح ثغرة ؛ حتى يبادر قطز إلى صدّها ، وأهمّ المواقف الصمودية هو الموقف الذي صمدت فيه الجبهة ، وبخاصة الميسرة الذي كادت أن تتداعى^(١) ، والهجوم الصاعق الذي أدى إلى أسر قائد الجيش المغولي ، وقتله^(٢) ، والمطاردة التي ظل فيها الجيش المملوكي على تماس ، وضغط على الجيش المغولي الذي هرب ، وظن بهروبه النجاة ، ولكنه كان ملاحقاً كيف اتّجه ، ومطارداً أينما سار^(٣) .

د - تحقيق المفاجأة :

إنّ المفاجأة قد تمّت في هذه المعركة بالإخفاء ، والتمويه ، وبظهور أعداد قليلة من الجيش أمام القوات المغولية في الأراضي السهلية ؛ أمّا قوة الجيش الرئيسية ؛ فقد بقيت إلى الخلف وراء التلال ، والمساطر في مرج ابن عامر ، وبصمود الجيش المملوكي ، وقتاله الذي وضع كتبغا في حيرة ، وبتشكيلة القتال الجديدة ، وبنصب الكمائن ، وبث الدوريات أمام تقدّم القوات المغولية ، وبالتطويق الكامل ، وبالصمود أمام هجمات المغوليين المتتالية بقيت المطاردة ؛ التي لم تنته إلا بقتل ، وتشريد المنهزمين ، وإبادتهم ، وبالشدة ، والتنكيل ، والقسوة ،

(١) السلوك والمعرفة نقلاً عن معركة عين جالوت ص : ٢٨٥ .

(٢) النجوم الزاهرة (٧ / ٧٩) ، و : معركة عين جالوت ص : ٢٨٥ .

(٣) جامع التواريخ (٢ / ٣١٦) ، و : معركة عين جالوت ص : ٢٨٦ .

والحزم ، والبطش الذي لم يكن يتوقعه المغول أبداً ، هذه المفاجأة مكنت الجيش المملوكي من تحقيق النصر ^(١) .

هـ - وضوح الهدف :

كان قطز القائد الأعلى للجيش واضح الهدف ؛ إذ أعلن القضاء على الجيش المغولي ، وتدميره ، والانتصار عليه منذ أن أعلن الحرب ، وقتل الرسل ^(٢) . هذا هو الهدف النهائي الذي سبقه أهداف مرحلية كالتخطيط لهذا القتال ، واستخدام الرجال ، والأسلحة التي تستطيع أن تقضي على العدو ، وجمع الأموال ^(٣) والاتفاق مع الصليبيين في عكا على التزام جانب الحياد ^(٤) .

و - المناورة بالقوى والوسائط :

وزَّع قائد الجيش المملوكي القوي ، والوسائط قبل بدء القتال ، وأثناءه ظهر ضعف الميسرة ، فنقل القوى ، والوسائط إليها ، وقوّاه ، وهنا ظهرت عبقرية هذا القائد عندما نقل بعض المجموعات القتالية ، وسدَّ الثغرة التي أحدثها الجيش المغولي ، كما استطاع أن يقود الاحتياطي الموضوع تحت تصرفه ، ويناور به

(١) معركة عين جالوت ص : ٢٨٦ .

(٢) معركة عين جالوت ص : ٢٨٧ .

(٣) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (٢ / ٢٩٠ - ٢٩١) .

(٤) معركة عين جالوت ص : ٢٨٧ .

ليصل إلى قبالة هذا الخرق ، فيتصدى للقوات المغولية ، فيوقفها ^(١) .

كما قام بدور مهم عند نقل بعض القطعات من المجنبات لتقوم مع النسق الثاني بالهجوم المعاكس ، وفعلاً كانت السرعة مذهلة في المناورة عندما تحرك هؤلاء الجنود ، وقاموا جميعاً بهجوم مضاد ، وقضى على الوحدات والقطعات المغولية التي تسربت خارقة دفاع الجيش المملوكي ، وقد ظهرت هذه البراعة أيضاً عندما تلقى قائد الجيش المملوكي معلومات عن قوة العدو ، وضعفه ، وأماكن تركز قوته ، فناور بقواته ، وأعاد تشكيلها بما يتلاءم مع هذه المعلومات الجديدة ^(٢) .

ز - السرعة في الأعمال القتالية :

تجاوب القائد الأعلى للجيش المملوكي بمجرد سماعه التهديد المغولي ، وأعلن التعبئة ، وعقد مجلس الحرب ، واتخذ إجراءات تحضيرية سريعة ، فتحركت القوات مستجيبة لهذا النداء الجهادي لملاقاة العدو ، وسبقه إلى أرض المعركة المناسبة قبل أن يتحرك الجيش المغولي ، فيهاجم الديار المصرية ، ويغزو المماليك في عقر دارهم ، ومن الأهمية بمكان أن نذكر دور قائد

(١) النجوم الزاهرة (٧ / ٧٩) ، و : معركة عين جالوت ص : ٢٨٨ .

(٢) معركة عين جالوت ص : ٢٨٨ .

الطليعة ، وسرعته ، والتفويت على قائد « الجيش المغولي بيدرا » كل مبادرة ، مما أتاح لبيرس أن يقضي على حامية كبيرة متقدمة قرب غزة من جراء السرعة التي قام بها رئيس أركان الجيش المملوكي ^(١) .

ح - المخابرات العسكرية :

بثَّ قطز العيون ، واعتمد على الأهالي الذين كانوا يتجاوبون مع طلبات الجيش على حقدٍ من المغول ، وتصرفاتهم ، ولهذا فإن المعلومات كانت تصل تباعاً إلى هيئة أركان الجيش المملوكي ، في حين : أن الجيش المغولي لم يعتمد كثيراً على الاستطلاع ، بل اعتمد على قوته ، وشدته في الحروب ، ولم يأبه لما يجري حوله ، ولم يقيم بإجراءات كشف العملاء ، والجواسيس الذين كانوا يدخلون معسكراته ، ويأخذون منها الأخبار ، ويوصلونها إلى المماليك ^(٢) ، وبالإضافة إلى ذلك فإن ببيرس عندما اصطدم بحامية غزة المغولية ؛ استطاع أن يتلقى أخباراً صحيحة عن قوة الجيش المغولي ، وتحركاته ، وأسلحته ، وقادته ^(٣) .

(١) المصدر نفسه ص : ٢٨٨ .

(٢) معركة عين جالوت ص : ٢٨٩ ، و : المغول للعربي ص : ٢٥٩ .

(٣) تاريخ ابن الوردي (٢ / ٢٩٣) ، و : معركة عين جالوت ص : ٢٩٠ .

وكذلك فإن قادة الجيش المملوكي أرسلوا حراسات متقدمة عبارة عن مخافر تصنت ، وإنذار ، من مهامها نقل المعلومات عن الأنساق ، وعن تحركات الجيش المغولي^(١) . وكان من مصادر الاستخبارات المملوكية عمال البريد الذين كانوا يكلفون بمهام مخابراتية بالإضافة إلى نقل البريد الحربي . إنَّ هذا الجهاز كان يتحرَّى أحوال العدو ، وإمكاناته ، ومعرفة البؤر والجهات الخطرة من الداخل ، والتحرِّي عن الأعمال الهدامة ، أو الأشخاص الذين يقومون بدور العمالة ، والتجسس على القوات الصديقة ، وكان يطلق على رئيس هذا الجهاز « صاحب الخبر والتحري » الذي كان له خبرة ، واختصاص^(٢) .

إن للاستخبارات دوراً كبيراً في الحروب الماضية ، والحاضرة في إحراز النصر ، ولقد كانت المعلومات التي تلقاها قادة الجيش المملوكي ، وبنوا قرارهم عليها معلومات صحيحة ، فكان القرار سليماً ، والنصر محققاً^(٣) .

٧ - بُعدُ نظر سيف الدين قطز وسياسته الحكيمة :

شعر قطز قبل أن يتسلم السلطنة بالخطر على دولة المماليك ،

(١) ذيل مرآة الزمان (١ / ٣٦٦) ، و : معركة عين جالوت ص : ٢٩٠ .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص : ٣٨ .

(٣) معركة عين جالوت ص : ٢٩١ .

وبخاصة من قبل المغول الذين دخلوا البلاد ، وأكثروا فيها القتل ، والعذاب ، ولابدَّ له إزاء هذا الخطر أن يتخذ عدة إجراءات سياسية تضمن له النصر على أعدائه الذين لم يلبثوا إلا أياماً معدودات ، أو شهوراً حتى يتوجه الجيش المغولي إلى أراضي الشام ، ومصر ، وبدا التفكك الداخلي واضحاً عند استلام المماليك الأتراك ؛ إذ حكمت امرأة ، ولم يوافق الخليفة في بغداد على سلطنتها ، وتزوَّجت فيما بعد من عز الدين أيبك لتحصل على الاعتراف الخلفي ، واحتدم الصراع بينها ، وبين زوجها أدَّى إلى قتلها ، واستلم الحكم عليُّ بن أيبك ، وهو غير قادر على إدارة الحكم لصغر سنه .

ولمَّا كان قطز هو نائب السلطان ، والوصي على الصبي ، وهو يعلم : أنه قادم على معركة فاصلة ؛ أراد لكي تتاح الحرية السياسية ، والتصرف بالأمور العسكرية ، والسياسية أن يتخلص من السلطان الصغير ، فاستلم الحكم ، وهذا إجراء سياسيٍّ داخليٍّ اتخذهُ هذا السلطان بعد أن استلم البلاد ، وهو مهمٌّ بالنسبة للمعركة القادمة ، فقد هرب بعض أمراء المماليك البحرية إلى الملك المغيـث صاحب الكرك لمَّا رأوا : أنهم لا يستطيعون أن يؤثروا على المسيرة التي انتهجها قطز لإصلاح البلاد ، وتحضيرها ، هربوا لكي يجدوا الحليف ضدَّ هذا القائد ، وحاولوا القتال ، وزحفوا نحو مصر في سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ، لكن قطز تصدَّى لهذه المؤامرة ، وتغلَّب على الأمراء ، وأوقع

فيهم القتل ، وردّهم على أعقابهم^(١) .

ولم يمكّنهم أبداً من العبث بأمن الدولة ، وقدرتها ، وتصديّها للعدو المرتقب المغولي ، وظل صامداً يتابع توجيه السياسة وإصلاح البلاد وتخليصها من الفتن ، والاضطرابات ، وتوحيد جبهتها الداخلية ؛ حتى إذا اقتربت معركة عين جالوت ، وازداد الخطر ؛ رأى : أنه من المناسب إعادة الصف بينه وبين الأمراء الهاربين الذين حاربوه ؛ لتجتمع الكلمة ، وليستفيد من خبرتهم في الحروب ، وفي قيادة الجيوش^(٢) . وهكذا كان الإجماع الداخلي على التصدي للعدو المغولي ، وتوجّه هذا الإجماع بقرار مجلس الحرب ، وبحضور جميع الساسة في البلاد ، وتحققت الوحدة الداخلية^(٣) .

وبعد ذلك اهتم بالوضع السياسي الخارجي ، وعمل على تحييد الصليبيين ، وعقد معاهدة صلح معهم ، واستفاد من المرور بالأراضي التي يحتلونها ، ولم يقاتل على جبهتين ، وقابل المغول في عين جالوت ، وانتصر عليهم ، واستمرت الأعمال السياسية ، والإدارية بعد المعركة ، فقد أرسل قطز رسلاً إلى بعض الدول

(١) النجوم الزاهرة (٧ / ٤٥ ، ٤٦) ، و : معركة عين جالوت ص : ٣٣٢ .

(٢) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ص : ٢٦٤ .

(٣) معركة عين جالوت ص : ٣٣٢ .

يخبرهم فيها عن انتصاره ، كما أعلن ذلك على الشعب في مصر ، والشام ، وبذلك ثَبَّت دعائم الأمن ، والاستقرار السياسي ، كما نَظَّم البلاد من الناحية الإدارية ، وعَيَّن النواب ، وبسط نفوذه على كلِّ البلاد التي كان يحتلها المغول في الشام ^(١) .

وهذا دليل على بعد نظره ، وحنكته السياسية .

٨ - توفر صفات الطائفة المنصورة :

لم يظهر سيف الدين قطز من فراغ ، وإنما سبقته جهودٌ علمية ، وتربوية على أصول منهج أهل السنة ، والجماعة ، وأصبح ذلك الجيل الذي أكرمه الله بالنصر في معركتي عين جالوت تنطبق عليه كثيراً صفات الطائفة المنصورة ، والتي من أهمها :

أ - أنها على الحق :

وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق ، واتباعه ما ليس لسائر المسلمين ، وهي إنما استحقت الذكر ؛ لقيامها بالنصح ، وتمسكها بالحق حين أعرض عنه الأكثرون . ومن الجوانب البارزة في الحق الذي استمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلي :

- الاستقامة في الاعتقاد ، وملازمة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه مجانبية البدع ، وأهلها ، فهم أصحاب السنة .

(١) تاريخ مصر ، أسكندر عمون ص : ١٩٦ ، معركة عين جالوت ص : ٣٣٣ .

- الاستقامة في الهدي ، والسلوك الظاهر ، والباطن ، والسلامة من أسباب الفسق ، والريبة ، والشهوة المحرمة .

- الاستقامة على الجهاد بالنفس ، والمال ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإقامة الحق على العاملين .

ب - أنها قائمة بأمر الله :

وهذه الخصيصة بارزة جداً في الوصف النبوي لهذه الطائفة ، فهم أمة قائمة بأمر الله ، وقد قامت دولة سيف الدين قطز بأمر الله ، من الإعداد ، والتخطيط ، والدفاع عن الإسلام ، والمسلمين .

ج - أنها تقوم بواجب الجهاد في سبيل الله :

والطائفة المنصورة جاءت الأحاديث النبوية في وصفهم بأنه « يقاتلون على الحق » ^(١) ، أو يقاتلون على أمر الله ^(٢) ، وكان سيف الدين قطز ، وجيشه قد قاموا بالجهاد الشرعي في سبيل الله ، وقتل أعداء الله من الكفار ، وغيرهم ^(٣) ، وتحقق نصر الله لهم في معركة عين جالوت .

(١) سنن أبي داود ، الجهاد رقم ٢٤٨٤ .

(٢) مسلم رقم ١٧٦ ، الضربات التي وجهت للانقضاء على الأمة ، الجندي ص : ١١٣ .

(٣) تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين ص : ٤٧٣ .

د - أنَّها صابرة :

فقد خصَّ الله الطائفة المنصورة بالصبر ، وقد رأيت كيف تسليح سيف الدين قطز وجنوده بالصبر الجميل في جهادهم ، ولم تستطع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذي يسعون إليه ، ولهذا وصف الرسول ﷺ هؤلاء القوم بأنهم : « لا يضرُّهم من كذبهم ، ولا من خالفهم ، ولا يبالون بمن خالفهم » ^(١) . وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى هؤلاء العاملين الذين عرفوا أهدافهم ، وسلوكوا طريقهم ، فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين ، وعوائق المخزليين ، ولا تكذيب الأعداء الحاقدين ، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر ، وثبات ، ويقين ^(٢) ، وهذه الصفات التي جاءت في الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة ، قد انطبقت على جيش سيف الدين قطز ، والمماليك ؛ الذين حققوا النصر في معركة عين جالوت .

إن الانتساب إلى الطائفة المنصورة ليس شعاراً ، ولا هو دعوة ، وإنما هو تحقيق ، وعمل ، وتحقيق للصفات الشرعية لهم ، وعمل بالواجبات الشرعية عليهم ، فمن حقق الصفات ، وقام بالواجبات ؛ كان من الطائفة المنصورة ؛ ولو كان

(١) رواه سعيد بن منصور ، ك الجهاد رقم ٢٣٧٦ ، وله طرق تقويه .

(٢) صفة الغرباء ، سلمان العودة ص : ٢٠٥ .

وحده ^(١) . قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٌ ﴿٧﴾ [الصف : ٢ - ٤] .

٩ - سنة التدرُّج ووراثه المشروع المقاوم :

قدَّم أمراء السلاجقة الكثير من أجل دحر الصليبيين ، وقد حقَّق عماد الدين زنكي إنجازاً عظيماً بوضعه لمشروع رائد - ربما رأى الكثيرون في ذلك الوقت - استحالة تحقيقه على بساطته ، وهو مشروعه الوحدوي التحرري ، والذي حقق ابنه نور الدين جزأه الأول ، وحقَّق صلاح الدين قسماً مهماً من جزئه الثاني ، ولذلك نرى انتصار صلاح الدين في حطين تنويجاً لمشروع عماد الدين الوحدوي التحرري ، فلولا الله ، ثم متابعة نور الدين لخطا والده في توحيد الشام ، ثم توحيد مصر مع الشام ؛ لما تحقَّق هذا النصر ^(٢) ؛ الذي تم بفضل الله ، ثم جهود التوحيد التي قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة ؛ التي تدعو للوحدة الإسلامية ؛ التي لا تفرق بين جنس ، أو لون ، أو طائفة ، وإنما جمعتهم الأخوة في الله ، والتي لم تفرق بين الأتراك ، والأكراد ، والعرب

(١) الطائفة المنصورة ، سلسلة تصدر عن مجلة البيان ص : ٦٥ .

(٢) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ / ٣٧٥) .

والفرس ، ولا غيرها من الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام .
قال الشاعر :

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً الشام فيه ووادي النيل سيّان
وأينما ذكر اسم الله في بلدٍ عدت أرجاءه من لبّ أوطاني

ولقد تفاعلت العوامل التي ساعدت على الوحدة في عهد
صلاح الدين مع الزمن ، والوقت ، وخضعت لسنة التدرّج ،
وأعطت ثمارها في معركة حطين ، وتوجّت بفتح بيت المقدس ،
وأصبح المؤمنون بتوآدهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم مثل الجسد ،
إذا اشتكى منه عضو ؛ تداعى له سائر الجسد بالسهر ،
والحمى^(١) . وعلى الرّغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الغزاة من
أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامي ، فقد نجحوا في تقطيع أراضي
المسلمين ، ولكنهم لم ينجحوا في تمزيق قلوبهم ، وظلّ المسلم
محبّاً لأخيه المسلم ، ولسان حال كلّ منهم^(٢) يقول :

أبا سليمان قلبي لا يطاوعني على تجاهل أحابي وإخواني
إذا اشتكى مسلمٌ في الهند أرّقني وإن بكى مسلم في الصين أبكاني
ومصر ريحانتي والشام نرجستي وفي الجزيرة تاريخي وعنواني
أرى بخارىّ بلادي وهي نائية وأستريح إلى ذكرى خراسان

(١) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم ص : ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه .

فأيّما ذكر اسم الله في بلدٍ عدت ذاك الحمى من صلب أوطاني
شريعة الله لمت شملنا و بنت لنا معالم إحسانٍ وإيمان^(١)

إن سلاطين المماليك ساروا على نهج عماد الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين ، وأخلصوا النية لله وحده ، وجددوا دعوة الجهاد معاً^(٢) ، فهذا سيف الدين قطز بأقواله ، وأفعاله يبرهن على ذلك ، فبعد معركة عين جالوت وقف خطيباً ، وقال : لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله ، فنصر قليلكم على كثير عدوكم ، إيّاكم والزهو بما صنعتُم ! ولكن اشكروا الله ، واخضعوا لقوله وجلاله ، إنه ذو القوة المتين ، واعلموا : إنكم لم تنتهوا من الجهاد ، وإنما بدأتموه ، وإن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حقّ الإسلام ، بطرد أعدائه من سائر بلاده ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله^(٣) !

والواقع : أننا إذا تتبعنا أعمال سلاطين دولة المماليك في هذا المجال ؛ ندرك : أن الدافع الأساسي لهم كان الجهاد في سبيل الله للذود عن ممتلكات المسلمين ، ولما كان ذلك لا يتأتى إلا بتوحيد كلمة المسلمين ؛ فإنهم قد سعوا جاهدين لتحقيق ذلك ، فبدؤوا جهودهم بتجميع الفلول الإسلامية التي فرّت من

(١) الطائفة المنصورة ، سلسلة تصدر عن مجلة البيان ص : ٧ .

(٢) جهاد المماليك ص : ٢٨٩ .

(٣) من أجل فلسطين ص : ١٠٢ .

وجه العدوان المغولي ، وحشدها داخل الأراضي المصرية ، وخرج السلطان قطز على رأس تلك الجموع بعد أن غرس فكرة الجهاد في نفوسها ، وأشعل الحماسة في صفوفها إلى بلاد الشام ، وتمكّن من كسر المغول في عين جالوت ؛ التي تعتبر بحق بداية النهاية للوجود المغولي في بلاد الشام ، ترتب عليها إعادة الوحدة مرة أخرى بين مصر ، والشام ، ليمهد الطريق لمن أتى بعده من السلاطين لمواصلة الجهاد ضدّ المغول والصليبيين ، ذلك الجهاد الذي كان يُعدّ في نظرهم فرض عين على كل مسلم ، لا يقلّ عن كونه ركناً من أركان الإسلام^(١) ، وخلاصة القول : إن سلاطين المماليك استفادوا من الجهود التراكمية التي سبقتهم ، وبنوا عليها ، وجدّدوا الدعوة للجهاد ، وتحرير أراضي المسلمين من المشاريع الغازية : المغولية ، والصليبية .

١٠ - الاستعانة بالعلماء واستشارتهم :

كانت من القيم الراسخة في دولة المماليك قيمة العلوم الشرعية ، وعلماء الدين ، فطول أيام الأيوبيين في مصر ، ومنذ أن رسخ صلاح الدين المذهب السني في مصر بعد قضائه على الدولة الفاطمية وقيمة العلماء مرتفعة في أعين الناس ، والحكام على السواء ؛ حتى إنه لما صعدت شجرة الدر إلى كرسي الحكم ، وقام العلماء بإنكار ذلك ، وكتابة الرسائل المعادية للملكة وتحفيز

(١) جهاد المماليك ص : ٢٩٠ .

الناس على رفض هذا الأمر ؛ ما استطاعت شجرة الدرّ ، ولا أحد من أعوانها أن يوقفوا هذه الحركة الجريئة من العلماء ^(١) ، وكان من طبيعة العلماء في ذلك العصر النزول في ساحات القتال ، وتحريض الناس على الجهاد ، كما حدث في الحملة الصليبية السابعة عام ٦٤٨ هـ .

وكان من أشهر هؤلاء العلماء العز بن عبد السلام ، وكان مقرباً ، ومحبباً لسيف الدين قطز ، وأخذ بترشيده ، وفتاويه ونفذ ذلك ، وخصوصاً تلك الفتوى الشهيرة المتعلقة بوجود المال اللازم للإعداد ما يلزم للحرب ، فعقد سيف الدين قطز مجلساً للمشورة في قلعة الجبل ، وحضر قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وكان السؤال حول أموال العامة ، ونفقتها في العساكر ، فقال ابن عبد السلام : إذا لم يبق في بيت المال شيء ، وأنفقتم الحوائص الذهبية ، ونحوها من الزينة ، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب ، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها ؛ ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء ؛ إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم ، وأنفسهم ^(٢) . وانقضى الاجتماع .

ويفهم مما تقدم : أن المسلمين لم يكونوا يوافقون على فعل

(١) قصة التتار ص : ٣٦٠ .

(٢) الجهاد الإسلامي ضدّ الصليبيين والمغول ، د . فايد ص : ١٢٠ .

شيء ، أو دفع ضريبة إلا إذا أقرّها علماء الإسلام ، وأصدروا الفتاوى بجوازها ، وهذا يعني الخضوع للشرعة ، ومن جهة أخرى فإن السلطان ملتزم بما صدر عن إفتاء العلماء ، بل راح الأمراء ، ورجال الدولة يقدّمون ما يملكون ، وأحضروا ما في بيوتهم من حلي نسائهم ، وأموالهم ، وأقسموا : أنّهم لم يتركوا شيئاً ، وذلك طوعية دون إرغام ، أو تهديد ، وإنما استجابة لرأي الشرعة .

ولما كانت هذه الأموال لا تقوم بالمطالب استعان السلطان قطز بالرعية بعد أن تساوا جميعاً ، وفرض إجراءات من أجل توفير المال اللازم للحرب ، ومن ثمّ كانت الأموال التي أنفقها المسلمون في حرب التتار في موقعة عين جالوت أموالاً طيبة ساهمت في تحقيق الانتصار ^(١) .

وكان السلطان سيف الدين قطز يحترم ويقدر وينفذ فتاوى العلماء وكان يستعين بهم ، ويطلب مشورتهم في النوازل ، وكان العلماء ، والفقهاء يقومون بدورهم الكبير في توعية الشعب بالأخطار المحيطة به ، ويحرضون الناس على طلب الشهادة ، والاستجابة لنداء الجهاد .

فقد حدث تكامل بين أمراء المماليك ، والعلماء في مقاومة

(١) المصدر نفسه ص : ١٢١ .

التتار ، فكان ذلك الانسجام ، والتعاون المستمر من أسباب النصر في عين جالوت ، فبين العلماء أحكام الله تعالى في الجهاد ، وكيف يُعامل مع أموال العامة ؛ حتى تصبح حلالاً ، لا ظلم ، ولا عدوان فيها ، مع الاستعداد النفسي لدى السلطان قطز في تنفيذ حكم الله ، وأثر ذلك على شعور الناس بقيمة العدل التي ساهمت في جعل روح جديدة تسري في كيان الشعب تحت قيادة قطز .

١١ - الزهد في الدنيا :

لما تحدثنا عن أسباب سقوط الدولة الخوارزمية ؛ ذكرنا منها : حب الدنيا ، وكراهية الموت ، وكيف كان حب الدنيا مهيمناً على القيادة ، والشعب في ذلك الوقت ، وقد دبّت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين ، وتعلقوا بدنياهم الذليلة تعلقاً ، ورضوا بأن يبقوا في قراهم ، ومدنهم ينتظرون الموت على أيدي الفرق المغولية . وقد رأينا ، محمد بن خوارزم ، وجلال الدين بن خوارزم ، والناصر لدين الله ، والخليفة العباسي المستعصم بالله ، وبدر الدين لؤلؤ ، والناصر الأيوبي كيف كانت نهايتهم .

أما قطز ، وشعبه ؛ فقد فطنوا لهذا المرض ، وزهدوا في الدنيا ، وكان سيف الدين قطز قدوة ، ومثلاً حياً بين الناس ، فقد باع ما يمتلكه ؛ ليجهز جيوش المسلمين المتجهة لحرب التتار ، ولم يطمع في كرسي الحكم ، بل عرض القيادة على الناصر يوسف الأيوبي على قلة شأنه إذا قبل بالوحدة بين مصر والشام ، ولم يطمع

في استقرار عائلي ، أو اجتماعي ، أو أمن ، أو أمان ، فكّرَ س حياته للجهاد ، والقتال على صعوبته ، وخطورته ، ولم يطمع في أن يمتدّ به العمر ، فخرج على رأس الجيوش بنفسه ؛ ليحارب التتار في حرب مهلكة ، ولا شك : أنه يعلم : أنه سيكون أول المطلوبين للقتل ، ولا شك : أنه يدرك كذلك : أنه إذا لم يخرج بنفسه ، وأخرج من ينوب عنه ؛ فإن أحداً لن يلومه ؛ لأنه الملك الذي يجب أن يحافظ على نفسه لأجل مصلحة الأمة ، لكنه اشتاق بصدق إلى الجهاد ، وتمنى الموت بين صليل السيوف ، وأسنة الرماح ، فزهّد في هذه الدنيا الفانية ، وكانت حياته تطبيقاً عملياً كاملاً لكلماته ^(١) ، فكانت تلك الكلمات قد سرت روحها في أركان حربه ، وجنوده ، وشعبه ، وتحركوا لأحدى الحسينين ، فكان النصر الكبير في معركة عين جالوت .

١٢ - صراعات داخل بيت الحكم المغولي :

وصلت الأخبار إلى هولاءكو بوفاة أخيه الأكبر منكو خان ، وتنازع أخواه الآخرا : « قويلاي » « وأرقيق بوقا » على ولاية عرش المغول ، فوجد نفسه مضطراً إلى العودة إلى مقرّه الرئيسي مدينة مراغة ليكون قريباً من مجرى الحوادث في منغوليا ، ليسهل عليه التحرك إلى منغوليا إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، وبالرغم من

(١) قصة التتار ص : ٣٥٩ .

أن هولاكو هو الابن الرابع لتولوي خان من حقه أن ينافس أخويه في تولي ذلك المنصب ، غير أنه لم يُؤَلِّ ذلك المنصب اهتماماً ، ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى ما تهيأ له من النجاح ، والظفر في إيران ، والعراق ، والشام^(١) ، فضلاً عن خوفه من ازدياد هوة الخلاف ، وتعقيد الأمور ، ولكنه في الوقت نفسه كان يرى أن أخاه قوبيلاي أجدر بتولي العرش من أخيه الآخر أرقيق بوقا ، وحرص على أن يحضر الانتخابات ليزكي ترشيح أخاه قوبيلاي خاناً أعظم للمغول .

ومن ناحية أخرى لانسي ما كان من ازدياد العلاقات سوءاً بين هولاكو وأبناء عمومته خانات القبيلة الذهبية « القبجاق »^(٢) ، الذين باتوا يهددون ممتلكاته - وهذا صرفه عن مدِّ الامدادات اللازمة للمغول في بلاد الشام ، وكذلك لم يستطع قيادة جيش كبير للانتقام من هزيمة معركة عن جالوت وردِّ الاعتبار ، والهيبة للمغول ؛ إذ إن بركة خان زعيم القبيلة الذهبية كان يميل إلى المسلمين في الوقت الذي كان هولاكو ، وحاشيته يعملون

(١) المغول في التاريخ للصيداص : ١٩٨ .

(٢) القبجاق : فرع من الترك ، مساكنهم الأصلية حوض النهر أرتش ، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر أرتل « الفلجا » في جنوب روسيا الحالية ، فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق ، كما عرفت به أيضاً دولة المغول المسماة القبيلة الذهبية .

جاهدين على إرضاء المسيحيين ، واستمالتهم إليهم . وتطور الأمر ببركة إلى أن اعتنق الدين الإسلامي ، وتعزّض هولاءكو للتقريع ، والتأنيب من قبله ، وصار بركة يتهدده بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح راح ضحيتها ألوف من المسلمين ، وما أنزل بهم من دمار ، وخراب ، فضلاً عمّا تعرض له الخليفة العباسي من الهوان ، وتجزّئه على قتله ، لذلك كثيراً ما وقع الاحتكاك بينهما عند جبال القوقاز التي تفصل بين نفوذهما .

بل ذهب بركة خان إلى ما هو أبعد من ذلك ، حيث قام باضهاد القبائل المسيحية التي كانت تسكن تلك المناطق ، وذلك رداً على ما سلكه هولاءكو من سياسية تعسفية تجاه المسلمين بقصد إذلالهم . ويبدو : أن هولاءكو أراد أن يضع حداً لتصرفات التهكم ، والانتقام التي مارسها بركة ضده ، فحاول أن يفرض سلطانه على الجانب الشمالي لجبال القوقاز ، ولكن بركة أعدّ لذلك الأمر عدّته ، واستطاعت جيوشه أن تُنزل بجيوش هولاءكو هزيمة ساحقة ^(١) .

وهناك أسباب أخرى ذكرت في دفع هولاءكو للعودة إلى عاصمته بالمشرق ، فإن الذي يهْمُننا قوله هو : إن ذلك الحدث المفاجيء كان تحولاً خطيراً ، غيّر مجرى سياسة المغول

(١) جهاد المماليك ص : ١١٣ .

التوسعية ؛ التي جعلت هولاء لم يعد إلى فارس بمفرده ، بل عاد ؛ ومعه جموع من عساكره ^(١) ، وهذا ممّا ساهم في تحقيق النصر في معركة عين جالوت .

١٣ - سنة الله في أخذ الظالمين والطغاة :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] ، إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه ؛ لم يفقهه . لقد عاث التار في الأرض فساداً ، وتحقق لهم الفوز في غالب معاركهم ، واجتاحوا الشرق بأكمله ، وتصوّروا بعد أن سقطت الشام أمام جحافلهم : أنه ليس أمامهم إلا مصر ، وبعدها يكونون قد ملكوا أزمّة الأمور ^(٢) ، وقد انتابهم غرور عظيم مع ظلم ، وطغيان ، وانظر إلى ما جاء في رسالتهم لقطز : ... فنحن لا نرحم من بكى ، ولا نرق لمن اشتكى ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، فأئى أرض تأويكم ؟ ! وأئى طريق تنجيكم ؟ ! وأئى بلاد تحميكم ؟ ! فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون

(١) المغول للعيني ص : ٢٥٧ ، و : جهاد المماليك ص : ١١٤ .

(٢) الطريق إلى بيت المقدس ص : ١٤١ .

لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ^(١) .

وهذا يعني الغرور الذي لاحد له ، وحن وقت الخلاص منهم بقدرة السميع العليم ، وأراد أن تكون هزيمتهم ، بل مصرعهم وإنهاء ملكهم في الشام على يد السلطان سيف الدين قطز ^(٢) .

إن الأسباب في انتصار المسلمين في عين جالوت متشابهة ، ومتداخلة ، ويؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً ، فالنجاح السياسي يؤثر في الجانب الاقتصادي ، ويتأثر به ، وهكذا ، وما ذكرنا من الأسباب لا يمكننا أن نقول : هي هذه فقط ، لا مزيد عليها ، فقد يأتي غيرنا ، ويزيد عليها ، ومطلوب منا التفكير ، والتأمل ، والتدبر ؛ لنستخرج الدروس ، والعبر ، والسنن ، والقوانين في قيام الدول ، وسقوطها ، وانتصار الشعوب ، وهزيمتها ، ومعرفة صفات قيادة التمكين ، وفقهاء النهوض ، وعوامل صناعة التاريخ ؛ لنستخدمها لنصرة الله عز وجل ، ودينه القويم . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

(١) السلوك للمقريزي (١ / ٥١٤) .

(٢) الطريق إلى بيت المقدس ص : ١٤١ .

سابعاً : نتائج وآثار معركة عين جالوت :

ترتب على انتصار المسلمين على المغول في معركة عين جالوت نتائج ، وآثار كثيرة منها :

١ - تحرير بلاد الشام من المغول :

كان لوصول خبر انتصار الإسلام في عين جالوت أثر على أهل دمشق ، وهرب نواب التتار ، وأصبحت دمشق بدون حكومة لضبط الأمن ، وما قام به المسلمون في دمشق من قتل الخونة ، والعملاء ، ومن كاد للإسلام وللمسلمين أثناء وجود حكم التتار للمدينة ؛ لم يكن عملاً متطرفاً ، أو تعصباً ضدّ النصاري ، أو اليهود ، بدليل : أن العقوبات الشعبية لحقت بكل العناصر حتى المسلمين ، وكما قال المقرئزي : ثار أهل دمشق بجماعة من المسلمين كانوا من أعوان التتار ، وقتلوهم^(١) .

وهذا دليل على أن ثورة المسلمين كانت ضدّ الخونة ، ومن تعاون مع الأعداء ، وهذا الأمر من حق المسلمين تأديب من بغى على أهل الإسلام ، وبالفعل تمّ تطهير دمشق من المغول ، وأذئابهم ، والخونة معهم ، وواصل الأمير بيبرس البندقداري مطاردة فلول التتار بعد عين جالوت ، واستمرّ المسلمون في تطهير

(١) الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د . فايد
ص : ١٢٢ ، ١٢٣ .

بلاد الشام ، وفلسطين ، وشرق تركيا من المغول ، ولم يُسمع عن التتار في هذه المنطقة لعشرات السنين بعد ذلك ، واختفى القهر ، والظلم ، والبطش ، والتشريد ، وأمن الناس على أرواحهم ، وأموالهم ، وأرضهم ، وأعراضهم ^(١) .

٢ - تحقُّق الوحدة بين الشام ومصر :

ومن أهم نتائج هذه المعركة إعادة الوحدة بين شطري الجبهة الإسلامية : مصر ، وبلاد الشام ، وهي الوحدة التي تعرّضت لمحنة التمزق ، والانقسام منذ مقتل الملك المعظم تورانشاه في المحرم سنة ٦٤٨ هـ . والمعلومات التاريخية تفيد : أن المظفر قطز كان يدرك : أن انتصار المسلمين في عين جالوت لن يؤتي ثماره إلا بتحرير الشام من سيطرة المغول ، ومن ثم فإنه جعل هذه الغاية شغله الشاغل ، فبمجرد أن تحقّق له النصر في عين جالوت بعث برسالة عاجلة إلى أهل دمشق يخبرهم ، ويطمئنهم ، وبذل جهده في توحيد الشام ومصر ^(٢) ، وعادت الوحدة من جديد ، وليس ثمة غير الوحدة من طريق في ماضينا ، وفي حاضرنا . إنه السير على منهج قادة الجهاد ، كعماد الدين ، ونور الدين ، وجاء

(١) قصة التتار ص : ٣٤٥ ، و : التتار والمغول د . محمود السيد ص : ١٣٢ .

(٢) الجبهة الإسلامية د . حامد غنيم ص : ٤٢٤ ، و : دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك د . نعمان جبران ص : ٢٧٨ .

صلاح الدين ، وبنى على جهدهم انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين ، وحرّر القدس .

وها هي معركة عين جالوت تشد الأصرة مرة أخرى وتمنح المسلمين الأرضية التي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم ، ودفعهم إلى إحدى اثنتين : الإذعان لكلمة الإسلام ، أو العودة من حيث جاؤوا . . . لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية ، وتفتت الدويلات الإسلامية ، كالزنكية ، والأيوبية ، والخوارزمية ، والسلاجقة ، فأتاحت للقيادة المملوكية الشابة أن تقوم بتوحيد الشام ، ومصر ^(١) .

٣ - خمود القوى المناوئة للمماليك :

قضى المماليك على ما تبقى من الأيوبيين الذين كانت لهم بعض الزعامات داخل المملكة ، فقد أرسل السلطان بيبرس في ربيع الآخر سنة ٦٥٩ هـ / شباط ١٢٦٠ م جيشاً إلى الشوبك ، فاحتلها ^(٢) ، وبعد عدة أشهر أرسل جيشاً آخر إلى الكرك لإظهار قوّته ^(٣) ، وفي شهر ربيع الآخر سنة ٦٦١ هـ / شباط ١٢٦٢ م

(١) دراسات تاريخية ص : ٩١ .

(٢) الروض الزاهر ص : ٤٨ ، و : معركة عين جالوت ص : ٣٩٤ .

(٣) معركة عين جالوت ص : ٣٩٤ .

توجه الملك الظاهر إلى دمشق ، وأرسل في طلب المغيث ملك الكرك في حيلة استطاع على أثرها أن يقبض عليه ، ويسجنه في سجن القاهرة ، ثم قتله ^(١) . وسار بنفسه إلى الكرك مع جيش يحتوي على جميع صنوف الأسلحة بما فيها الصناعات ، والوحدات الفنية ، والهندسية ، وضرب الحصار على المدينة ، فاستسلمت ، وأعادها إلى حكم المماليك ^(٢) . وقد حدثت ثورات في الكرك ضد الحكم المملوكي استطاع الظاهر القضاء عليها .

ولم يكتف الظاهر بملاحقة الأيوبيين ، وسلاطينهم ، بل طاردهم ، وتعقب فلولهم حتى على مستوى جندي في القوات المسلحة ، وذلك بتسريح كل أمراء ، وضباط ، وجنود ، وخدم الأيوبيين ، وذلك اعتقاداً منه في توظيف الجيش ، وجعله مقتصرًا فقط على أولئك الضباط ، والجنود الموالين ، فأحال على التقاعد الجندي فخر الدين ، وتخلّص من الأمير سيف بن نجم الدين الأيوبي ^(٣) ، وضيّق على الدولة البدرية التي كانت تقع في الجزء الشرقي من سورية ، وتضمّ الموصل ، والجزيرة ، ونصيبين ، وماردين ، وكان على الموصل الملك الصالح ابن الملك الرّحيم بدر الدين لؤلؤ ، وفي نهاية المطاف قضى

(١) المصدر نفسه ص : ٣٩٤ ، و : ذيل مرآة الزمان (٢ / ٣٠٠) .

(٢) معركة عين جالوت ص : ٣٩٥ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٣٩٦ .

الملك الظاهر بيبرس على الدولة البدرية ، وضمّها إلى الدولة المملوكية .

وضغط الجيش المملوكي بشدّة على قوى الإسماعيلية الذين كانوا يسكنون في مصيف المنطقة الغربية في حمص ، وحمّاه ، وكانت هذه المنطقة تتميز بالقلاع ، والحصون ، وقبل أن يتهيأ الإسماعيليون للحرب فاجأهم بيبرس بهجوم استولى في نهايته على مصيف ، ثم توالى هجماته حتى استولى على قلاعها ، وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً^(١) .

٤ - انتصار الإسلام على الوثنيّة :

ليس من المبالغة القول : إن عين جالوت شهدت معركة حاسمة على المستويات : العسكرية ، والسياسية ، والعقيدية ، والحضارية عموماً ، لقد كان انتصار المسلمين يعني انتصار الإسلام على الوثنية ، والتحضر على الجاهلية ، والقيم على الانفلات^(٢) ، وفي معركة عين جالوت نشهد المعادلة الواضحة التي لا تمنح جوابها العادل إلا إذا تجمّع طرفاها في تكافؤ مقابل الأخذ بالأسباب ، والإيمان الواثق العميق بالله ، وبعادلة القضية التي يجاهد المسلمون من أجلها ، وبدون تحقق هذا التقابل ،

(١) معركة عين جالوت ص : ٣٩٦ .

(٢) دراسات تاريخية ص : ٨٩ .

فلن يكون نصر ، أو توفيق ، ولن يحتاج الأمر إلى مزيد شواهد ، أو نقاش ، فإن مجرى التاريخ الإسلامي الطويل يعرض علينا عشرات ، بل مئات ، وألوفاً من الشواهد على هذا الذي تعرضه علينا واقعة عين جالوت ^(١) .

وهذه شهادة المؤرخ الإنجليزي المعاصر ستيفن رنسيما في كتابه تاريخ الحروب الصليبية يقول : تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ ، ومن المحقق لو أن المغول عجلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة ؛ لتيسر تعويض الهزيمة ، غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما يتخذ في عين جالوت من قرار ، فما أحرزه المماليك من انتصار أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له ، فلو أن المغول توغلوا إلى داخل مصر ؛ لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلادي المغرب ، ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من استئصال شأفتهم ؛ فأنهم لم يعودوا يألّفون العنصر الحاكم ، ولو انتصر كيتوبوقا المسيحي ؛ لازداد عطف المغول على المسيحيين ، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ سيادة المحن الكبيرة في العصر السابق عن الإسلام ^(٢) .

(١) المصدر نفسه ص : ٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ص : ٤ ، و : عين جالوت فتحي شهاب الدين ص : ٣٤ .

لقد كانت موقعة عين جالوت أول صدمة في الشرق لجيوش المغول ، وخاناتهم الذين ظن المعاصرون : أنهم قوم لا يغلبون ^(١) .

٥ - حدث حاسم في تاريخ البشرية :

إن انتصار المسلمين في معركة عين جالوت ، وما أعقبه من طرد المغول نهائياً من بلاد الشام يعتبر بحق من الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ الشام ومصر فحسب ، ولا في تاريخ الأمم الإسلامية بمفردها ، وإنما في تاريخ العالم بأسره ؛ إذ إن ذلك الانتصار العظيم لم ينقذ العالم الإسلامي وحده ، بل أنقذ العالم الأوربي والمدنيّة الأوربية من شر ذلك الغزو ، فلو تمّ للمغول اكتساح الأراضي المصرية ، والنفوذ إلى الشمال الإفريقي ؛ لتمكنوا بسهولة من سلوك الطريق التقليدي إلى أوروبا عبر صقلية ، وجبل طارق ، لذا فإنه لا يختلف اثنان في أن هذه المعركة تفوق في أهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثة ^(٢) .

٦ - روح جديدة في الأمة :

كان لانتصار المسلمين في معركة عين جالوت من العوامل

(١) نهر التاريخ الإسلامي ص : ٤٥٦ .

(٢) جهاد المماليك ص : ٣٥٦ ، و : مصر في العصور الوسطى ، محمود

محمد ص : ٢٤٦ .

التي ساهمت على انتشار الإسلام وقتئذ ، فقد بعث هذا الانتصار روحاً جديدة في المسلمين لا سيما مسلمي فارس الذين ارتفعت روحهم المعنوية ، وأخذوا يصمدون أمام مناورات المسيحيين ، وينافسونهم في تبوء مركز الصدارة في دولة المغول في إيران ، وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامي ؛ حتى كملت متاعبهم بنجاح باهر ، أثمر اعتناق المغول في غرب آسيا الدين الإسلامي ، بعد أن ثبت لهم صلاحيته لكل زمان ومكان ، وشموله لكل نواحي الحياة من خلال معاشرتهم لأهله ، ولبعده كل البعد عن الخلافات الجوهرية التي ابتلي بها الدين المسيحي ، وذلك لكون الإسلام خاتم الأديان ، تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها ^(١) .

وسياتي الحديث عن دخول المغول في الإسلام مفصلاً بإذن الله تعالى في كتابنا القادم عن الملك الظاهر بيبرس .

٧ - انحسار المدّ المغولي :

بعد هزيمة عين جالوت حاول المغول عدّة محاولات لاستعادة مجدهم ، وردّ اعتبارهم ، وإرجاع سمعتهم الحربية التي تلطخت بالعار مع الجيش المملوكي ، فقد شتّوا عدة غارات ، وسيّروا الحملات العسكرية ؛ لكي ينالوا من المماليك ، فالحقد

(١) المصدر نفسه ص : ٣٥٧ .

يملاً قلوبهم ، والانتقام يتميّز غيظاً في نفوسهم . إنهم كانوا أقوى جيوش العالم ، والآن أصيبوا بالضعف ، والوهن ، وزالت هيبتهم ^(١) .

واستطاع المسلمون أن يتغلبوا في عين جالوت على الهزيمة النفسية التي كانوا يعانون منها ، وخرجوا من الإحباط الشديد ، وعلموا : أن الأمل في الله لا ينقطع أبداً ، وأنه مهما تعاظمت قوة الكافرين ؛ فإنها بلا شك إلى زوال ^(٢) . قال تعالى : ﴿ لَا يَغْرُنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ ^(٣) مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿ [آل عمران : ١٩٦ - ١٩٧] .

٨ - فشل التحالف بين الصليبيين والتتار :

ترتّب على انتصار المماليك في عين جالوت أن ضعف أمل الصليبيين في التعاون مع المغول ضدّ المسلمين ، وذلك بسبب ظهور قوة دولة المماليك الإسلامية التي تمكنت من إبعاد الخطر المغولي إلى حدود العراق ، بل حاول المماليك غزو العراق ، واستخلاصه من التتار ^(٣) .

٩ - إضعاف الوجود الصليبي :

كان لانتصار المماليك في معركة عين جالوت دورٌ كبير في

(١) معركة عين جالوت ص : ٣٨١ .

(٢) قصة التتار ص : ٣٤٤ .

(٣) الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د . فايد ص : ١٢٦ .

إضعاف بقايا الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام ، فالذي لا شك فيه : أن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة بعد ذلك النصر العظيم ، والذي حققه المسلمون ضد المغول في هذه المعركة ، فسارع زعمائهم - بعد أن أدركوا : أن نهايتهم آتية لا محالة - بالتقرب إلى السلطان بيبرس ، وطلب مراحمة ، فعقد معهم معاهدات أملى شروطها بنفسه ، وقام في الوقت نفسه بإبرام سلسلة من المعاهدات ، والاتفاقات الودية مع الدول الأجنبية القريبة من بقايا الصليبيين في بلاد الشام ، وتمكن من إحكام العزلة على الصليبيين ، وذلك بحرمانهم من أيّ معونة خارجية ، الأمر الذي عجّل باقتلاع جذورهم نهائياً من ساحل بلاد الشام ^(١) .

١٠ - مدينة القاهرة :

لم تقتصر عين جالوت على النواحي السياسية ، بل تعدّت إلى النواحي الحضارية ، حيث جنبت مصر والقاهرة ويلات الغزو المدمر الذي تعرضت له بغداد ، ودمشق ، وغيرهما من مدن إيران ، والعراق ، والشام من الخراب ، والدمار الذي عطل ما كانت تزخر به هذه المدن الإسلامية من الآداب ، والعلوم ، والفنون ، والمعالم الحضارية ، وبقيت القاهرة مكاناً هادئاً آمناً ، يهرع إليه العلماء ، والأدباء ، والفنانون ، حتى اكتسبت عاصمة

(١) جهاد المماليك ص : ٣٥٧ ، و : المظفر قطز ، العسلي ص : ١٢٦ .

المماليك مكانة ممتازة في هذا المجال إلى جانب مكانتها السياسية ، التي برهنت على ما اكتسبه المماليك المسلمون من هبة وقدرة في شؤون السياسة والحرب ، واتضح في علاقاتهم الخارجية والدولية الواسعة الانتشار ، وفي إصلاحاتهم ، وإداراتهم الداخلية الحازمة ^(١) .

١١ - ميلاد دولة المماليك الفتية :

في الوقت الذي كانت قوات الحملة الصليبية السابعة تنزل على شاطئ البحر المتوسط أمام دمياط ؛ كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوي بلدان المشرق الإسلامي ، وتقترب من عاصمة الخلافة العباسية الواهنة في بغداد ، وإذا كانت انتصارات المماليك في المنصورة ، وفارسكور سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م هي صرخة الميلاد للدولة المملوكية ، فإن معركة عين جالوت - التي حسرت المدَّ المغولي - كانت تأكيداً للدور التاريخي الذي ينتظر دولة سلاطين المماليك ، وهو دور القوَّة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي ^(٢) ، وتمكَّنت الدولة الجديدة - بقيادة السلطان الظاهر بيبرس - أن تغَيِّر مصير المنطقة في أكثر من اتجاه ؛ إذ طاردت فلول المغول ، وقضت على بقايا الأيوبيين ، كما أحاطت بالمستوطنات الصليبية من كل اتجاه ، وعلى الرغم من الضجة التي

(١) جهاد المماليك ص : ٣٥٧ .

(٢) ماهية الحروب الصليبية ص : ١٩٢ .

أحدثها المغول في تاريخ المنطقة إلا أن خطرهم على العالم الإسلامي لم يكن كبيراً مثل خطر الصليبيين الذين كان الصراع ضدَّهم صراع وجود ، ويتأكد هذا الفرض من خلال الحقيقة القائلة : إن المغول الذين غزو المشرق الإسلامي لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام ، وصاروا من أكثر المدافعين عنه حماسة بعد جيلين فقط من هزيمة عين جالوت .

١٢ - الدور الرمزي للخلافة العباسية :

تأكَّد الدور الرمزي ، والعاطفي للخلافة العباسية ، فقد كان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م بمثابة الحل السعيد الذي وجده السلطان الظاهر بيبرس لإضفاء الشرعية على دولته العسكرية ؛ التي قامت بدور هائل في تصفية الوجود الصليبي ، وقد أثبتت الأحداث طوال عصر سلاطين المماليك : أن الخلفاء العباسيين في القاهرة لم يكن لهم من الخلافة سوى اسمها ، كما تحدَّدت إقامة معظمهم بحيث كانت أقرب إلى الاعتقال^(١) .

١٣ - تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده وأنظمته :

إزداد حجم الجيش بعد معركة عين جالوت ، وتعدَّدت

(١) المصدر نفسه ص : ١٩٣ .

تشكيلاته القتالية ، ففي أعقاب المعركة ، وفي زمن الملك الظاهر كان هناك ثلاث جيوش : أحدهما في مصر ، وثانيهما في دمشق ، وثالثهما في حلب ، ولقد أطلق على الجيش الذي يقوده القائد الأعلى جيش الزحف ، ويبلغ عدده أربعين ألف مقاتل ، وبلغت إحدى التجريدات في عهد الملك الناصر مئة وخمسين ألف مقاتل ، ثم تطور هذا الجيش ، فأصبح يضمُّ قوات مركزية في مصر ، وقوات احتياطية ، ودخل في قوامه جيوش القبائل العربية ، والتركمان ، والأكراد ، ووصل حجمه إلى ثلاثمئة وسبعة وخمسين ألفاً .

وكذلك فإنه طرأ تطوير كبير على نوعية الأسلحة ، والاختصاصات المتعددة في الجيش ، وتمَّ بناء الجسور ، والقناطر ، والتُّرْع ، كما كان سلاح النفط ، والنيران في مقدمة الأسلحة التي أصابها التطوير ؛ إذ تنوعت المواد الحارقة ، واستخدمت على نطاق واسع ، وغير ذلك من أنواع الأسلحة ^(١) .

هذه أهم نتائج وآثار معركة عين جالوت على العالم الإسلامي والإنسانية .



الخلاصة

اهتمَّ الكتاب بجهود المماليك في التصديّ للمشروع المغولي ، وأنصفوهم ، وترجموا لسيف الدين قطز ترجمة مفصلة اهتمت بفقهه في إدارة الصراع مع المشروع المغولي ، ووقفوا مع أسباب انتصار المسلمين في عين جالوت مع نوع من التحليل ، واستخراج السنن ، واستلهام العبر ، والدروس ، والتي كان من أهمّها ، القيادة الحكيمة ، ووضوح الرؤية ، والهدف ، ونقاء الهوية ، والحرص على الشهادة ، وعدم موالاته أعداء الأمة ، وتوسيد الأمر إلى أهله ، والجيش القوي ، وإحياء روح الجهاد ، والأخذ بسنة الأسباب ، كملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي ، والتدريب بشكل متواصل ، وعبقريّة التخطيط ، وبعد نظر سيف الدين ، وسياسته الحكيمة ، وتوفر صفات الطائفة المنصورة في الجيش المملوكي ، وسنة التدرج ، ووراثته المشروع المقاوم ، والاستعانة بالعلماء ، واستشارتهم ، والزهد في الدنيا ، والصراعات داخل بيت الحكم المغولي ، وسنة الله في أخذ الظالمين ، والطغاة .

وسنواصل بإذن الله تعالى دراسة عهد المماليك دراسة

شاملة ، وسيلحق هذا الكتاب بعض الكتب حتى نغطي عهد المماليك بإذن الله تعالى ، فما كان في هذه المباحث من صواب فهو محض فضل الله عليّ ؛ فله الحمد المنة ، وما كان فيه من خطأ ؛ فاستغفر الله تعالى ، وأتوب إليه ، والله بريء منه ، وحسبي : أني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ ، وعسى ألا أحرّم الأجر ، وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين ، وأن يذكرني من يقرؤه في دعائه ، فإنّ دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة ؛ إن شاء الله تعالى .

وأختتم هذا الكتاب بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] وبقول الشاعر الذي عاصر عهد المماليك (ابن الوردي) :

واثق الله فتقوى الله ما	جاوزت قلب إمريء إلا وصل
ليس من يقطع طرقاً بطلاً	إنما من يتق الله البطل
واهجر الخمرة إن كنت فتى	كيف يسعى في جنون من عقل
صدّق الشرع ولا تركن إلى	رجل يرصد بالليل زحل
حارت الأفكار في قدرة من	قد هدانا سُبُلنا عز وجل
كُتب الموت على الخلق فكم	فلّ من جمع وأفنى من دول
أين نمروذ وكنعان ومن	ملك الأمر وولّى وعزل
أين عادّ أين فرعون ومن	رفع الأهرام من يسمع يخل
أين من سادوا وشادوا وبنوا	هلك الكلّ ولم تغن القل

أين أرباب الحجا أهل التَّهْيِ
 سيعيد الله كلاً منهم
 أي بني اسمع وصايا جمعت
 اطلب العلم ولا تكسل فما
 واحتفل للفقهِ في الدين ولا
 واهجر النوم وحصله فمن
 لا تقل قد ذهب أربابه
 في ازدياد العلم إرغام العدي
 أنا لا أختار تقيلاً يد
 واترك الدنيا فمن عادتها
 قيمة الإنسان ما يحسنه
 إن نصف الناس أعداء لمن
 قَصَرَ الآمال في الدنيا تفز
 غِبْ وَرُزْ غَبّاً تزد حباً فمن
 حبُّك الأوطان عجز ظاهر
 فمكث الماء يبقى أسناً

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ،
 أستغفرك وأتوب إليك !



أهم المراجع والمصادر

- ١ - أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ : د . إبراهيم علي شعوط ، المكتب الإسلامي ، الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- ٢ - أبطال ومواقف : أحمد فرح عقيلان ، دار المعراج الدولية ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .
- ٣ - الأتراك الخوارزميون : صبري سليم ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر طبعة ١٤١٩ هـ / ٢٠٠٠ م .
- ٤ - أخبار الأيوبيين : لابن العميد ، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد - بلا .
- ٥ - أخبار الدولة السلجوقية : تصحيح محمد إقبال لاهور .
- ٦ - إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات الإعلامية ، بالتطبيق على قناة الجزيرة : دار العرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م . الشيخ فيصل بن جاسم بن محمد آل ثاني .

- ٧ - الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار : جودت الركابي
دار الفكر المعاصر ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
- ٨ - الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي : محمد نصر مهنا ،
الطبعة الأولى ١٩٩٠ - ١٩٩١م ، المكتب الجامعي
الحديث .
- ٩ - أصداء الغزو المغولي : مأمون جزّار ، مكتبة الأقصى
الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ١٠ - أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية : د . ناصر
القفاري ، دار الرضا الجيزة مصر ، الطبعة الثالثة
١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- ١١ - أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : محمد راغب الحلبي ،
المطبعة العلمية الأولى ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م .
- ١٢ - الإعلام : للزركي ، خير الدين الزركلي ، دار العلم ،
بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ .
- ١٣ - الأغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة : لابن
شداد ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية
١٩٥٣م .
- ١٤ - أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي : رؤية تصحيحية ،
يحيى محمود بن جنيد ، الدار العربية للموسوعات ،
الطبعة الأولى ٢٠٠٥م / ١٤٢٦هـ .

- ١٥ - أيعيد التاريخ نفسه : محمد العبد ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
- ١٦ - الأيوبيون بعد صلاح الدين والحملات الصليبية ، الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة : علي محمد الصلابي .
- ١٧ - بدائع الزهور في وقائع الذُّهور : ابن أبي إياس أبي البركات الناصري محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الطبعة الأولى ١٩٧٥م .
- ١٨ - البداية والنهاية : للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية بدار هجر ، طبعة أولى .
- ١٩ - بغداد مدينة السلام وغزو المغول : سلمان التكريتي ، مكتبة الشرف الجديد ، بغداد ١٩٨٨م .
- ٢٠ - بنو أمية بين السقوط والانتحار : د . عبد الحليم عويس ، دار الصحوة ، دار الوفاء ، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .
- ٢١ - بيت المقدس والمسجد الأقصى دراسة تاريخية موثقة : محمد محمد حسن شُرَّاب ، دار القلم دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

٢٢ - تاريخ ابن الوردي ، نعمة المختصر في أخبار البشر : زين الدين عمر بن الوردي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م .

٢٣ - تاريخ ابن خلدون : المسمى : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ط ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

٢٤ - تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني : د . شوقي .

٢٥ - تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي : ترجمة إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواري القاهرة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .

٢٦ - التاريخ الإسلامي مواقف وعبر : د . عبد العزيز الحميدي ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .

٢٧ - تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة : محمد سهيل طقوش ، دار النفائس الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

٢٨ - تاريخ الحروب الصليبية : محمود سعيد عمران ، دار النهضة الطبعة الثانية ١٩٩٩م .

- ٢٩ - تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى : ماجد عبد المنعم ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٦٣ م .
- ٣٠ - تاريخ الخلفاء : للسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٩ م .
- ٣١ - تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس : حسين بن محمد البكري ، طبعة مصر ١٢٨٣ هـ .
- ٣٢ - تاريخ الدولة المغولية في إيران : فهمي عبد السلام عبد العزيز ، القاهرة ١٩٨١ م .
- ٣٣ - تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ، منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت طبعة ١٤ يناير ٢٠٠٠ م .
- ٣٤ - تاريخ الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، مؤسسة الإعلامي بيروت .
- ٣٥ - تاريخ العراق بين احتلالين : عباس العزاوي بغداد ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥ م .
- ٣٦ - تاريخ القبائل العربية : محمود السيد ، مؤسسة شباب الجامعة .
- ٣٧ - تاريخ المغول : عباس إقبال .
- ٣٨ - تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان ، حتى قيام الدولة التيمورية : عباس إقبال ، ترجمة عبد الوهاب علّوب ، المجمع الثقافي أبو طيب ١٤٢٠ هـ .

- ٣٩ - تاريخ المغول والمماليك : د . أحمد عودات ، جميل
بيضون ، شحادة الناطور ، دارالكندي ، إربد ، ١٩٩٠ .
- ٤٠ - تاريخ إيران بعد الإسلام : عباس إقبال ، نقله إلى العربية
د . محمد علاء منصور ، نشر دار الثقافة العربية
١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .
- ٤١ - تاريخ بخاري : للنرخي ، أبو بكر محمد بن جعفر ،
عزبه عن الفارسية ، وحققه د . أمين بدوي نصر الله
الطرازي دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة .
- ٤٢ - تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي : محمد أحمد
النظر ، دار البداية ، عمان الأردن ، الطبعة الأولى
٢٠٠٦ م - ١٤٢٦ هـ .
- ٤٣ - تاريخ دولتي المرابطين والموحدين : للصّلاّبي ، علي
محمد الصّلاّبي ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ،
الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ .
- ٤٤ - تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار :
عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، دار الجيل بيروت ،
الطبعة الثانية ١٩٧٨ م .
- ٤٥ - تاريخ فاتح العالم : عطا ملك الجويني ، نقله عن الفارسية
محمد التونجي ، دمشق ١٩٨٥ م .

- ٤٦ - تاريخ مختصر الدول : الطبعة الثانية ، المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠ م .
- ٤٧ - تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب : د . أحمد فؤاد سيد ، مكتبة مدبولي القاهرة ، ٢٠٠٢ م .
- ٤٨ - تاريخ مصر : لابن ميسر .
- ٤٩ - تاريخ مصر : إسكندر عمون ، مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر ، الطبعة السادسة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣ م .
- ٥٠ - تاريخنا المفترى عليه : يوسف القرضاوي ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥ م .
- ٥١ - تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء ، يوسف العظم .
- ٥٢ - تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين في القرآن الكريم : علي محمد الصلابي ، دار الصحابة ، الشارقة ، الطبعة الأولى .
- ٥٣ - التتار والمغول : د . محمود السيد مؤسسة شباب الجامعة طبعة ٢٠٠٤ م .
- ٥٤ - التحفة الملوكية في الدولة التركية : بيارس المنصوري ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .
- ٥٥ - تدوين الدستور الإسلامي : أبو الأعلى المودودي .

- ٥٦ - الترف وأثره في الدعاة والمصلحين : محمد موسى الشريف
دار الأندلس الخضراء ، جدة السعودية ، الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣ م .
- ٥٧ - تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور : محيي
الدين عبد الظاهر ، الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة
١٩٦١ م .
- ٥٨ - تفسير ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل ، تحقيق عبد العزيز
غنيم ، ومحمد أحمد عاشور ، ومحمد إبراهيم ، مطبعة
الشعب ، القاهرة ، مصر .
- ٥٩ - تفسير الألوسي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع
المثاني : إدارة الطباعة بالهند ، بدون ذكر سنة الطبع .
- ٦٠ - التفسير الكبير : لفخر الدين الرازي .
- ٦١ - جامع البيان : للطبري ، محمد بن جرير الطبري ، المكتبة
التجارية ، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ .
- ٦٢ - جامع التواريخ : رشيد الدين فضل الله الهمداني ، دراسة
وترجمة الدار الثقافية للنشر ، الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠ .
- ٦٣ - الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد القرطبي ، دار
الكتب العلمية بيروت الطبعة الخامسة
١٤١٧هـ / ١٩٩٦ م .

- ٦٤ - الجبهة الإسلامية لمواجهة المخططات الصليبية ، جبهة الشام وفلسطين ومصر : د . ماجد غنيم أبو سعيد ، دار السلام ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .
- ٦٥ - جنكيز خان قاهر العالم : غروسية نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى ، دمشق ١٩٨٢م .
- ٦٦ - جنكيز خان : العقيد محمد أسد الله ، دار النفائس .
- ٦٧ - الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في عهد العصر المملوكي : د . فايد حمّاد محمد عاشور ، جرّوس برس ، طرابلس ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م / ١٤١٥هـ .
- ٦٨ - جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين : د . عبد الله سعيد محمد سافر الغامدي ، جامعة أم القرى ، رسالة دكتوراه .
- ٦٩ - الجوّاري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي ، والأيوبي : نجوى كمال كيرة ، مكتبة زهراء الشرق القاهرة ، مصر الولي ٢٠٠٧م .
- ٧٠ - جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك : لابن إياس ، تحقيق د . محمد زينهم ، الدار الثقافية الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٦م .

- ٧١ - الحروب الصليبية بين الشرق والغرب : د . محمد مؤنس عوض ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ / ٢٠٠٠ م ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية .
- ٧٢ - حروب المغول : د . أحمد حطيط ، دار الفكر اللبناني ، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م .
- ٧٣ - الحوادث الجامعة : لابن الغوطي .
- ٧٤ - الحياة السياسية في العراق : د . محمد صالح القزاز ، مطبعة القضاء في النجف ١٩٧٠ م .
- ٧٥ - خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد : تأليف السيد حسن شبير ، دار الملاك ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .
- ٧٦ - دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية ج ٧ العدد الرابع في ١٣٧ مادة جنكيز خان المغول ص : ٣٤٣ .
- ٧٧ - دراسات تاريخية : عماد الدين خليل ، دار ابن كثير ، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م ، دمشق ، بيروت .
- ٧٨ - دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك : د . نعمان محمود جبران ، د . محمد حسن العمادي ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .
- ٧٩ - دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي : سحر السيد عبد العزيز سالم ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م ، مؤسسة شباب الجامعة .

- ٨٠ - الدعوة إلى الإسلام : آرنولد .
- ٨١ - دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية : د . آسيا سليمان نقلني ، مكتبة العبيكان الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .
- ٨٢ - دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة : عبد القادر أحمد أبو صيني ، رسالة دكتوراه معهد التاريخ العربي للتراث العلمي في الدراسات العليا .
- ٨٣ - دول الإسلام للذهبي : لأبي عبد الله محمد الذهبي ، دار صادر ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ .
- ٨٤ - دولة آل سلجوق للأصفهاني : للبنداري ، القاهرة طبعة قديمة ١٩٠٠م .
- ٨٥ - الدولة الأموية عوامل الازدهار ، وتداعيات الانهيار : د . علي محمد الصّلابي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
- ٨٦ - الدولة الأيوبية تاريخها السياسي والحضاري : د . عرب دعكور ، دار المواسم طبعة سنة ٢٠٠٦م بيروت لبنان .
- ٨٧ - الدولة الخوارزمية : د . نافع العبود .
- ٨٨ - الدولة الخوارزمية والمغول : حافظ حمدي دار الفكر العربي .

- ٨٩ - دولة السلاجقة : للصّلاّبي ، دار المعرفة ، بيروت لبنان .
- ٩٠ - دولة السلاجقة : حسين عبد المنعم مكتبة الأنجلو
١٩٧٥ م .
- ٩١ - الدولة العباسية للخضري : محمد الخضري بك ، مؤسسة
دار الكتاب الحديث ، بيروت لبنان ١٩٨٩ م .
- ٩٢ - الدولة العثمانية : للصّلاّبي ، علي محمد الصّلاّبي ، دار
الإيمان الإسكندرية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م .
- ٩٣ - الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي :
د . عبد الجبار ناجي ، صلاح عبد الهادي ،
د . إسماعيل النعيمي ، د . مهين مجيد ، مركز
الإسكندرية للكتاب طبعة ٢٠٠٣ م .
- ٩٤ - الدولة المستقلة في المشرق الإسلامي : د . عصام الدين
عبد الرؤوف الفقي ، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر
١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ .
- ٩٥ - دولة المماليك : سمير فراج ، مركز الراية للنشر
والإعلام .
- ٩٦ - ديوان ابن الوردي : زين الدين عمر الوردي ، دار الآفاق
العربية ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م مدينة نصر
القاهرة .

- ٩٧ - ذيل مرآة الزمان : لليونيني ، قطب الدين أبو الفتح
موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين اليونيني
البلعبيكي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر
آباد الدكن .
- ٩٨ - رجال الفكر والدعوة في الإسلام : أبو الحسن الندوي ،
دار ابن كثير ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ / ١٩٩٩ .
- ٩٩ - رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : لابن تيمية .
- ١٠٠ - الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر : محيي الدين
عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر ، تحقيق عبد
العزيز الخويطر ، الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
- ١٠١ - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة : ج ٩ ، بيبرس الدوادار
تحقيق زبيدة عطا .
- ١٠٢ - سقوط الدولة العباسية : د . سعد الغامدي ، مؤسسة
الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ١٠٣ - السلاجقة في التاريخ والحضارة : أحمد حلمي ، دار
السلاسل ، الكويت ، الطبعة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ١٠٤ - السلاطين في المشرق العربي ، معالم دورهم السياسي
والحضاري : د . عصام محمد شباور ، دار النهضة
العربية طبعة ١٩٩٤م .

- ١٠٥ - السلطان المظفر سيف الدين قطز : قاسم عبده ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- ١٠٦ - السلوك لمعرفة دول الملوك : أحمد بن علي المقرئ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٧١م دار الكتب القاهرة ١٩٧٢م .
- ١٠٧ - سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث ، تحقيق عزت عبيد الدعاس ، حمص ، الناشر : محمد السيد .
- ١٠٨ - السنن الإلهية : د . عبد الكريم زيدان ، دار الرسالة .
- ١٠٩ - سنن سعيد بن منصور .
- ١١٠ - سير أعلام النبلاء : للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة السابعة ١٩٩٠م بيروت ، لبنان .
- ١١١ - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي : محمد أحمد النسوي ، تحقيق حافظ أحمد حمدي ، دار الفكر العربي ، مصر سنة ١٩٥٣م .
- ١١٢ - شجرة الدرّ قاهرة الملوك : نور الدين خليل ، دار الكتب المصرية .
- ١١٣ - شجرة الدرّ : د . يحيى الشامي ، دار الفكر العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م .

- ١١٤ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب : لابن العماد ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .
- ١١٥ - الشرق الأدنى في العصور الوسطى : الأيوبيين د . السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية .
- ١١٦ - شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : لأحمد إبراهيم الحنبلي ، مكتبة الثقافة الدينية ، طبعة سنة ١٩٩٦م / ١٤١٥هـ .
- ١١٧ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا : للقلقشندي .
- ١١٨ - صحيح البخاري : عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري ، اعتني به أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية ، الرياض ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- ١١٩ - صحيح مسلم : للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، طبع دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .
- ١٢٠ - صفة الغرباء : سلمان العودة ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ / ١٩٩١م المملكة العربية السعودية .
- ١٢١ - صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء : العز بن عبد السلام سليم عيد الهاللي ، دار ابن الجوزي الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

- ١٢٢ - صلاح الدين الأيوبي : للصَّلابي ، دار المعرفة ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .
- ١٢٣ - الضربات التي وجهت للانقضااض على الأمة الإسلامية : أنور الجندي ، دار القلم دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- ١٢٤ - الضعف المعنوي ، وأثره في سقوط الأمم : د . حمد بن صالح السحيباني ، كتاب المنتدى ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .
- ١٢٥ - الطائفة المنصورة : سلسلة تصدر عن مجلة البيان .
- ١٢٦ - طبقات الشافعية : للسبكي ، عبد الوهاب علي السبكي ، تحقيق عبد الفتاح الحلول ، وزميله ، دار إحياء الكتب العربية القاهرة .
- ١٢٧ - الطريق إلى القدس : د . محسن محمد صالح مركز الإعلام العربي ، القاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
- ١٢٨ - الطريق إلى بيت المقدس : د . جمال عبد الهادي محمد ، و : د . وفاء محمد رفعت ، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، مصر ، القاهرة .
- ١٢٩ - الظاهر بيبرس : بيتر توراو ، ترجمة محمد جديد .

- ١٣٠ - العالم الإسلامي والغزو المغولي : إسماعيل الخالدي ،
مكتبة صلاح الدين ، مكتبة الفلاح الكويت ، الطبعة
الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- ١٣١ - العبر في أخبار من غبر : للذهبي .
- ١٣٢ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار : عبد الرحمن
الجبرتي ، القاهرة ، الطبعة ١٩٥٨م .
- ١٣٣ - العدوان الصليبي على بلاد الشام : د . جوزيف نسيم ،
دار النهضة عام ١٩٨١م بيروت .
- ١٣٤ - العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية : عبد الأمير
الرفيعي ، الفرات ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م .
- ١٣٥ - العراق سياقات الوحدة والانقسام : بشير نافع ، دار
الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .
- ١٣٦ - العرب والتتار : إبراهيم أحمد العدوي ، المكتبة
الثقافية ، القاهرة ١٩٦٣م .
- ١٣٧ - العزيز عبد السلام : للزحيلي ، دار القلم دمشق ،
الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- ١٣٨ - عصر الدولة الزنكية : علي محمد الصلابي ، دار ابن
كثير ، دمشق - بيروت ، الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

- ١٣٩ - عقيدة الجمان في تاريخ أهل الزمان : البدر محمود بن أحمد بن موسى ، تحقيق محمد أمين ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٩٢ م .
- ١٤٠ - العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية : د . منذر الحايك ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م الأوائل ، دمشق ، سورية .
- ١٤١ - عودة الروح للخلافة الإسلامية : د . محمد صالح محيي الدين ، دار طويق ، السعودية ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
- ١٤٢ - عين جالوت : فتحي شهاب الدين ، دار البشير ، طنطا ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- ١٤٣ - الغزو المغولي لديار الإسلام : الفريق ركن د . محمد فتحي أمين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ١٤٤ - فتاوي ابن تيمية : جمع عبد الرحمن قاسم ، طبعة الرئاسة العامة للبحرین الشریفین .
- ١٤٥ - فتح القسطنطينية ، ترجمة الدكتور حسن حبشي .
- ١٤٦ - الفتوح الإسلامية عبر التاريخ : د . عبد العزيز إبراهيم العمري ، مركز الدراسات والإعلام ، دار إشبيلية ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

- ١٤٧ - الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند : د . سعد حذيفة الغامدي ، مركز دار إشبيلية ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
- ١٤٨ - الفخري في الآداب السلطانية : لابن طباطبا ، محمد بن علي ، القاهرة سنة ١٣٢٦هـ بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٦م .
- ١٤٩ - الفقيه والدولة ، الفكر السياسي الشيعي : فؤاد إبراهيم ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م .
- ١٥٠ - في التاريخ الأيوبي والمملوكي : د . أحمد مختار العبادي ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية .
- ١٥١ - في التأصيل الإسلامي للتاريخ : عماد الدين خليل .
- ١٥٢ - في التفسير الإسلامي للتاريخ : نعمان السامرائي مكتبة المنار ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٩٥م .
- ١٥٣ - في تاريخ الأيوبيين والمماليك : قاسم عبده قاسم ، طبعة ٢٠٠٧م مزيدة ومنقحة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية .
- ١٥٤ - في ظلال القرآن : سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، بيروت ط ١١ ، ١٤٠٢هـ .
- ١٥٥ - قصة التتار من البداية إلى عين جالوت : د . راغب السرجاني ، مؤسسة اقرأ ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .

- ١٥٦ - قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته : النبراوي ، محمد نصر مهنّا ، منشأة المعارف الإسكندرية ، الطبعة ١٩٨٣ م .
- ١٥٧ - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام : أحمد مختار العبادي ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان .
- ١٥٨ - قيام دولة المماليك الأولى للعبادي : أحمد مختار العبادي طبعة ٢٠٠٢ م ، مؤسسة شباب الجامعة .
- ١٥٩ - الكامل في التاريخ : لابن الأثير ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، دار صادر سنة ١٩٧٩ .
- ١٦٠ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : لأبي شامة عبد الرحمن إسماعيل ، تحقيق د . حلمي أحمد القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
- ١٦١ - كنز الدرر وجامع الغرر : أبو بكر بن عبد الله الدوادراي ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٦١ م .
- ١٦٢ - كيف دخل التتار بلاد المسلمين : د . سليمان العودة ، دار طيبة للنشر ، السعودية ، الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
- ١٦٣ - لحروب الصليبية : أرنست باركر ، نقله إلى اللغة العربية د . السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية ، بيروت .

- ١٦٤ - مآثر الإنافة في معالم الخلافة : للقلقشندي ، تحقيق عبد الستار أحمد الفرج ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .
- ١٦٥ - ماهية الحروب الصليبية : د . قاسم عبده قاسم ، ذات السلاسل ، الكويت ، الطبعة الثانية ١٩٩٣م .
- ١٦٦ - مجالس المؤمنين : للششتري ، نور الله بن شريف ، طهران ١٢٩٩هـ .
- ١٦٧ - مجلة لواء الإسلام : العدد الخامس ، أبو زهرة .
- ١٦٨ - مختصر صحيح مسلم : للحافظ المنذري .
- ١٦٩ - المختصر في أخبار البشر : أبو الفداء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ، بيروت ، بدون تاريخ طبع .
- ١٧٠ - مذكرات جوانفيل : جان جوانفيل ، ترجمة د . حسن حبشي ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٨م .
- ١٧١ - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : سبط ابن الجوزي ، الطبعة الأولى ، حيدرآباد ، الهند ، سنة ١٩٥١ - ١٩٥٢م .
- ١٧٢ - المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين : د . عبد الحليم عويس ، دار العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .

- ١٧٣ - مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني .
- ١٧٤ - مصر في العصور الوسطى : محمود محمد الحويري ،
الطبعة الثانية ٢٠٠٢م ، المكتب المصري لتوزيع
المطبوعات سنة ٢٠٠٢م .
- ١٧٥ - مصر في عهد بناء القاهرة : إبراهيم شعوط .
- ١٧٦ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك : د . سعيد
عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية .
- ١٧٧ - مصر والشام في عصر الأيوبيين : سعيد عبد الفتاح
عاشور ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان .
- ١٧٨ - المظفر قطز ، ومعركة عين جالوت : بسام العسلي ، دار
النفائس ، الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ١٧٩ - معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج :
د . يوسف حسن غوانمة ، الطبعة الأولى
١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ، دار الفكر .
- ١٨٠ - معجم البلدان : شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت
الحموي ، بيروت ، دار صادر ١٩٧٩م .
- ١٨١ - معركة عين جالوت ، دراسة في الجيش المملوكي
والمغولي : محمد ضاهر وتر ، الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

- ١٨٢ - المغول : د . السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ١٨٣ - المغول في التاريخ : للدكتور الصياد ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان .
- ١٨٤ - المغول والأوروبيون والصليبيون : محمود عمران ، دار المعرفة الجامعية ، قناة السويس مصر طبعة ٢٠٠٥م .
- ١٨٥ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : جمال الدين محمد سالم بن واصل .
- ١٨٦ - الملك الصالح وإنجازاته السياسية والعسكرية : فاطمة زبار الحمداني ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، رسالة ماجستير عام ١٩٩٥م .
- ١٨٧ - الملك المظفر قطز بن عبد الله المعزي : رحاب عكاوي ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى .
- ١٨٨ - من أجل فلسطين : حسني أدهم جرار ، مؤسسة الزيتونة للنشر ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م الأردن ، عمان .
- ١٨٩ - منهاج السنة : لابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، مؤسسة قرطبة .

- ١٩٠ - منهج الرسول في غرس الروح الجهادية : د . سيد نوح .
- ١٩١ - المواعظ والاعتبار : للمقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ط القاهرة ١٢٧٠ .
- ١٩٢ - موسوعة تاريخ العرب ، عصر المماليك والعثمانيون : عبد المنعم الهاشمي ، دار البحار ، بيروت ٢٠٠٦ م .
- ١٩٣ - موسوعة تاريخ مصر : لأحمد حسين .
- ١٩٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف .
- ١٩٥ - نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي : عبد العظيم الديب ، دار الوفاء ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ .
- ١٩٦ - نزهة الأنام في تاريخ الإسلام : لصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدر العلاني الملقب بأبي دقماق ، دراسة وتحقيق سمير طيارة ، المكتبة العصرية لبنان .
- ١٩٧ - نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق : د . أحمد عبد الله مفتاح ، دار التوزيع والنشر الإسلامية .
- ١٩٨ - النظم الإسلامية : حسن إبراهيم حسن .
- ١٩٩ - نهاية الأرب في فنون الأدب : أحمد عبد الوهاب النويري ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٣٩٥ هـ .

٢٠٠ - نهر التاريخ الإسلامي منابعه العليا وفروعه العظمى :
د . إبراهيم أحمد العدوي ، دار الفكر العربي ،
القاهرة .

٢٠١ - نيل الأوطار : للإمام الشوكاني .

٢٠٢ - هارولد لام جنكيز خان : نقله إلى العربية لواء بهاء الدين
نوري ، باسم : جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم ،
بغداد سنة ١٩٤٦ م .

٢٠٣ - هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس :
د . ماجد عرسان الكيلاني ، الدار السعودية للنشر
والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م ، جدة .

٢٠٤ - الوافي بالوفيات : تأليف صلاح الدين أيبك الصفدي ،
تحقيق هملوت ريتز ، طبع دار النشر فرانز ستانير
(ألمانيا) ١٣٨١هـ / ١٩٦٢ م .

٢٠٥ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي : محمد ماهر
حمادة ، بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م .

٢٠٦ - الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم : إبراهيم النعمة ،
طبعة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م ، مطبعة الزهراء الحديثة .

٢٠٧ - ولاية المرأة في الفقه الإسلامي : إعداد حافظ محمد
أنور ، دار بلنسية ، السعودية .

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٧
* الفصل الأول : قيام دولة المماليك	٣١
☆ المبحث الأول : أصول المماليك ونشأتهم	٣١
● أولاً : من هم المماليك	٣١
١ - نجم الدين أيوب والمماليك	٣٧
أ - الصالحية	٣٨
ب - ثكنات المماليك الصالحية في جزيرة	
الروضة	٤٠
ج - هل السلطان الصالح هو أول من سمى	
المماليك البحرية بذلك ؟	٤١
● ثانياً : نظام التدريب والترية والتعليم للمماليك	٤٣
١ - المرحلة الأولى	٤٤
٢ - المرحلة الثانية	٥٠

الموضوع	رقم الصفحة
٣ - المرحلة الثالثة	٥٢
٤ - نظام الأكل والشباب والراحة	٥٣
٥ - نظام التخرج وإنهاء الدراسة	٥٤
٦ - لغة المماليك	٥٥
٧ - رابطة الأستاذية بين المماليك	٥٥
٨ - رابطة الخشداشية (أي : الزمالة)	٥٦
٩ - هل هؤلاء أجلاب ؟	٥٧
١٠ - الكليات العسكرية الحديثة	٥٨
١١ - الشيخ عز الدين عبد السلام بائع أمراء المماليك	٥٩
١٢ - عصر الأفذاذ	٦٢
● ثالثاً : جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية	
السابعة	٦٤
١ - معركة المنصورة	٦٦
٢ - تورانشاه يقود المعركة	٦٨
٣ - صور من شجاعة المماليك	٧٠
٤ - لويس التاسع في الأسر وشروط الصلح	٧٢
٥ - من أسباب هزيمة الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة	٧٤

الموضوع	رقم الصفحة
---------	------------

- | | |
|---|-----|
| ٦ - من نتائج الحملة الصليبية السابعة | ٧٥ |
| أ - ارتفاع شأن ومكانة المماليك | ٧٥ |
| ب - عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها | ٧٥ |
| ٧ - مقتل توارنشاه وزوال الدولة الأيوبية | ٧٦ |
| ٨ - كيفية مقتل توارنشاه ؟ | ٨٢ |
| ● رابعاً : أسباب سقوط الدولة الأيوبية | ٨٤ |
| ١ - توقف منهج التجديد الإصلاحي | ٨٨ |
| ٢ - الظلم | ٩٢ |
| ٣ - الترف والانغماس في الشهوات | ٩٦ |
| ٤ - تعطيل الخيار الشوري | ٩٨ |
| ٥ - النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية | ٩٩ |
| ٦ - موالاة النصارى | ١٠٢ |
| ٧ - فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري | ١٠٤ |
| ٨ - ضعف الحكومة المركزية | ١٠٥ |
| ٩ - ضعف النظام الاستخباراتي | ١٠٨ |
| ١٠ - غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي | ١٠٩ |
| ١١ - وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة ورثته | ١١٠ |

الموضوع رقم الصفحة

☆ المبحث الثاني : سلطنة المماليك بين شجرة الدر

- ١١٣ وعز الدين آيبك
- أولاً : شجرة الدر ١١٣
- ١ - شجرة الدر أيوبية أم مملوكية ؟ ١١٣
- ٢ - سلطنة مصر ١١٤
- ٣ - الدعاء لها ١١٦
- ٤ - نقش توقيعها ١١٧
- ٥ - الاحتفال بتنصيبها ١١٨
- ٦ - رفض الخليفة والعلماء وعامة الناس لتولي شجرة الدر السلطنة ١١٨
- ٧ - شجرة الدر تخلع نفسها ١١٩
- ٨ - حكم تولي المرأة للولاية العامة ١٢٠
- ثانياً : سلطنة عز الدين آيبك ١٢٥
- ١ - الخطر الأيوبي والصليبي ١٢٦
- أ - لويس التاسع واستغلال فرصة النزاع بين المسلمين ١٢٨
- ب - تردد السفارات بين ملوك مصر والشام ١٢٩
- ٢ - معركة بين المماليك والأيوبيين ١٣٢

الموضوع	رقم الصفحة
٣ - تحالف مملوكي صليبي	١٣٣
٤ - الخليفة العباسي وسعيه في الصلح	١٣٥
٥ - تمرد القبائل العربية ضد المماليك في مصر	١٣٧
٦ - خطر زملائه المماليك ومقتل الفارس أقطاي	١٤٤
٧ - مقتل السلطان أيبك وشجرة الدر	١٤٩
٨ - سلطنة عليّ بن المعز ثم تولي سيف الدين	
قطز	١٥٥
٩ - ترتيب سيف الدين قطز للأمر الداخلي	١٦١
* الفصل الثاني : معركة عين جالوت الخالدة	١٦٥
☆ المبحث الأول : احتلال المغول لبلاد الشام والجزيرة	١٦٥
أولاً : صمود ميّافارقين	١٦٥
١ - آمد بمواجهة التتار	١٦٦
٢ - تحدي ميّافارقين للتتار	١٦٧
٣ - مشروع الكامل لمواجهة التتار	١٦٧
٤ - ردّ الناصر على مشروع الكامل	١٦٩
٥ - سقوط ميّافارقين واستشهاد الكامل	١٧١
٦ - ماردين	١٧٥
ثانياً : السلطان الناصر بين المقاومة والاستسلام	١٧٨
١ - ردّ هولاكو على الملك الناصر	١٧٩

الموضوع	رقم الصفحة
٢ - استنجد الناصر بالمماليك	١٨١
٣ - سقوط حلب	١٨٢
أ - الاضطرار إلى التسليم	١٨٤
ب - هدم أسوار المدينة وقلعتها ومساجدها	١٨٤
ج - غنائم لحلفاء هولاكو من النصاري	١٨٥
٤ - دمشق	١٨٧
أ - موقف ببيرس البندقداري	١٨٧
ب - تسليم دمشق	١٨٨
ج - تسليم حماة	١٨٩
د - موقف النصاري في الشام	١٩١
٥ - نهاية السلطان الناصر الأيوبي	١٩٤
☆ المبحث الثاني : مقدمات معركة عين جالوت وسير	
أحداثها	١٩٩
أولاً : احتلال مصر هدف استراتيجي للمغول	٢٠٠
ثانياً : خطوات سيف الدين قطز لتوحيد الصف	
الإسلامي	٢٠١
ثالثاً : رسالة هولاكو إلى سيف الدين قطز	٢١٣
١ - مجلس شوري حربي	٢١٥
٢ - التغيير العام	٢١٧

الموضوع	رقم الصفحة
٣ - قتل سفراء هولاءكو	٢١٩
رابعاً : اليوم الفصل	٢٢١
١ - مقدمات الصدام	٢٢١
٢ - تحرك جيوش المسلمين	٢٢٢
٣ - معركة غزة	٢٢٣
٤ - معلومات استخبارتية مهمة	٢٢٥
٥ - الاشتباك مع المغول	٢٢٧
٦ - شجاعة القائد المغولي	٢٢٩
٧ - تحرير دمشق وبلاد الشام	٢٣٢
٨ - وصول سيف الدين قطز إلى دمشق	٢٣٥
٩ - ترتيب أمور الولايات الشامية	٢٣٧
١٠ - موقف هولاءكو من الهزيمة	٢٣٩
١١ - ما قيل من شعر في عين جالوت	٢٤٠
خامساً : مقتل سيف الدين قطز	٢٤١
١ - أسباب مقتل قطز	٢٤٤
٢ - الطريق إلى عرش الممالك	٢٤٨
٣ - نتائج مقتل قطز	٢٤٩
٤ - قبر سيف الدين قطز وثناء العز بن عبد السلام	
عليه	٢٥٢

الموضوع	رقم الصفحة
---------	------------

- | | |
|---|-----|
| ٥ - ردة فعل المغول لمقتل قطز | ٢٥٤ |
| سادساً : أسباب انتصار المسلمين في عين جالوت | |
| ١ - القيادة الحكيمة | ٢٥٨ |
| أ - وضوح الرؤية ونقاء الهوية | ٢٦٢ |
| ب - الدعاء سلاح فتاك | ٢٦٣ |
| ج - الحرص على الشهادة | ٢٦٣ |
| د - رؤيا صادقة | ٢٦٤ |
| هـ - القدوة | ٢٦٥ |
| و - عدم موالاة أعداء الأمة | ٢٦٦ |
| ٢ - توسيد الأمر إلى أهله | ٢٦٧ |
| أ - الظاهر ركن الدين بيارس البندقداري | ٢٦٨ |
| ب - الأمير فارس أقطاي المستعرب | ٢٧٠ |
| ج - سنجر الحلبي | ٢٧٠ |
| د - أقوش الشمس الأمير جمال الدين | ٢٧١ |
| ٣ - الجيش القوي | ٢٧٢ |
| ٤ - إحياء روح الجهاد | ٢٧٤ |
| ٥ - الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب | ٢٧٦ |
| أ - العمومية والشمولية | ٢٧٧ |

الموضوع

رقم الصفحة

- ب - ملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي ٢٧٨
- ج - التدريب بشكل متواصل ٢٧٩
- د - التخصص في التدريب ٢٨٠
- ٦ - عبقرية التخطيط ٢٨٣
- أ - الاقتصاد في القوى ٢٨٤
- ب - تجميع وحشد الجيوش على الاتجاهات الرئيسية ٢٨٥
- ج - الضغط على الأعداء ٢٨٦
- د - تحقيق المفاجأة ٢٨٧
- هـ - وضوح الهدف ٢٨٨
- و - المناورة بالقوى والوسائط ٢٨٨
- ز - السرعة في الأعمال القتالية ٢٨٩
- ح - المخابرات العسكرية ٢٩٠
- ٧ - بعد نظر سيف الدين قطز وسياسته الحكيمة ... ٢٩١
- ٨ - توفر صفات الطائفة المنصورة ٢٩٤
- أ - أنها على الحق ٢٩٤
- ب - أنها قائمة بأمر الله ٢٩٥
- ج - أنها تقوم بواجب الجهاد في سبيل الله ٢٩٥

الموضوع	رقم الصفحة
---------	------------

- | | |
|---|-----|
| د - أنها صابرة | ٢٩٦ |
| ٩ - سنة التدرج ووراثه المشروع المقاوم | ٢٩٧ |
| ١٠ - الاستعانة بالعلماء واستشارتهم | ٣٠٠ |
| ١١ - الزهد في الدنيا | ٣٠٣ |
| ١٢ - صراعات داخل بيت الحكم المغولي | ٣٠٤ |
| ١٣ - سنة الله في أخذ الظالمين والطغاة | ٣٠٧ |
| سابعاً : نتائج وآثار معركة عين جالوت | ٣٠٩ |
| ١ - تحرير بلاد الشام من المغول | ٣٠٩ |
| ٢ - تحقق الوحدة بين الشام ومصر | ٣١٠ |
| ٣ - خمود القوى المناوئة للماليك | ٣١١ |
| ٤ - انتصار الإسلام على الوثنية | ٣١٣ |
| ٥ - حدث حاسم في تاريخ البشرية | ٣١٥ |
| ٦ - روح جديدة في الأمة | ٣١٥ |
| ٧ - انحسار المد المغولي | ٣١٦ |
| ٨ - فشل التحالف بين الصليبيين والتتار | ٣١٧ |
| ٩ - إضعاف الوجود الصليبي | ٣١٧ |
| ١٠ - مدينة القاهرة | ٣١٨ |
| ١١ - ميلاد دولة المماليك الفتية | ٣١٩ |
| ١٢ - الدور الرمزي للخلافة العباسية | ٣٢٠ |

الموضوع	رقم الصفحة
---------	------------

١٣ - تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده

٣٢٠ وأنظّمته

٣٢٣ * الخلاصة

٣٢٧ * أهم المراجع والمصادر

٣٥٣ * فهرس الموضوعات



المؤلف في سطور

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام (١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م) .
- حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز . وكان ترتيبه الأول على دفعته عام (١٤١٣هـ / ١٤١٤هـ - ١٩٩٢ / ١٩٩٣م) .
- نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية في السودان عام ١٩٩٦م وكانت الرسالة العلمية : في الماجستير : « الوسطية في القرآن الكريم » ، وأما الدكتوراه فكانت : « فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم » عام ١٩٩٩م .
- البريد الإلكتروني : abumohamed2@maktoob.com

كتب صدرت للمؤلف :

- ١ - السيرة النبوية : عرض وقائع وتحليل أحداث .
- ٢ - سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه : شخصيته وعصره .

- ٣ - سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه :
شخصيته وعصره .
- ٤ - سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه :
شخصيته وعصره .
- ٥ - سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :
شخصيته وعصره .
- ٦ - سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب .
شخصيته وعصره .
- ٧ - الدولة العثمانية : عوامل النهوض والسقوط .
- ٨ - فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم .
- ٩ - تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا .
- ١٠ - تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي .
- ١١ - عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين .
- ١٢ - الوسطية في القرآن الكريم .
- ١٣ - الدولة الأموية ، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار .
- ١٤ - معاوية بن أبي سفيان ، شخصيته وعصره .
- ١٥ - عمر بن عبد العزيز ، شخصيته وعصره .
- ١٦ - خلافة عبدالله بن الزبير .
- ١٧ - عصر الدولة الزنكية .
- ١٨ - عماد الدين زنكي .

- ١٩ - نور الدين زنكي .
- ٢٠ - دولة السلاجقة .
- ٢١ - الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد .
- ٢٢ - الشيخ عبد القادر الجيلاني .
- ٢٣ - الشيخ عمر المختار .
- ٢٤ - عبد الملك بن مروان وبنوه .
- ٢٥ - فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة .
- ٢٦ - حقيقة الخلاف بين الصحابة .
- ٢٧ - وسطية القرآن في العقائد .
- ٢٨ - فتنة مقتل عثمان .
- ٢٩ - السلطان عبد الحميد الثاني .
- ٣٠ - دولة المرابطين .
- ٣١ - دولة الموحدين .
- ٣٢ - عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج .
- ٣٣ - الدولة الفاطمية .
- ٣٤ - حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي .
- ٣٥ - صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس .
- ٣٦ - استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ دروس مستفادة من الحروب الصليبية .

- ٣٧ - الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء .
- ٣٨ - الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة)
والأيوبيون بعد صلاح الدين .
- ٣٩ - المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار .
- ٤٠ - سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك .



هذا الكتاب

هذا الكتاب جزء من كتاب «المغول بين الانتشار والانكسار»، وقد رأيت نشره على أفراد لتعم الفائدة وحتى نعطي سيف الدين قطز حقه على أفراد، وقد سميت «السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت».

وقد تكلمت عن دولة المماليك وعن أصولهم ونشأتهم وعن نظام التدريب والتربية والتعليم والمراحل التي يمرون بها وعن نظام التخرج وإنهاء الدراسة ولغتهم ورابطة الأستاذية والزمالة بينهم وجهودهم في دحر الحملة الصليبية السابعة وصور من شجاعتهم وعن أسباب هزيمتهم ونتائجها.

وعن مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية وكيفية مقتل تورانشاه؟ وأسباب سقوط الدولة الأيوبية.

وكان حديثي عن شجرة الدر هل هي أيوبية أم مملوكية؟ وكيف تولت سلطنة مصر؟ وموقف الخليفة العباسي والعلماء وعامة الناس من توليها الحكم، وكيف خلعت نفسها ورشحت عز الدين أيبك لتولي السلطنة وتزوجته بعد ذلك؟ وبينت حكم الشريعة الإسلامية في تولي المرأة للولاية العامة.

وتحدثت عن سلطنة علي ابن المعز ثم تولي سيف الدين قطز، وترتيبه للأموال الداخلية. وفي الفصل الثاني: كان الحديث عن معركة عين جالوت الخالدة وانكسار المغول، وتبعت تحرك المغول بعد سقوط بغداد، وبينت كيف تم احتلال المغول لبلاد الشام والجزيرة، ووضحت مشروع الكامل الأيوبي لمواجهة التتار وكيف استشهد عند دفاعه البطولي عن ميافارقين، فقد صمدت المدينة الباسلة وظهرت فيها مقاومة ضارية بقيادته.



asaletyayinlari.com.tr

asaletyayinlari

